

د. نصر حامد أبو زيد

هكذا تكلم أبو عريبي



الهيئة المصرية
العامة للكتاب



هكذا تكلم ابن عربي

تصميم الغلاف

والإشراف الفني :

صبرى عبد الواحد

كمبيوتر جرافيك :

مهندس : سامى بخيت

هكذا تكلم ابن عربي

د. نصر حامد أبوزيد



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٢

إهداء

أن يصدر لى كتاب فى سلسلة «مكتبة الأسرة» لهو أمر يفرض على واجب أن أهديه لكل أم -أولا- ولكل أب -ثانيا-، ولكل قارئة أو قارئ ثالثا. ولكم أود لو ذكرتكم بالأسماء فردا فردا؛ لأن وجوهكم أعرفها، وملامحكم أحفظها فى ذاكرتى. يا أهلى فى القرى والنجوع، فى الحقول والمصانع، فى المدارس والجامعات. كتابى هذا هو أغنيتى من أغنياتى التى أود لو أسمعها لكم بصوتى فى آذانكم، فمن أغانيكم تعلمت الغناء. كان «عم حسن سمك»، رحمه الله، أول من علمنى الشعر فى قرىتى، وكان هو أول من علمنى «التصوف»، فأليه وإليكم أهدي هذا الكتاب «هكذا تكلم ابن عربى»

نصر أبو زيد

ليدن (هولندا)

١٤ يوليو ٢٠٠٢

وبعضهم يسقط على الأرض فى شبه إغماء، وهى حالة «الجذب» و«الفناء». كنا نحن الأطفال يسمح لنا أحيانا بالمشاركة ولكن خارج «الحلقة»، وكان بعضنا يريد أن يثبت وصوله إلى حالة «الجذب» كالكبار.

كبير ونقرأ ونتزود بالمعرفة، لكن تظل جذور تجربة الطفولة كامنة فى أعماق كل منا. فى حالتى أخذتلى الحياة مآخذ شتى وسلكت بى طرقا عديدة، حتى قررت أن أتخصص فى دراستى العليا فى مجال «الدراسات الإسلامية». كانت تجربتى فى الحياة والتعليم قد أخذتلى بعيدا عن «التصوف» إلا من خلال علاقة خاصة بأحد أصدقاء والدى المقربين مات والدى لكن علاقتى بعم حسن -اسم هذا الصديق- اتخذت مسار علاقة صداقة وثيقة. كان هذا الصديق فلاحا بسيطا، لكنه كان شاعرا وقارئا لشعر التصوف بصفة خاصة. كان كثير الترحال لزيارة الأضرحة والتبرك بمجاورة «أهل البيت» بالقاهرة لفترات تطول أو تقصر. كان يعتبرنى محلا لثقتة، فيكاشفنى بأسرار لا يكاشف بها أحدا من أولاده وخاصة أسرته. كنت أحترم كثيرا شاعريته وأقدرها، وكنت حريصا على التعبير عن هذا التقدير وذلك الإعجاب.

زارنى عم حسن ذات يوم بدا فيه مضطربا أشد الاضطراب، كأنه كان يحمل فوق كاهله همًا تتوء بحمله الجبال. ظللت أسأله: ما الخبر؟ ماذا حدث حتى يبدو الاضطراب باديا على وجهك، والإعياء يكاد ينبئ بأنك مريض؟ لكنه ظل صامتا ذلك الصمت المُنْعَب. وأخيرا قرر الإفصاح. قال: إنه سرٌّ لا أستطيع احتمالاه أكثر من ذلك. أعلم أننى سأعاقب لإفشاء السر، لكننى لا أحتمل الكتمان. تزايد قلقي وخمَّنت أن الرجل يعانى من كارثة. قلت له: يا عم «حسن» فرَّج عن نفسك وأخبرنى، ألسن محلا لثقتك، وفى مقام «الابن» منك؟ قال: والله يا نصر أنت أكثر من ابن وأعز من أولادى جميعا، أنت الحبيب ابن الحبيب رحمه الله -يقصد والدى- لذلك سأفضى لك بالسر الذى يعذبنى كتماناه. كانت دموع صامتة قد بدأت تسيل من عينيه، يحاول منعها فلا يستطيع. ثم استجمع قوته وانفجر قائلا: يا نصر يا ولدى لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام. وأجهش

فى بكاء سمعته أختى رحمها الله؛ فجاءت تسأل ما الخبر؟ لكنى صرفتها واقتريت من عم حسن، لكنه لم يتوقف عن الحكى، ونشيجه يتصاعد: رأيت والله العظيم، فقلت له: أحبك يا رسول الله، فرد على: وأنا أحبك يا حسن.

لم أدر ماذا أقول سوى أن أتمتع ببعض عبارات لا معنى لها. كان الأمر بالنسبة لى غير مفهوم آنذاك، رغم تعاطفى قلبا وقالبا مع عم «حسن». بدأ يهدأ تدريجيا بعد أن أزاح السر الضاغط، السر الذى يمثل إفشاؤه خطرا يترتب عليه العقاب. سألت عم حسن: أى نوع من العقاب يترتب على إفشائك أمر هذه الرؤيا لى؟ قال: يا ولدى أخشى أن يهجرنى الرسول عليه السلام فلا يظهر لى مرة أخرى، وهل هناك عقاب أشد من هجر الحبيب؟ حاولت بقدر استيعابى لموقف جديد على تماما أن أطمئن عم حسن أن رسول الله لن يهجره. فى نفس العام تقريرا قرر عم حسن الحج، ولكى يدبر نفقة السفر إلى الديار المقدسة باع قطعة الأرض التى كان يزرعها رغم معارضة أبنائه ومحاولتهم منعه بالقوة.

لم أفهم كثيرا من الجوانب العاطفية والروحية لرؤيا عم حسن إلا بعد أن بدأت فى دراسة «فلسفة التأويل» عند ابن عربى بعد ذلك بأعوام، فهمت معنى «السر» ودلالة «الكتمان» وأهميته فى التجربة الروحية، وكيف يكون «البوح» ومتى ولمن. فهمت أكثر المعنى الروحي العميق للحج، وأهميته للتجربة الروحية، هذا بالإضافة بالطبع إلى أهميته الشعائرية الرمزية بالنسبة لكل مسلم. ودراستى للتصوف أدركت معنى «الذكر» وأهميته، وفهمت لماذا يكون الذكر فى شكل «دائرة»، وما معنى تكرار الاسم «الله»، ولماذا يتم اختصار الاسم فى دلالة حرفيه الأول والأخير. أهم من ذلك صرت قادرا على شرح معنى «الجذب» و«الفناء» و«الشطح» ... الخ.

لم يكن الحافز على دراستى للتصوف ولفكر ابن عربى بصفة خاصة هو فقط ذلك الشوق النابع من تجارب الطفولة الدينية فى قريتى، تلك التجارب التى ساهمت تجربة عم حسن فى تعميقها، بل كان الحافز بالإضافة إلى ذلك هو رغبتى فى استكمال معرفتى بقطبى التراث الإسلامى الأساسيين: العقلائية والروحانية. كنت قد انتهيت من دراستى للماجستير عن «قضية المجاز فى

القرآن عند المعتزلة». نشرت فيما بعد بعنوان «الاتجاه العقلى فى التفسير». وهم اللاهوتيون المسلمون الذين حاولوا تقديم تأويل عقلانى للعقيدة الإسلامية، كان من نتيجته أن طوروا مفهوما لغويا بلاغيا - هو مفهوم «المجاز». كأداة لإزالة أى تعارض محتمل بين «الوحي» و«العقل». وقد أثارت النتائج التى توصلت إليها فى تلك الدراسة الكثير من الأسئلة، وتلك الأسئلة كانت - إلى جانب الحافز الدينى الشخصى الذى عمقته علاقته بعلم حسن- هى التى حفزت على محاولة اكتشاف مجال «التجربة الروحية». كما تمثلها التجربة الصوفية عند ممثلها الأكبر «محيى الدين ابن عربى». وأثرها فى بلورة إطار تأويلى للوحي.

وحين انتهيت من الدراسة، وقبل طبعها وتوزيعها على أعضاء اللجنة العلمية للحصول على درجة «الدكتوراه»، أدركت أننى يمكن أن أعيد كتابتها وفق مخطط مغاير، تتبادل فيه الممتون والهوامش مكانها. فقد اعتمدت فى ترتيبى لأبواب الرسالة وفصولها على التقسيم الفكرى الفلسفى فخصصت الباب الأول لقضية «التأويل والوجود» والثانى لقضية «التأويل والإنسان» بينما تركزت قضية «القرآن والتأويل» فى الباب الثالث. أدركت بعد أن انتهيت من كتابة الرسالة وفق الترتيب والتنظيم المذكورين أنى يجب أن أعيد كتابتها بطريقة أخرى تبرز قضايا التأويل تحتل «متن» الرسالة، فى حين يكفى «الهامش» للتعامل مع القضايا ذات الطابع الفلسفى البحت.

حين أخبرت أستاذى المشرف بنيتى تلك واعتزامى تغيير مخطط الرسالة، وإعادة كتابتها بالتالى من جديد، رفض الفكرة رفضا قاطعا. حاولت أن أشرح له مبرراتى، لكنه رفض مجرد الاستماع إلى. كان منطقته أن فكر ابن عربى ومؤلفاته مثل محيط بلا سواحل ولا شطآن، وأنه لن يسمح لى بالعودة للسباحة فى هذا المحيط بعد أن تمكنت أخيرا من «الخروج» منه، ولو إلى «حين». كانت عبارة أستاذى دالة أكثر مما أدركت آنذاك رغم أننى كنت فى عامى الثامن والثلاثين.

منذ ذلك الحين وأنا أتوق للعودة للسباحة فى محيط فكر ابن عربى مجددا، ولكن يبدو أن خوف «الفرق» ظل ماثلا فى وعيى؛ فكنت أعود أحيانا لقراءة بعض أشعاره، أو لمراجعة فكرة ما، أو للتأكد من صدق استنتاج ما سبق أن وصلت

إليه، لكن العودة للسباحة في المحيط الهادر لابن عربي ظل حلما يراودنى دون أن أخاطر بالمغامرة مرة أخرى. ومع ذلك فإن علاقتى بالشيخ الأكبر لم تنقطع أبدا؛ فجزء لا يستهان به أبدا من تكوينى الأكاديمى، ومن تجربتى الدينية الروحية فى الحياة، أدين به للخبرات التى اكتسبتها من خلال اللقاء الأول بالشيخ الكبر، والذي دام خمس سنوات هى الفترة التى أنجزت فيه أطروحتى.

أذكر هنا أنه لولا الفرصة التى أتاحت لى السفر الأول مرة- إلى بلاد الغرب، حيث قضيت عامين دراسيين فى الولايات المتحدة الأمريكية (١٩٧٨ - ١٩٨٠)، لما تمكنت من إنجاز أطروحتى عن «فلسفة التأويل» عند الشيخ. أذكر هذا الآن لأؤكد حقيقتين: الحقيقة الأولى أن قراءة الشيخ تتطلب تفرغا كاملا، وهذا لم يكن متاحا لى فى مصر، حيث قضيت عاما كاملا لا أكاد أتجاوز قراءة «خطبة كتاب الفتوحات المكية». كان من المستحيل الاندماج فى عالم الشيخ من خلال تخصيص «ساعتين» فقط من ساعات اليوم الأربع والعشرين للجلوس إلى الشيخ ومسامرته. ليس أقل من أن تكون مع الشيخ يومك وليلك، صباحك ومساءك، يقظتك ونومك، أن تكون باختصار واحدا من «المريدين»، لا مجرد «زائر» عابر لبعض الوقت. لم تكن حياتى فى مصر عموما، وفى مدينة «القاهرة» على وجه الخصوص، قادرة على منحى نعمة الجلوس إلى الشيخ والإنصات لفكره. منا لم نتحه لى القاهرة أتاحت لى مدينة «فيلا دلفيا» ومكتبة جامعة «بنسلفانيا». فى سنتين أنجزت قراءة «الفتوحات» وفى نفس الوقت قرأت عن «فلسفة التأويل» hermeneutics عند فلاسفة الغرب بدءا من «أوريجن» حتى «جادامر»، وكان ذلك مثمرا فى تعميق وعيى بالقضايا التى يمكن أن تفصح عنها كتابات الشيخ من منظور معاصر.

وكما قلت لم يتوقف اهتمامى بابن عربي منذ أنجزت رسالتى لدرجة الدكتوراه عن تأويله للقرآن منذ أكثر من عشرين عاما. كنت أعود إلى قراءة بعض أعماله مجددا بين الحين والآخر آملا أن يتاح لى من الوقت فى المستقبل ما يسمح لى بتجديد دراستى له من خلال الخبرات التى تراكمت فى وعيى فى تلك السنوات الطوال. وأظن أن هذا ليس شأنى وحدى مع مفكر فى قامة ابن عربي،

إذ أعتقد أن كل من مسَّه طائف من فكر ابن عربي يظل يحلم دائماً بتجديد صلته به سعياً للتدقيق المعرفي من جهة، وللاستيعاب التجربة الروحية الشرية التي تتجلى في كتاباته من جهة أخرى.

وكان السؤال الذي يتردد دائماً في ذهني: هل ما زال ابن عربي قادراً على المساهمة في مخاطبة قضايا عالمنا المعاصر؟ «نعم» كانت الإجابة في داخلي، ولكنها كانت في حاجة لحافز يُحرِّضني على البدء مجدداً في مغامرة السباحة الثانية في محيط الشيخ. منذ عشرين عاماً وأنا انتظر الظروف التي تسمح لي بقاء طويل آخر مع الشيخ الذي لم تنقطع صلاتي به منذ بدأت. لكن أحداثاً توالى ووقائع تتالت لم تمكِّنني من الفوز بالمراد. وكلما تعقدت المسالك. مسالك الأنا ومسالك العالم- كان مجرد وجود كتب الشيخ ورسائله قريباً مني وفي متناول يدي يقوِّى الإحساس عندي بأنه مازال قادراً على مخاطبة عالمنا، فقط لو أحسنّا الإنصات لما يقول.

كانت أبياته الشعرية عن «دين الحب» الذي يتسع لكل العقائد. من الوثنية إلى الإسلام محتضناً اليهودية والمسيحية معا على وجه الخصوص- تتردد دائماً في سمعي:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح تورا ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني^(١)

وكم سعدت وأنا استمع لهذه الأبيات ملحنة مغناة على شرائط كاسيت و CDs، وكم غمرني الفرح حين علمت بتأسيس جمعيات في بلدان غربية باسم «ابن عربي»^(٢) هذا المشروع الذي صاغه ابن عربي صياغة شعرية باسم «دين الحب»

(١) الذخائر الأعلاقي في شرح ترجمان الأشواق، تحقيق: محمد عبد الرحمن الكردي، القاهرة، ١٩٦٨.
(٢) أذكر منها على وجه الخصوص جمعية «أكسفورد» وموقعها على الشبكة الإلكترونية الدولية هو- HY :
PERLINK http://www.ibn-arabi.society.com www.ibnarabisociety.org

يجمع بين «الدير» و«الكعبة» و«بيت الأوثان» و«مرعى الغزلان»، فقلب العارف يتسبع لكل هذه الصور من العبادات والشعائر، ويؤمن بكل هذه المعتقدات، لأنه يعرف الأصل الوجودى الذى تستند إليه جميعها.

إن الأصل الذى تستند إليه كل الأديان والمعتقدات هو أصل العلاقة بين «الحق» الخالق و«الخلق» المخلوق، وهى علاقة «الحب». فى البدء كان «الحب»، هكذا يتصور ابن عربى «الحقيقة»: كان الله ولا شىء معه، كان كنزا مخفيا فأحب أن يعرف فخلق العالم ليعرفه. هكذا تتحدد الحقيقة استنادا إلى التراث الإسلامى مشروحا شرحا عرفانيا، يسمح لابن عربى أن يميز فلسفيا بين مفهوم «الدين الإلهى» الواحد، وبين «أديان المعتقدات» الكثيرة، وذلك فى كتابه «فصوص الحکم»، حيث يخصصه كاملا للتوسع فى عرض نظريته فى «الكلمة».

عاودنى الحنين لابن عربى حين أبلغنى السيد «هردر» الابن -صاحب دار النشر الألمانية المعروفة بهذا الاسم- والى طبعته سيرتى الذاتية عام ١٩٩٩ بعنوان - Islam Ein Leben met dem - على نية الدار العريقة إصدار كتيبات، تخاطب القارئ الأوروبى العادى، عن أعلام «الروحانية» فى الشرق والغرب. كان ذلك أثناء عشائنا فى مدينة Freiburg فى شهر ديسمبر ١٩٩٩ فى سياق الاحتفال بصدور سيرتى الذاتية؛ فاقترح الدكتور «والتر»، مسئول النشر فى الدار أن أكتب كتابا جديدا عن «ابن عربى» مساهمة منى فى هذه السلسلة، وخاصة لأن كتابى المنشور فى طبعته الأولى سنة ١٩٨٣ كتاب أكاديمى لا يلائم القارئ غير المتخصص. اتفقت مبدئيا على كتابة الكتاب باللغة الإنجليزية لتكون ترجمته للغة الألمانية أسرع وأيسر، لكنى أدركت أننى سأواجه صعوبات جمة لأكتب عن ابن عربى بلغة ليست لغتى الأم، وأوشكت على الاعتذار لابن عربى. لكن الناشر لم يسمح لى بالاعتذار ووافق أن يتحمل تكاليف الترجمة من العربية إلى الألمانية.

ثم كانت أجمل المفاجآت أن الأستاذة «آن مارى شميل»، وهى من هى فى ريادة الدراسات الصوفية، قد تفضلت منسكورة بالموافقة على أن تترجم ما أكتب من اللغة العربية إلى اللغة الألمانية. ومن المتوقع أن تصدر الترجمة الألمانية لهذا الكتاب بقلم الأستاذة الجليلة فى غضون شهرين ليعرض فى معرض

فرانكفورت الدولي للكتاب فى أكتوبر هذه العام هذا الاستعداد من جانب الأستاذة الجليلة لترجمة الكتاب هو فى ذاته شرف عظيم تطوق به عنقى. أما المعنى الأعظم لهذا الاستعداد من جانبها فيكمن فى إيمان الأستاذة الجليلة بوحدة الحضارة الإنسانية إذا نظرنا إليها من منظور «التجارب الروحية» بصرف النظر عن اختلاف الأديان واللغات والثقافات فى التاريخ الإنسانى. وهو إيمان عميق يتجلى فى كتاباتها كلها، خاصة تلك التى أتيح لى قراءة ما نشر منها باللغة الإنجليزية. أى شرف أن تقبل الأستاذة آن مارى شمىل أن نشارك. وأنا فى مقام التلميذ منها- فى كتاب واحد؛ لنؤكد معا من خلال ابن عربى وحدة الحضارة ووحدة التراث الروحى للإنسانية.

لقد انتهيت من كتابة الكتاب فى يونيو من العام الماضى (٢٠٠١)، وذلك قبل زلزال الحادى عشر من سبتمبر بعدة شهور. والقارئ للتمهيد الذى يلى هذه المقدمة يدرك أن توابع زلزال الحادى عشر من سبتمبر فيما يخص العلاقة بين العالم العربى/الإسلامى والعالم الغربى لم تأت بجديد. لقد بلورت المشكل فى صيغة لا تحتمل التأويل. إنها علاقة «عدوان» متواصل على المستويات السياسية والاقتصادية، لكن هذا العدوان يحتاج دائما لحامل ثقافى إيديولوجى يخفى عنه صفة العدوان ويزيف مظهره تحت مسمى «اختلاف الحضارات». «هكذا تكلم ابن عربى» عن الحضارات والثقافات والأديان، هذا هو موضوع الكتاب الذى يشرفنى أن أقدمه للقارئ العربى.

ولكن واجب الوفاء يقتضى منى شكر الصديق والزميل الدكتور «سمير سرحان» لإصراره المغلف بكثير من الحب والتقدير، ولرغبته المخلصة فى أن يقدم بعض كتاباتى -وليس فقط ترجماتى- للقارئ المصرى فى سلسلة «مكتبة الأسيرة»^١. ولولا إلحاح ابنتى العزيزة الدكتورة «شيرين أبو النجا» بالتذكير المستمر بوعدى للدكتور سمير حين التقينا فى «دمشق» فى أسبوع المدى الثقافى السنوى الثالث لكانت مشاغلى عاقتنى عن الوفاء بالوعد .

تمهيد

١- لماذا «ابن عربى» الآن؟

ماذا يمكن أن يقول لنا ابن عربى فى القرن الواحد والعشرين من وراء ستار القرنين السادس والسابع الهجريين (الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين) فى العالم الإسلامى عموماً وفى الأندلس على وجه الخصوص؟ لنلق أولاً نظرة على حالنا فى بدايات القرن الحادى والعشرين، قبل أن نبدأ رحلتنا مع الشيخ الأكبر فى القرن الثانى عشر.

مضى القرن العشرون بكل ما له وما عليه، لكنه خلف وراءه مجموعة من الظواهر الممتدة، لعل أهم ما يجمع بينها، ويلفت النظر فيها، هو ذلك «القلق» العظيم الذى يشغل المفكرين والفلاسفة وأهل رأى حول مستقبل البشرية فى هذا القرن الحادى والعشرين. لقد حققت «الحدائث» إنجازاتها فى شكل تقدم ماضى مذهل، وصل إلى تحويل العالم الفسيح الممتد إلى فضاء مترابط الأجزاء، يشبه فضاء «القرية» الواحدة، وذلك بفضل ثورة تكنولوجيا الاتصال والمعلومات. ولكن بفضل هذا التقدم نفسه وما حققه من ترابط بين أجزاء العالم أمكن للتناقضات أن تتكشف وتظهر، بين الأغنياء والفقراء من جهة، وبين المستغلين والمستغلين من جهة أخرى. برز «الظلم» - الذى كان محصوراً من قبل داخل حدود الأقطار القومية - بوصفه ظاهرة عالمية لا بين أقطار «الشمال» وأقطار

«الجنوب» فقط، بل بين الشرق والغرب في الشمال نفسه من جهة، وبين «أغنياء» الجنوب وفقرائه من جهة أخرى.

لا يمكن نسيان أن القرن العشرين الذي شهد ذلك التقدم العلمي والفكري المذهل الذي تجاوز ما حققته البشرية من تقدم في تاريخها كله حقق ما حققه بفضل «الحدثة» التي تمتد جذورها إلى عصر الأنوار في القرن الثامن عشر. كان سعى فلاسفة التنوير يتركز في تحرير الإنسان «الفرد» من سيطرة سلطة الكنيسة ليسعى بإرادته الحرة إلى اكتشاف قوانين الطبيعة بتجريبية العلم، وللاكتشاف قوانين الوجود الإنساني بعلوم التاريخ والجغرافيا والاجتماع والأنثروبولوجي. لكن التحرر من سلطة الكنيسة وقوانينها ذات الطابع الفكري الإطلاقي أدى إلى الطرف النقيض بجعل «النسبية» مفهوما مطلقا بدوره. وأدى التركيز على «الفردية» بوصفها قيمة مطلقة إلى إسناد قيمة مطلقة أخرى لقوانين «العقل». ولاشك أنه لم يدر بخلد فلاسفة التنوير أن إنجازاتهم الفكرية ستكون حاملا إيديولوجيا للسياسة الإمبريالية للرأسمالية الوليدة، من خلالها سعت لامتلاك العالم لضمان «المواد الخام» و«الأيدي العاملة» الرخيصة من جهة، والأسواق المستهلكة من جهة أخرى.

كانت حركة المد الإمبريالية. العامل الإيديولوجي لفلسفة «التنوير» - تنتظر لشعوب الجنوب بوصفها شعوبا في حاجة للتنوير؛ ذلك أن المفهوم المطلق للعقل عند التنويريين يفترض النقيض «اللاعقل» بوصفه يمثل تهديدا مباشرا لسلطة العقل. واستطاع التوظيف السياسي الاستعماري الإمبريالي لهذه الثنائية أن يصنف البشر إلى «متحضرين» - هم أبناء الغرب - و«همج» هم من سواهم من البشر، أبناء الشعوب والثقافات غير الغربية. وأصبح من واجب «المتحضرين» أن يسعوا لتنوير الهمج.

كانت الكنيسة التي فقدت سلطتها تدريجيا بفعل فلاسفة التنوير في المجتمعات الغربية تحاول أن تستعيد قوتها من خلال استثمار العوامل والمتغيرات الجديدة في ظل حركة المد الاستعماري. تمثل ذلك في حملات التبشير التي صاحبت الحملات العسكرية أحيانا، ومهدت لها أحيانا أخرى.

تحددت رسالة التبشير المسيحي في تخلص الهمج من وثيتهم بإدخالهم ولو قسرا في ملكوت السيد المسيح، بإدماجهم تحت سلطة الاستعمار والكنيسة. ولا داعي للإطالة في ذكر الجروح العميقة التي تركتها فترة المد الإمبريالي في ذاكرة شعوب العالم الثالث بصفة عامة، وشعوب العالم الإسلامي بصفة خاصة.

لكن الجروح والندوب الناتجة عن تحويل «التوير» إلى إيديولوجيا لم تصب شعوب العالم الثالث فقط، بل طالت شعوب أوروبا نفسها في شكل حربين عالميتين جسدتا مأزقا حضاريا في بنية «الحداثة» وفلسفتها، وكانت النتيجة تقسيم عالم الشمال إلى معسكرين إيديولوجيين متنازعين، عاش العالم في ظل الصراع بينهما حربا باردة كبرى، تظلل حروبا صغيرة هنا وهناك، دفعت شعوب العالم الثالث - مرة أخرى تكاليفها الباهظة .

أدرك أهل الجنوب - خاصة بلاد المستعمرات السابقة في أفريقيا وآسيا على وجه الخصوص - أن أهل الشمال صنعوا تقدمهم المادي على حساب استنزاف ثرواتهم واستغلال عرقهم من جهة، وعلى أساس استمرار الإصرار على التعامل مع بلادهم بوصفها مجرد «أسواق» لمنتجات الشمال، أسواق يقتصر دورها على أن تمدّه بالمواد الخام وبالأيدي العاملة الرخيصة، من جهة أخرى. وكان من الطبيعي أن يتحرك أهل الجنوب مطالبين بنصيبهم «العادل» من ثمار «الحداثة» التي ساهموا في صنعها دون أن ينالوا من ثمارها أي نصيب. وكان من الطبيعي كذلك أن تتوجه ثورتهم أولا ضد حكامهم المحليين، الذين اعتبروهم وكلاء لقوى الاستعمار الشمالي مخلصين لقيمهم ولو تعارضت مع قيم وأخلاقيات الثقافات المحلية .

في بلاد العالم الإسلامي اتخذت تلك الثورات شعاراتها من الرأسمال الرمزي للإسلام بوصفه «عقيدة وشريعة ومنهج حياة». بلغت هذه الثورات أوجها بالنصر الذي حققته الثورة في «إيران» بزعامة الإمام «الخميني» ضد نظام «الشاه»، أعنت الأنظمة الدكتاتورية في الجنوب. هي نفس الوقت تقريبا بدأت القوى الإسلامية في «تركيا» - الدولة المسلمة الوحيدة التي اختارت «العلمانية» الغربية صيغة سياسية وثقافية لإيديولوجيا الدولة منذ ١٩٢٥ تقريبا - تكتسب أرضا

جماهيرية واسعة مكنتها من الوصول إلى «الحكم» كانت التطورات في «ماليزيا» و«إندونيسيا» و«السودان» و«الجزائر» و«مصر» تتخذ نفس المسار - مسار التوجه الإسلامى كصيغة محلية لتحقيق «العدل» سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وحضاريا- مع اختلاف فى الأسباب والتفاصيل رغم الاتفاق فى المنحى العام .

يمكن القول بصفة عامة إن «الثقافات المحلية» فى الجنوب - بل وفى بعض أجزاء دول الشمال الشرقى- رغبت فى مقاومة «سيطرة» ثقافة الشمال، التى صارت رمزا للظلم والعدوان بكل معانيهما .وقد أوجَّ من ثورة المقاومة ضد الشمال، وضد قيمه ومفاهيمه، تسارعُ خطوات «العولمة» الاقتصادية حتى أصبح خطرها ملموسا متعينا فى الحياة اليومية لمواطنى دول «الجنوب». فى سياق اعتبار «السوق» إلها جديدا له قوانين لا يجوز مخالفتها، بل هى القوانين الوحيدة التى على الجميع - شمالا وجنوبا- الانصياع لها دون مساءلة أو احتجاج .وإذا كانت قوانين الإله الجديد ليست اقتصادية فقط، بل هى سياسية واجتماعية وثقافية، فما الذى تفعله الفئات التى يتهدد وجودها الخطر من قوانين ذلك الإله؟

إن وصف قوانين السوق فى إطار «العولمة» بأنها قوانين يفرضها إله جديد اسمه «السوق» ليس مجرد تعبير مجازى، بقدر ما هو «وصف» كاشف للمستور والمسكوت عنه فى خطاب «العولمة» السياسى والثقافى .فى الخطاب السياسى بَشَرْنَا البعضُ - أعنى «فوكوياما» - . بنهاية التاريخ وانتهاء عصر الإيديولوجيات .ومفهوم «نهاية التاريخ» مفهوم دينى فى المقام الأول؛ بمعنى أن كل الأديان فى مرحلة انبثاقها على الأقل تنطلق من الزعم بأنها البشارة الأخيرة بخلاص البشر من عذابهم ومعاناتهم .هكذا يبشرنا «فوكوياما» أن التاريخ قد وصل إلى رحلته الأخيرة واستقر، ولم يعد أمام البشر - كل البشر - من سبيل إلا الراحة فى جنة «الرأسمالية» والتمتع بنعيم «الديمقراطية» على النمط «الأمريكى» .لكن بشارة «فوكوياما» ظلت فى إطار «الإيديولوجيا» ولم ترق أبدا إلى مستوى «اليوتوبيا» الدينية، وما يرتبط بها من مفاهيم مثل اقتراب يوم «الدينونة والحساب»، الذى فيه يتحقق العدل المطلق تمويضا لمن أصابهم الضيم والظلم فى هذه الحياة.

ليس فى دين «العولمة» تعويض قادم فى عالم آخر، ليس فيه أى عزاء ولو محتمل للضعفاء والمنكسرين.

ولأن «الإيديولوجيا» لا تكف عن إعادة إنتاج نفسها فقد تطورت «بشارة» فوكويوما، التى تبدو على السطح متفائلة، إلى «نبوءة» سوداوية متشائمة عند «هانتجتون» فى مفهوم «صراع الحضارات». لكن أية حضارات تلك التى تتبأ «هانتجتون» أن الصراع بينها سيكون سمة القرن الحادى والعشرين؟ إنها كل الحضارات القديمة التى حلت محلها حضارة «الغرب» الحديثة، إنها حضارات «آسيا» - الصين واليابان على وجه الخصوص - و«أفريقيا» و«الإسلام» تحديدا. لم يقل «هانتجتون» شيئا عن «الأصولية المسيحية» فى أمريكا نفسها، ولم يذكر كلمة واحدة عن «الأصولية اليهودية» فى «إسرائيل»، وكلتا الأصوليتين تستعيدان بهاءهما ومجدهما فى عدااء واضح لقيم «الحداثة» وعلمانيتهما. لم يذكر «هانتجتون» شيئا من تفاصيل المشهد؛ لأنه كان مشغولا بأمر واحد محدد: خلق عدو «جديد»، يحل محل «الشيطان الأحمر»، وليكن «العدو الجديد» شيطانا «أصفر» أو «أخضر» أو شيطانا بلا لون، فالهام أن يقوم «الشيطان» بدور «القناع» الدينى لإبراز وجه «المُخلَّص» الأمريكى خصوصا و«الغريب» على وجه العموم.

هكذا تطرح «العولمة» نفسها سياسيا وثقافيا وحضاريا بوصفها «الدين» الأخير، الدين الذى يمثل فيه «السوق» وشريعته الإله الجديد المسلح بأداة «القوة» التى لا تُقهَر أبدا، ويستحيل على البشر مقاومتها أو التفكير - مجرد التفكير - فى التصدى لجبروتها. إنها قوة قادرة على كل شىء، فسلاحتها المال والعلم والقوة العسكرية، إنها القوة التى تنتهك بسهولة فائقة كل الخصوصيات. أدوات هذا الدين للسيطرة هى «حرية التجارة وتدفق المعلومات»، ومواعظه هى: «الديمقراطية» و«حقوق الإنسان» على المقاس الغربى الأمريكى بصفة خاصة.

أليس من الطبيعى، وقد صارت «العولمة» دينا، أن يسعى البشر لمقاومة هذا «الدين» الجديد، والتصدى للاهوته المضر، باستدعاء «الدين» فى كل الثقافات بلا استثناء، حتى داخل المجتمعات التى صنعت «الحداثة»؟ أليست الأديان التى جربتها البشرية خيرا ألف مرة من هذا الدين الجديد، دين العولمة؟ إن «آلهة»

الأديان التي عرفتھا البشرية على امتداد تاريخھا الطویل لیست فی قسوة وفضاظة إله «العولمة» . السوق- لأن إله الأديان یتمتع بصفات تجمع بین صفات القوة والقسوة و«الجلال» من جهة، و بین صفات «الجمال» والرحمة من جهة أخرى .على العکس من ذلك لیس فی صفات إله العولمة جمال أو رحمة، إنه إله قُدَّ من قوانین صارمة صنعھا الأقویاء، إنه تجسید سیاسى واجتماعى واقتصادى وثقافى لأسطورة مصاص الدماء «دراکیولا» .

إن إله العولمة قادر على إعادة إنتاج نفسه فی أشكال وصیغ وملامح لا تخلو من جاذبية .إنه «شیطان» لا تؤثر فیہ التراتیل ولا عبارات الاستعاذة ولا الآیات القرآنية .وهكذا تصبح دعوات «العودة إلى الدین» فی کل الثقافات . مسیحية ويهودية وإسلامية وبوذية وكونفوشیوسية ..الخ- أشبه بمحاولات استخدام «الصليب» أو تلاوة «التعاویذ» لمقاومة شر الشیطان الجدید، إله العولمة .إنھا أسلحة قديمة تحصَّن الإله الجدیدُ ضدها مستوعبا إياھا فی بنية لاهوته .لیس معنى ذلك أنه لا سبیل لمناجزة الشیطان بأسلحة دينية، بل إن سبیل المنازلة الممكن لا یکفى فیہ استخدام الأسلحة الدينية التقليدية، بل لا بد من شحذ أسلحة دينية جديدة لم یتحصَّن ضدها إله «العولمة» بعد.

٢ - العودة للدين، أى دين؟

فی تعريف الدين یتم التركيز غالبا على مفهوم «النظام» و«النسق» أى على البُعد الجمعى للدين؛ فیهتم الفلاسفة ورجال اللاهوت بمسائل «العقائد» و«الوجود» بوصفھا أنساقا معرفية أو بوصفھا قضايا إيمانية . ویکون تركیز «الفقهاء» بصفة خاصة على «الدين» بوصفه نسقا من الأوامر والنواهی، وعلى أساس طاعة «الأوامر» واجتناب «النواهی» یتحقق خلاص الإنسان فردا كان أو جماعة .أما علماء الاجتماع والأنثروبولوجی فیهتمون بالدين بوصفه ظاهرة اجتماعية إنسانية .أما الدين بوصفه تجربة «روحية» ذاتية فهو التصور الذی یمثل «بؤرة» اهتمام کل الروحانيين فی کل الأديان والثقافات .

تمثل التجربة الصوفية فى التراث الإسلامى، فى جانب منها على الأقل، ثورة ضد المؤسسة الدينية التى حولت الدين إلى مؤسسة سياسية اجتماعية مهمتها الأساسية الحفاظ على الأوضاع السائدة ومساندتها من خلال آليات إنتاج معرفية ثابتة يقف على رأسها «الإجماع» ويليها «القياس». وإذا كانت مصادر المعرفة - وهى القرآن الكريم والسنة النبوية - مصادر لا خلاف عليها بين المتصوفة والفقهاء والمتكلمين المسلمين فإن الخلاف بين الاتجاهات الثلاث يتمثل فى ترتيب آليات استنباط المعرفة وإنتاجها من هذه المصادر. ففى حين يركز المتكلمون على أهمية «العقل» على خلاف بينهم فى ترتيب العلاقة بينه وبين «النقل»، يضع الفقهاء «العقل» فى درجة أدنى من درجة الإجماع. ولا مجال عند المتكلمين والفقهاء للتجربة الروحية، وهى محور الخلاف بين المتصوفة وغيرهم؛ إذ يعتبر المتصوفة أن «التجربة» الروحية الشخصية الذاتية هى أساس المعرفة الدينية. وفى حين ينشغل المتكلمون والفقهاء بقضايا سياسية واجتماعية وينخرطون فى إطار إنتاج معرفة مؤسسية، يلوذ المتصوفة بتجاربه الروحية التى تحاول استعادة تجربة «النبوة» ذاتها فى إطار «تأويل» للشريعة النبوية.

وبعبارة أخرى يسعى الصوفى من خلال التجربة إلى محاولة التواصل مع «مصدر المعرفة» بدلا من الانشغال بنصوص الشريعة التى مزقت الاختلافات المذهبية دلالتها. وفى رأى الصوفى أن «نصوص» الشريعة تعبيرات لغوية تتسم بالغموض والإجمال فى حالات كثيرة، ويرى أن جلاء غموضها وإزالة إبهامها وتفصيل مجملها إنما يمكن الوصول إليه عبر السعى إلى معانقة مصدرها من خلال تجربة تترسم خطى التجربة النبوية التى هى أصل «الوحى» المعبر عنه فى «النصوص».

ومن الضروري لفهم ذلك الانشغال الصوفى بمعانقة المصدر بدلا من الانشغال بتأويل «التعبير» أن نتأمل ما آلت إليه عمليات التأويل من اختلافات وصراعات من شأنها أن تشوش على المؤمن البسيط صفاء المعنى الدينى الذى لا غناء عنه له. كان الفكر الدينى قد تمحور قبل عصر ابن عربى حول مجالات «الفقه» و«علم الكلام» و«الفلسفة»، حيث كان مجال عمل الفقهاء استنباط أحكام «الحلال» و«الحرام» و«الواجبات» الدينية الفردية والاجتماعية. أما «المتكلمون»

فقد كان هاجسهم الأساسى محاولة تقديم شرح عقلانى للعقيدة فى مجالاتها الأساسية: مثل مفاهيم «الألوهة» و«التوحيد» و«النبوة» و«الوحي» الخ. وعلينا أن ندرك أن محاولات المتكلمين لشرح العقيدة شرحا عقلانيا كانت فى جانب منها استجابة للتحديات اللاهوتية المسيحية، خاصة فى مجال مفهوم «الكلمة» و«الجبر والاختيار» و«الأقانيم والصفات» الخ. وسنجد أن ابن عربى ينخرط انخراطا عميقا فى مناقشة هذه القضايا من منظور معرفى مغاير.

٣ - موقع الشيخ الأكبر بين سابقيه ولاحقيه:

ترجع أهمية فكر ابن عربى إلى أنه يمثل قمة نضج الفكر الإسلامى فى مجالاته العديدة، من فقه ولاهوت وفلسفة وتصوف، هذا فضلا عن علوم «تفسير القرآن» وعلوم «الحديث النبوى» وعلوم اللغة والبلاغة ... الخ. من هذه الزاوية فإن دراسته فى السياق الإسلامى تكشف عن بانوراما الفكر الإسلامى فى القرنين السادس والسابع الهجريين (الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين). ومن زاوية أخرى يمثل الشيخ الأكبر محبى الدين بن عربى همزة الوصل بين التراث العالمى والتراث الإسلامى، ومن هذه الزاوية يمكن النظر لتراث ابن عربى بوصفه تواصلًا حيا خلافا مع التراث العالمى الذى كان معروفا ومتداولًا فى عصره، سواء كان تراثا مسيحيا أم يهوديا، أو كان تراثا فلسفيا فكريا. وهذا ما يتضح من إصراره على استخدام مصطلحات متنوعة للدلالة على مفهوم واحد. فهو يشير مثلا إلى مفهوم «الموجود الأول» أو «المخلوق الأول» بمجموعة من المصطلحات منها الفلسفى مثل «العقل الأول»، ومنها الدينى مثل «القلم»، هذا إلى جانب «الموجود الأول» عن الله و«المخلوق الأول». الخ. ولكن أهمية ابن عربى كهمزة وصل لا تقف عند حدود استيعابه للتراث الإنسانى وتوظيفه له فى إقامة بنائه الفكرى الفلسفى الشاهق، بل تتجاوز ذلك إلى المساهمة فى إعادة تشكيل التراث الإنسانى بالتأثير فيه تأثيرا خلافا بنفس الدرجة. يكفى هنا الاستدلال بدراسات المستشرق اليابانى «توشيكو إيزوتسو» عن «ابن عربى والتاوية»^(١)، وكذلك

(1) T. Izutsu, A Comparative Study of the Key Philosophical Concepts in Sufism and Taoism Inb and Lao Tzu, Chuang Tzu, 2 vol. (1966 - 67)

بدراسات المستعرب الإسباني «آسين بلاسيوس» عن تأثير كتابات ابن عربي في «ريمون لول» وتأثيره في «دانتي اليجيري» مؤلف «الكوميديا الإلهية»^(٢)

أما استيعابه للتراث الإسلامي السابق عليه وتأثيره في التراث التالي له فهو أوضح من أن يحتاج منا لاستدلال. وتتبدى أهمية قراءة ابن عربي للتراث السابق عليه في أنها قراءة ساهمت في بلورة كثير من المفاهيم والتصورات التي كانت مضمرة في كتابات السابقين. ومعنى ذلك أن التراث السابق على ابن عربي يكتسب كثيرا من ملامح الوضوح، وخاصة تراث هؤلاء الذين لم تصل كتاباتهم إلينا، أو وصلت من كتاباتهم بعض الآراء المتناثرة التي لا تكفي لتكوين نسق بنيوي متكامل. لقد ساعدت كتابات ابن عربي الباحثين في تجلية آراء «الحكيم الترمذي» (٩١٠/٢٨٠) و«سهل بن عبد الله التستري» (ت ٩١٣/ ٢٨٣)، و«الحلاج: الحسين بن منصور» (ت ٩١٣ / ٢٨٣)، و«ابن مسرة الجبلي» (ت ٩٥٠/٣١٩)، و«النَّفَرِيُّ: محمد بن عبد الجبار بن الحسن» (ت: ٣٦٦ هـ/٩٧٧)، على سبيل المثال لا الحصر. وقد اعتمد آسين بلاسيوس -ضمن ما اعتمد- على ما ذكره ابن عربي من آراء عن «ابن مسرة»، وذلك للكشف عن ملامح فكر ابن مسرة ومدرسته في كتابه المعروف.^(٣) وعن طريق تحليل تلك الشذرات التي وردت هنا وهناك استطاع إعادة بناء فكر «ابن مسرة» وبعملية عكسية تمكّن من الكشف عن أثر مدرسة «ابن مسرة» في تكوين فكر «ابن عربي». وبعبارة أخرى يحتاج الباحثون لقراءة ابن عربي لإعادة بناء الفكر السابق على ابن عربي من أجل الكشف عن الأثر الذي تركه هذا الفكر السابق في ابن عربي. وهى ظاهرة جديرة بالالتفات والتأمل في حد ذاتها. والحق أن قراءة ابن عربي للتراث السابق عليه تستحق أن تقام حولها دراسات ودراسات؛ لأنها لم تتل نفس القدر من الاهتمام الذي نالته مسألة تأثيره في المفكرين التاليين له سواء في الشرق أو في الغرب.

(2) A.M. Palacios, El Islam cristianizado, Madrid 1931; Islam and the Divine Comedy, trans. H. Sutherland, London 1926.

(3) The Mystical of Ibn Masarra and his Followers, trans. E.H. Douglas and H. W. Yoder Leider 1978.

أما تأثير ابن عربي في الفكر الإسلامي فهو أكثر بروزا ووضوحا. لقد بدأ هذا التأثير يتشكل خلال الزيارة الأولى التي قام بها ابن عربي لمدينة «قونية» عام ١٢١٠/٦٠٧ ومن خلال تلميذه «صدر الدين القونوي» (ت: ١٢٧٤/٦٧٣)، الذي أصبح واحدا من أهم شراحه وحاملى فكره، انتشرت تعاليم ابن عربي في شرق العالم الإسلامي. كان «صدر الدين القونوي» صديقا حميما لـ «جلال الدين الرومي» (ت: ١٢٧٣/٦٧٢) مؤلف «المثنوي» النص العظيم الذي يلخص الحكمة الصوفية، كما كان أستاذا لـ «قطب الدين الشيرازي» (ت: ١٣١١/٧١٠) شارح فلسفة «السهورردى» العظيم) شهاب الدين أبو حفص عمر المتوفى عام ١٢٣٤/٦٢٢ ومن خلال هذا التأثير ألهمت تعاليم ابن عربي - في قرن لاحق - كتابا صوفيا عظيما آخر هو «عبد الكريم الجيلي» (ت: ١٤٢٨/٨٣٢) مؤلفه «الإنسان الكامل». ولم يقتصر تأثير فكر ابن عربي على الجانب النظرى فى التصوف، بل امتد بعمقه فى صياغة الحياة الصوفية كلها، فبتأثير «جلال الدين الرومي» فى الشرق و«أبى الحسن الشاذلى» (ت: ١٢٥٨/٦٥٦) فى الغرب تشكلت - بتأثير تعاليم ابن عربي - طريقتان من أكبر الطرق الصوفية، هما الطريقة المولوية والطريقة الشاذلية .

إن استدعاء ابن عربي - مع غيره من أعلام الروحانية فى كل الثقافات - يمثل مطلباً ملحاً، لعلنا نجد فى تجربته، وفى تجاربهم، ما يمكن أن يمثل مصدراً للإلهام فى عالمنا الذى سبق أن ألمحنا لبعض مشكلات الحياة فيه. إن التجربة الروحية هى مصدر التجربة الفنية - الموسيقى والأدب وكل الفنون السمعية والبصرية والحركية - فهى الإطار الجامع للدين والفن. هذه أهمية استحضار ابن عربي فى السياق العام. لكن استحضار ابن عربي فى السياق الإسلامى - واستعادته من أفق التهميش إلى فضاء المتن مرة أخرى - لا يقل أهمية، وذلك بسبب سيطرة بعض الاتجاهات والأفكار والرؤى السلفية على مجمل الخطاب الإسلامى فى السنوات الثلاثين الأخيرة من القرن العشرين .

ورغم أن هذا النمط من الخطاب الذى هيمن بعض الوقت أنتجته ظروف وملابسات اجتماعية وسياسية وثقافية معقدة فإن الآلة الإعلامية الغربية قد

نجحت إلى حد كبير في خلق صورة عن الإسلام والمسلمين تعتمد على مفردات وتعبيرات وسلوكيات طارئة من شأنها أن تجعل من الإسلام عدوا للحضارة والتقدم والحرية، كما تجعل من المسلمين جماعة من الإرهابيين والقتلة. في هذه الصورة المشوهة لا نجد وعيا بتعدد آفاق الفكر الإسلامي، ولا إدراكا لتنوع مصادره المعرفية. ومن المؤسف أن هذا التشويه القائم على التبسيط المخل غير التاريخي قد وجد صدى لدى قطاعات واسعة في المجتمعات الإسلامية؛ إذ يظل الإعلام الغربي مصدرا من مصادر تشويه الوعي لا في المجتمعات الغربية وحدها، بل في المجتمعات الإسلامية التي تعتمد قيم الاستهلاك فتبتلع الصورة التي أنتجت في قنوات الإعلام دون أي فحص نقدي.

من هذه الصورة المنتجة في الغرب والمُصدرة إلى العالم الإسلامي لا يختفى ابن عربي وحده، بل يختفى معه الفلاسفة والمتكلمون والأدباء، ولا تبقى إلا صورة الرجل الإرهابي حامل البندقية والسكين جنباً إلى جنب صورة المرأة الملتمة، التي لا يظهر من ردائها إلا ثقبان لعينيها. ولقد بلغ من سطوة هذه الصورة الإعلامية القبيحة أن أثرت في الخطاب السياسي الغربي الذي تبنى مفهوم «الصراع بين الحضارات» باعتباره مصيراً لا فكاك منه. لكن العقلاء من الجانبين، العالم الغربي والعالم الإسلامي، تصدوا لهذه المحاولات بمحاولة ترسيخ قيمة «الحوار» و«التفاهم» و«الاحترام المتبادل» محل الصراع والحروب. وفي مجال المساهمة في تأكيد قيم الحوار والتفاهم والاحترام المتبادل يمثل فكر ابن عربي رصيذاً ثريا يستأهل منا تأمله والغرف منه لتحرير العقل المسلم المعاصر من آثار المشكلات السياسية والاجتماعية والثقافية التي سببت حالة التوتر والاحتقان في الفكر الإسلامي. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يقدم فكر ابن عربي للقارئ غير المسلم صورة أخرى لروحانية الإسلام، ولمفهوم «الجهاد» الذي أصابه من التشويه الكثير.

الفصل الأول

من الجاهلية إلى ختم الولاية

فى هذا الفصل نريد أن نتعرف على «ابن عربى» من خلال ما يخبرنا به هو عن نفسه. نريد أن نقدم الصورة التى رسمها الشيخ بنفسه لنفسه. والسؤال الذى يشغلنا هنا، كما شغل باحثين كثيرين من قبل، هو: لماذا اتخذت حياة «ابن عربى» هذا المسار الخاص رغم أنه ينتمى لأسرة كانت كل ظروفها ترشحه للعمل فى الديوان أو للانخراط فى سلك الحياة العسكرية؟ ولكن ثمة سؤال ثان يعنينا هنا بصفة خاصة، وهو: إلى أى حد يعتبر هذا «التحول» انقلاباً؟ هل كان «انقلاباً» بالفعل أم كان تطوراً طبيعياً فى بناء الشخصية؟ ثم علينا أن نحاول أن نرصد خطوات ذلك «التحول» والانتقال بما يسميه الشيخ «جاهليته» إلى أن وصل ما وصل إليه من «ولاية».

١ - من هو الشيخ محى الدين:

هو «أبو عبدالله محى الدين محمد بن على بن محمد بن العربى الحاتمى» ولد فى ١٧ أو ٢٧ رمضان سنة ٢٧/٥٦٠ يوليو ١١٦٥، فى مدينة «مَرْسِيَّة» بالأندلس - أسبانيا. تنتمى أسرة ابن عربى إلى واحدة من أقدم القبائل العربية

التي وفدت إلى أسبانيا، هي قبيلة «طى» التي منها «حاتم الطائي» أشهر كرماء العرب. وكان أسلافه ضمن من وفدوا من عرب «اليمن» إلى أسبانيا في تاريخ مبكر، ربما خلال موجة «الفتح» الثانية في سنة ٧١٢/٩٣. وقد احتلت الأسرة دائما مكانة متميزة سواء في «الجيش» أو في «الإدارة» كان والد «محمد» يحتل مركزا متميزا في خدمة «محمد بن سعيد ابن مردنيش» حاكم مرسية. وبعد سقوط «مرسية» في يد الموحدين رحلت الأسرة إلى «إشبيلية»، سنة ١١٧٢/٥٦٨، وقد بلغ «محمد» سن الثامنة تقريبا، ولكن الأب استطاع الالتحاق بخدمة «الموحدين»؛ وبذلك احتفظ للأسرة بمكانتها المتميزة.

كانت الظروف كلها تهيب الصبي «محمد» للالتحاق بسلك الحياة العسكرية أو الخدمة في الديوان. لكن حياة ابن عربي اتخذت مسارا مختلفا لأسباب ليست واضحة تماما. هل كانت رؤيا ظهرت له هي التي غيرت المسار المتوقع لحياة الصبي المنعم؟ أم كانت تجربة مرض ألمَّ به في طفولته؟ أم كان الأمر كله مفاجأة بسبب ما لاحظته في سجود أحد الأمراء من ذلٍّ وخضوع لله، فقرر ألا ترتبط حياته إلا بالله الذي تسجد لجبروته جباه الحكم والأمراء؟ هذا السبب الأخير هو ما تطرحه كلودي عداس Claude Addas⁽¹⁾ وذلك رغم الصعوبات التي تحيط بالرواية التي تعتمد عليها في تأكيد هذا السبب. لكنها من جهة أخرى تتفق مع أغلبية الباحثين في تحديد أن التحول حدث في حياة ابن عربي حوالى سنة ١١٨٤/٦٨٠، أي وقد بلغ ابن عربي سن العشرين بالتقويم الهجري. لكن هذا التحديد لا يتفق مع ما يرويه الشيخ عن لقاءه بفيلسوف قرطبة، وهو فتى لم يكن قد نبتت له لحية بعد. هل كان في الخامسة عشرة حين التقى بابن رشد؟ ربما، أو هذا هو الأقرب للاحتمال. لكن كون شهرته كانت قد بلغت ابن رشد في هذا السن معناه أن تجربته لا بد أن تكون قد بدأت قبل ذلك بزمان كاف.

ليس الأمر سهلا أو بسيطا لتحديد سبب بعينه، وعلينا أن نضع في اعتبارنا ما يحكيه الشيخ نفسه أكثر من اعتمادنا على الروايات التي تُحكى عنه. من هذا

(1) The Voyage No Return, translated from by avid Streight, The Islamic Text Society Cambridge 2000, pp. 15 - 16.

سنحاول تتبع سيرة حياة ابن عربى من خلال اختيار بعض النصوص التى تتضمن بعض الوقائع التى يحكيها هو عن حياته، وترتيبها ترتيباً زمنياً وتحليل محتواها. إنه «ابن عربى» نفسه يحكى لنا قصة حياته. لا نحتاج إلى تأكيد أن النصوص التى نختارها للتحليل هى اختيارنا، وأن الدلالات والمعانى التى نستخرجها من هذه النصوص تعتمد بالطبع على معرفتنا بمجمل تراث الشيخ، لا من خلال دراستنا لهذا التراث منذ عشرين عاماً فقط، بل من خلال تعرفنا مجدداً على هذا التراث وتتبع ما نشر عنه خلال تلك الفترة.

ولكن قبل أن نمضى فى تتبع خطى الشيخ العرفانية يهمنى أن نؤكد إلحاح الشيخ على أن طريقه ليست فى حقيقتها سوى اتباع نهج «الإيمان» بلا زيادة ولا نقصان. يقول: «ولقد آمنا بالله وبرسوله وما جاء به كله مجملاً ومفصلاً مما وصل إلينا من تفصيله ولم يصل إلينا، أو لم يثبت عندنا. فنحن مؤمنون بكل ما جاء به فى نفس الأمر. أخذت ذلك عن أبوى أخذ تقليد ولم يخطر لى ما حكم النظر العقلى فيه من جواز وإحالة ووجوب. فعملت على إيمانى بذلك حتى علمت من أين آمنت وبماذا آمنت، وكشف الله بصرى وبصيرتى وخيالى فرأيت بعين البصر ما لا يبصر إلا به، ورأيت بعين الخيال ما لا يدرك إلا به، ورأيت بعين البصيرة ما لا يدرك إلا بها؛ فصار الأمر لى مشهوداً، والحكم المتهم المتخيل بالتقليد موجوداً. فعملت قدر من اتبعت، وهو الرسول المبعوث إلى محمد صلى الله عليه وسلم. وشاهدت جميع الأنبياء كلهم من آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وأشهدنى الله تعالى المؤمنين بهم كلهم حتى ما بقى منهم أحد ممن كان وهو يكون إلى يوم القيامة، خاصهم وعامهم، إلا شهدته. ورأيت مراتب الجماعة كلها فعملت أقدارهم. واطلعت على جميع ما آمنت به مجملاً مما هو فى العالم العلوى. وشهدت ذلك كله فما زحزحنى علم ما رأيته وما عاينته عن إيمانى؛ فلم أزل أقول وأعمل ما أقوله وأعمله لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا لعلمى ولا لعينى ولا لشهودى؛ فواخيت بين الإيمان والعيان. وهذا عزيز الوجود فى الأتباع؛ فإن مزلة الأقدام للأكابر إنما تكون هنا؛ إذا وقعت المعاينة لما وقع به الإيمان فتعمل على عين لا على إيمان فلم تجمع بينهما، ففاته من الكمال أن يعرف قدره ومنزلته؛ فإنه وإن كان من أهل الكشف فما كشف الله له على قدره

ومنزله، فجعل نفسه فعلم على المشاهدة. والكامل من عمل على إيمان مع ذوق العيان وما انتقل ولا أثر فيه العيان. وما رأيت لهذا المقام ذائقا بالحال وإن كنت أعلم أن له رجالا في العالم لكن ما جمع الله بيني وبينهم في رؤية أشخاصهم وأسمائهم فقد يمكن أن أكون رأيت منهم وما جمعت بين عينه واسمه. وكان سبب ذلك أني ما عقلت نفسي قط إلى جانب الحق أن يطلعني على كون من الأكوان ولا حادثة من الحوادث، وإنما عقلت نفسي مع الله أن يستعملني فيما يرضيه ولا يستعملني فيما يباعدني عنه، وأن يخصني بمقام لا يكون لمتبع أعلى منه ولو أشركني فيه جميع من في العالم لم أتأثر لذلك فإنني عبد محض لا أطلب التفوق على عباده، بل جعل الله في نفسي من الفرح أني أتمنى أن يكون العالم كله على قدم واحدة في أعلى المراتب. فخصني الله بخاتمة أمر لم يخطر لي ببال فشكرت الله بالعجز عن شكره مع توفيتي في الشكر حقه. وما ذكرت ما ذكرت من حالي للفخر، لا والله وإنما ذكرته لأمرين: الواحد لقوله تعالى: وأما بنعمة ربك فحدث، وأي نعمة أعظم من هذا الأمر. والآخر ليكون سامع الحديث فيه همة لاستعمال نفسه فيما استعملتها فينال مثل هذا فيكون معي وفي درجتى؛ فإنه لا ضيق ولا حرج إلا في المحسوس» (٣/٣٦٠).

في هذا النص الهام يلخص الشيخ تجربته في الانتقال من حال «الإيمان» المبني على «التقليد» إلى حال «المعانية» و«الكشف»، مؤكدا عزوفه عن طريق النظر العقلي ومقولاته من «جواز» و«وجوب» و«إحالة»... الخ. بالإيمان وحده، والعمل وفقا لمقتضى متطلباته، ارتقت الروح فميزت بين مستويات الإدراك وقنوات المعرفة: بين إدراكات البصر الحسية، ومعرفة «الخيال» ومعانية «البصيرة»، فأعطت كل مستوى حقه، وميزت بينه وبين غيره. وبهذا الوعي انكشفت للروح تجربة الأنبياء جميعا من «آدم» إلى «محمد»، أي انكشفت الدلالات المضمرة في كل منهم بوصفهم كلمات حكمية. أليس هذا هو موضوع «فصوص الحکم»؟ لقد صارت الروح مصفاة رائقة ومرآة صقيلة وعدسة تجمعت فيها الأشعة من كل حذب وصوب، فانعكس فيها الماضي والحاضر والمستقبل في نقطة واحدة. ورغم ذلك الكشف الباهر لم تزل القدم، كما زلت أقدام الأكابر من قبل. وهذا يشير الشيخ من طرف خفي لأسلافه الذين أسكرتهم خمر

المعرفة وحرقتهم أشعة الكشف فلم يصبروا على أنفسهم وغلبتهم أحوالهم. ابن عريى ثابت القيد، لم تخرجه المعاينة عن حدود الأدب. ولكن علينا أن ندرك أن ابن عريى لا يتفاخر ولا يعلو بقدر نفسه فوق غيره بقدر ما يحاول أن ينقل إلى قارئه رسالة أن «العمل» و«السلوك» - والأقوال تتدرج فى إطار الأعمال بلا شك - يجب أن يظل دائما محكوما بأفق الإيمان، لا موجها بروح «المعاينة».

إن العارف مسئول فى نهاية الأمر عن أثر سلوكه على العامة، مثله فى ذلك مثل الأنبياء، الذين تتجاوز معانياتهم حدود ما هو مسموح لهم بكشفه فى خطابهم. إن الخطر المائل على العارف هو أن يعمل وفقا لمشاهدته ومعاينته فيتصرف بناء عليها، فتزل قدمه. والعارف الكامل - وابن عريى يقدم نفسه بهذه الصفة - هو الذى يتميز بقوة تحميه من الزلل. والأساس المعرفى للحماية من الزلل أن ما يكشفه الله للعارف إنما هو كشف يتعلق بذاته، أى أن الكشف على قدر العارف لا على قدر الحقيقة فى ذاتها. هذا الإدراك يعنى أن الزلل سببه عدم إدراك العارف لقدر ذاته. هذا الوعى من جانب ابن عريى لحقيقة أن الكشف إنما يكون على قدر العارف حماه من مغبة الزلل، وفتح له من ثم آفاقا من الرقى المعرفى حتى خصه الله بخاتمة أمر لم يخطر له على بال، شأنه فى ذلك شأن «موسى» وشأن «الخضر» اللذين كانا يسعيان فى شأن الغير فمُنحهما الله ما منح، ابن عريى لم يتعلق قلبه بغير الله، لم يطلب من الله شيئا يشغله عنه أو يباعد عنه التوجه إليه، فكانت المنحة على قدر الإخلاص فى التوجه.

إنها أرقى مكانة وصل إليها بشر، مرتبة يعجز الشيخ عن الوفاء بحق الشكر لها، رغم استيفائه كل متطلبات الشكر، لكن ليس معنى رقيها أن لا يشاركه فيها أحد، إذ يتمنى الشيخ لو كان البشر جميعا فى نفس المرتبة، فلاضيق فى مراتب الكمال والمعرفة. إن «القمة» تتسع لجميع البشر لو كانوا يقدررون على احتمال الطريق إليها. إن ابن عريى يحكى قصته لا للفخر الكاذب، بل لأنه - أولا - يتحدث بنعمة الله طاعة لله، ولأنه - ثانيا - يحفز القارئ مشيرا للطريق، شأنه شأن الغزالي الذى قال: «المشهد هناك لمن يريد أن يراه».

٢. من الجاهلية إلى أول طريق العرفان:

حين يتحدث الشيخ عن حياته قبل أن يدخل الطريق - طريق الكشف والفيض والإلهام - ويسلك مسلك الصوفية يسمى هذه الفترة من حياته باسم «الجاهلية»، وهو المصطلح الذي يستخدم لوصف حال عرب الجزيرة العربية قبل الإسلام، وإلى جانب دلالاته التاريخية فالمصطلح يشير بدلالة التضاد إلى «الإسلام» كنظام للحياة مناقض للنظام السابق عليه. كأن ابن عربي يريد أن يقول لنا أن حياته تنقسم قسمين: ما قبل دخوله في الطريق، وهي حالة «الجهل»، وما بعد دخوله في الطريق واكتسابه المعرفة والعلم بطريق الفيض المباشر من الله لا عن طريق التعلم وقراءة الكتب.

في إحدى المناسبات يحكى الشيخ عن واحدة من التجارب التي حدثت له في جاهليته، وذلك حين كان مع والده في سفر يحيط بهما الغلمان من الحراس على سهوات الخيل، بأيديهم الرماح والسهام. وكان ابن عربي نفسه يمتطى سهوة جواده ويشهر في يده رمحا. والتجربة هنا في تجربة الفتى مع «الحُمُر الوحشية» التي مروا بها، والتي كان في العادة يهوى صيدها، ولكن لأن المجال لم يكن مجال صيد وقتص، فقد فكر الفتى في أنه لا يجب أن يؤذيها. ولكن كيف يُمرون بينها بخيلهم وأسلحتهم المشرعة دون أن يسببوا لها إزعاجاً؟ يحدثنا ابن عربي فيقول: «ففكرت في نفسي، وجعلت في قلبي لا أؤذي واحداً منها بصيد. وعندما أبصرها الحصان الذي أنا راكبه هش إليها، فمَسَكْتُه عنها ورمحي بيدي إلى أن وصلت إليها ودخلت بينها، وربما مرَّ سنان الرمح بأسنمة بعضها وهي في المرعى، فوالله ما رفعت رءوسها حتى جُرْتُهَا. ثم أعقبني غلماناً ففَرَّتْ الحمر أمامها. وما عرفت سبب ذلك إلى أن رجعت إلى هذا الطريق، أعنى طريق الله، فحينئذ علمت في نظري في المعاملة ما كان السبب. وهذا ما ذكرناه فسرى الأمان إلى نفوسهم»^(٢).

(٢) الفتوحات المكية، القاهرة ١٢٧٤ هجرية، المجلد الرابع ص: ٦٩٦. لأن اعتمادنا على كتب الفتوحات اعتماد أساسي فسنكتفي بعد ذلك بالإحالة إلى كتاب «الفتوحات» في المتن بذكر رقم المجلد ثم رقم الصفحة هكذا: ٦٩٦/٤.

إن ابن عربى يريد من قص إحدى تجاربه فى جاهليته أن يرسل لنا رسالتين: تتمثل الرسالة الأولى فى شرحه لمعنى ما حدث. لماذا أنست إليه الحمر الوحشية، وهو يمر من بينها بحصانه ورمحه يكاد يلامس ظهورها، فى حين أنها الحمر الوحشية. جفلت حين مر بها الغلمان؟ التفسير الذى لم يصل إليه الشيخ لهذا الحدث غير العادى إلا بعد أن سلك الطريق هو الذى يسميه «سر المعاملة». تلك هى الرسالة الواضحة فى السرد، لكن ثم رسالة مضمرة بهما هنا إبرازها، فحواها أن «جاهلية» الشيخ كانت محملة ببذور المستقبل. إن حديث النفس الذى دار فى نفس الفتى، أو بالأحرى الحديث الذى أداره الفتى فى نفسه باستبعاد أى نية فى إيذاء الحيوانات أو فى مجرد إزعاجها وجد استجابة فى نفس الحيوان؛ فسرى الأمان من قلب الإنسان إلى قلب الحيوان فى عملية تواصل غير عادية. الشيخ إذن يقول فى رسالته المضمرة أنه لم يكن فى أمر جاهليته خالى الوفاض من بذور «الخير» التى ستنبث وتثمر من بعد.

كان ثمة إرهابات وعلامات تنبئ بأمر التحول الآتى، لأن بذور «الولاية» لا تنبت من فراغ، لا شئ فى فلسفة الشيخ يتولد من لا شئ، كما سنرى، والإنسان فى جاهليته هو الإنسان فى إسلامه، كما روى عن النبى «محمد» أنه قال «خيركم فى الجاهلية خيركم فى الإسلام»، وهو قول يردده ابن عربى كثيرا مستشهدا به لبيان أن «الخير» فى نفس البشر لا يتعلم تعلقا ضروريا بالإيمان.

يستطيع الشيخ أن يشرح السبب فى سريان الأمان من نفس الإنسان إلى نفس الحيوان بطرق شتى، ولكن بعد أن كان قد اجتاز بالفعل الخطوات الأولى فى طريق العرفان. أى بعد أن انتقل من مرحلة «الخير» بلا علم، إلى مرحلة «الخير» المؤسس على المعرفة. ليست المسألة مجرد تواصل بين الإنسان والحيوان مشروطة بصفاء قلب الإنسان وقدرته على رؤيته الحقيقية السارية فى كل المخلوقات إنسانية وحيوانية وجماد ونبات. بل هى فوق ذلك كله تتضمن سرا إلهيا من حضرة «البسط» و«الرحمة». لقد كانت بداية انبثاق الوجود الظاهر بتجلى صفة الرحمة الإلهية: الرحمة بالموجودات أولا بنقلها من حالة العدم

الذاتى إلى حالة الوجود الظاهر، والرحمة بالأسماء الإلهية - ثانياً - والتي كانت تعاني «انقباض» سلطانها فأوجد لها أعيان الموجودات لتبسط عليها سلطانها فتتخلص من حالة «القبض». هذ معناه أن مبدأ «الرحمة» وما يتعلق به من «بسط» هو المبدأ السارى فى الوجود كله.

يشير كثير ممن يؤرخون لسيرة ابن عربى الروحية لرؤيا منامية رآها ابن عربى الفتى، أو الطفل، بوصفها الواقعة التى تمثل حافزا أساسيا فى تغيير مسار حياته. ولعل الواقعة المشار إليها هى الرؤية التى وقعت له فى واقعة مرض بلغ فيها حد الموت، الذى لم ينقذه منه إلا تلاوة أبيه لسورة «يس» - رقم ٣٦ - من القرآن الكريم فوق رأسه وهو فى شبه غيبوبة بسبب المرض. خلال هذه الغيبوبة حدثت الرؤيا التى تجسدت فيها سورة «يس» للمريض فخاطبها وخاطبته. يحكى ابن عربى: «مرضت فغشى على فى مرضى بحيث أنى كنت معدودا فى الموتى، فرأيت قوما كريهين المنظر يريدون إذائتى، ورأيت شخصا جميلا طيب الرائحة شديدا يدافعهم عنى حتى قهرهم، فقلت له: من أنت؟ فقال: أنا سورة يس أدفع عنك. فأفقت من غشيتى تلك، وإذا بأبى رحمه الله عند رأسى يبكى وهو يقرأ سورة يس وقد ختمها. فأخبرته بما شهدته. فلما كان بعد ذلك بمدة رويت فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «اقرأوا على موتاكم يس». (٢٥٢/٤)، وهى السورة التى يقول عنها الشيخ بعد ذلك أنها «قلب كتاب الله»^(٣). وهناك أسباب ترشح الواقعة السابقة - واقعة المرض - لأن تكون هى الواقعة التى يشير إليه ابن عربى دون تحديد بوصفها نقطة التحول فى حياته من مسارها المتوقع إلى المسار الذى صارت إليه.

واحد من هذه الأسباب حرص ابن عربى على ذكر أنه لم يكن قد عرف بعد حديث النبى عن سورة «يس». وهذا سبب كاف يرشح وقت الطفولة ليكون زمن سرد هذه الواقعة. سبب آخر هو كثرة تكرار الشيخ لحقيقة أنه دخل خلوته دون

(٣) عتقاء مغرب فى ختم الأولياء وشمس المغرب، مكتبة صبيح بالقاهرة ١٣٧٢/١٩٥٤، ص: ١٣. والكتاب مؤلف عام ٥٩٥ وفى شهر ربيع الأول على وجه التحديد «شهر ميلاد النبى محمد عليه السلام» حسب كلام الشيخ نفسه (ص: ١٦ - ١٧).

توجيه شيخ أو تعليم أستاذ، فخرج منها بعلوم وهبية لا يتأتى الحصول عليها بقراءة الكتب . هذا بالإضافة إلى أن «تلاوة القرآن» فى الأماكن الخالية - المقابر بصفة خاصة - كان يمثل - فيما يبدو - أهم الأذكار فى خلوة الشيخ أو خلواته المبكرة.

٣. الخلوة والأذكار القرآنية، من الإيمان إلى العرفان:

من الصعب على الباحث أن يحدد على سبيل اليقين ما إذا كانت هذه «الأذكار» القرآنية ثمرة اجتهاد شخصى، أم نتيجة توجيه من شيخ. ونحن نعرف أن الشيخ ظل حتى سنة ١١٩٢/٥٨٦ فى إشبيلية ثم يغادرها إلا سنة ٥٨٧ / ١١٩٣ فى أول زيارة لتونس، وأنه فى إشبيلية وقعت له الرؤيا التى غيرت مسار حياته، فدخل خلوته التى خرج منها مزودا بعلم لفت إليه الأنظار فى سن مبكرة. وفى إشبيلية أيضا بدأت تدريبات الشيخ الروحية بقراءة القرآن فى المقابر وحده أحيانا ومع آخرين أحيانا أخرى، وعندما بدأ الاتصال بالمشايخ تأثر بهم كما أثر فيهم.

يقول الشيخ فى سياق الحديث عن المنزلة التى يمكن استنباطها بطريق الكشف والإلهام من «الذكر» المتضمن فى الآية القرآنية: «إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى بيعتهم الله ثم إليه يرجعون» (الأنعام ٣٦/٦): «اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن هذا الذكر لما وفقنا الله تعالى لاستعماله بإشبيلية من بلاد الأندلس سنة ٥٨٦ بقينا فيه ثلاثة أيام فرأينا بركة فى تلك الأيام. وكنا به ثلاثة: أنا وعبد الله النزهونى قاضى شرف، وكان عبدا صالحا ضابطا فقيها وشخصا ثالثا من أهل البلد. (١٧٨/٤) لكنه فى أحيان أخرى يبدو متوحدا فى خلوته فى المقابر لقراءة القرآن. فى «إشبيلية» أيضا، وفى سنة ٥٨٦ كذلك، يذكر الشيخ أنه قرأ الآية القرآنية «قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره، والله لا يهدى القوم الفاسقين» (سورة التوبة ٢٤/٠٩) يوم جمعة بعد الصلاة فى المقابر بإشبيلية

سنة ٥٨٦ فبقيت فيها سكران ما لى تلاوة فى صلاة ولا يقظة ولا نوم إلا بها ثلاث سنين متوالية. أجد لها حلاوة ولذة لا يقدر قدرها». (١٧١/٤).

بدأ الطريق بالخلوة، دون شيخ أو قراءة أو أى معرفة مسبقة. هذا على الأقل ما يردده الشيخ دائماً، خاصة فى سياق لقائه بابن رشد. لكنه أيضاً حريص فى نفس الوقت على أن يذكر اتصالاته بمشايع التصوف فى الأندلس قبل رحليه إلى المشرق. فى هذا السياق يذكر أن من أوائل الشيوخ الذين اتصل بهم وتعلم منهم «أبو العباس العرينى». وبهمنا هنا قصة محددة كاشفة عن علاقته بشيخه من جهة، وكاشفة عن مستوى «كشفه من جهة أخرى، رغم أنه كان ما يزال فى أول الطريق. اختلف الشيخ مع أستاذه «أبو العباس العرينى» فى مسألة ما، وفى الطريق عائداً إلى بيته التقى به شخص غريب لا يعرفه ونصحه ألا يخالف شيخه. فعاد ابن عربى لبيت شيخه ليعتذر له، وكانت المفاجأة أن الشخص الذى قابله ونصحه كان «الخضر». وسنعود للقصة بتحليل أكثر تفصيلاً فى فقرة تالية، لكن ما يهمنا هنا هو محاولة استجلاء متى بدأت صلة الشيخ بشيوخ الأندلس. ومن المحتمل أن يكون لقاء ابن عربى بشيخه الأول هذا - أبو العباس - كان فى اشبيلية، حين زارها العرينى سنة ٥٨٥/١١٩٠، وهى السنة التى يحكى فيها ابن عربى أنه رأى الأنبياء فى رؤيا فى «قرطبة».

يحكى الشيخ فى سيرته العرفانية أن بدايته فى الطريق بدأت من النقطة التى انتهت إليها رحلة شيخه: «كان شيخنا أبو العباس العرينى عيسوى فى نهايته، وهى كانت بدايتنا - أعنى نهاية شيخنا فى هذا الطريق كانت عيسوية - ثم نقلنا إلى الفتح الموسوى الشمسى، ثم بعد ذلك نقلنا إلى هود عليه السلام، ثم بعد ذلك نقلنا إلى جميع النبيين عليهم السلام، ثم بعد ذلك نقلنا إلى محمد صلى الله عليه وسلم. هكذا كان أمرنا فى هذا الطريق». (٢٠٧/١ - ٢٠٨) وهذا معناه أن نقطة البداية كانت متقدمة جداً مقارنة بشيخه، الأمر الذى يكشف عن علاقة تكافؤ وندية لا تقلل من تقدير الشيخ لمشايعه أو احتزامه لهم.

وكما كانت علاقته بشيخه «العرينى» علاقة فيها كثير من ملامح الندية يؤكد ابن عربى أن علاقته بشيخه «أبو يعقوب يوسف بن يخلف الكومى» - التى بدأت

عام ٥٨٦ - كانت كذلك علاقة تفاعل لا مجرد علاقة تقبل سلبي، يقول: «ما راضني أحد من مشايخي سواء، فانتفعت به في الرياضة وانتفع بي في مواجيدته، فكان لي تلميذا وأستاذا وكنت له مثل ذلك. وكان الناس يتعجبون من ذلك ولا يعرف واحد منهم سبب ذلك، وذلك سنة ست وثمانين وخمسمائة فكان قد تقدم فتحى على رياضتى وهو مقام خطر، وأفاء الله على تحصيل الرياضة على يد هذا الشيخ جزاءه الله كل خير». (٦٤٥/١).

٤ - إرهافات الرحيل، بين المغرب والأندلس:

منذ أن زار الشيخ تونس سنة ٥٨٧ / ١١٩٣ لأول مرة، لم تتوقف رحلاته بين الأندلس بصفة عامة، وإشبيلية بصفة خاصة، وبين المغرب العربي. نجده في فاس سنة ٥٨٩ / ١١٩٥ مع شيخ آخر هو «أبو إسحاق ابن طريف»: «وهو من أكبر من لقيته. ولقد سمعت هذا الشيخ يوما وأنا عنده بمنزله بالجزيرة الخضراء سنة تسع وثمانين وخمسمائة وقال لي: والله يا أخى ما أرى الناس في حقى إلا أولياء عن آخرهم ممن يعرفنى. قلت له: كيف تقول يا أبا إسحاق؟ فقال: إن الناس الذين رأونى أو سمعوا بى إما أن يقولوا فى حقى خيرا أو يقولوا ضد ذلك. فمن قال فى حقى خيرا أثنى على، فما وصفنى إلا بصفته، فلولا ما هو أهل له ومحل لتلك الصفة ما وصفنى بها، فهذا عندى من أولياء الله. ومن قال فى شرا فهو عندى ولى أطلعه الله على حالى، فإنه صاحب فراسة وكشف ناظر بنور الله فهو عندى ولى. فلا أرى يا أخى إلا أولياء الله».

فى سنة ٥٩٠ / ١١٧٥ نجد الشيخ فى تونس، حيث يحكى فى قصة أبيات من الشعر حدث بها نفسه دون أن يكتبها أو ينشدها بمسمع من أحد. ويحدد ابن عربى المكان الذى حدث فيه ذلك بأنه مقصورة ابن مثنى بشرق تونس من بلاد إفريقية، ويحدد الوقت بأنه عند صلاة العصر. والسياق هو الباب ٣٦٠ - فى معرفة منازل الظلمات المحمودة والأنوار المشهودة - الذى يتضمن فيما يتضمنه من علوم الكشف أحد العلوم، الذى يحدده الشيخ بأنه «أن يعلم صاحب الكشف أن أى واحد أو جماعة، قلت أو كثرت، لا بد أن يكون معهم من رجال الغيب واحد

عندما يتحدثون. فذلك الواحد ينقل أخبارهم في العالم، ويجد ذلك الناس من نفوسهم في العالم، فيجتمع جماعة في خلوة، أو يحدث الرجل نفسه بحديث لا يعلم به إلا الله، فيخرج أو تخرج تلك الجماعة فتسمعه في الناس يتحدثون به.

يتضمن هذا العلم أن هناك دائماً «موجوداً» من عالم الغيب، وظيفته أن يلازم الإنسان فرداً كان أم جماعة. هذا الملازم من عالم الغيب ينقل ما يدور من حديث منطوق أو نفسى من الإطار الى يدور فيه إلى خارج هذا الإطار؛ فيفاجأ الفرد أو الجماعة بحديثهم هذا - المنطوق منه أو النفسى - منتشراً بين الناس الذين لم يكونوا حاضرين، والذين لا سبيل لهم لمعرفة الحديث بالطرق المعتادة. العلم بهذا الأمر - أمر رجال الغيب الذين ينقلون الأحاديث ويشيعونها - من العلوم الكشفية التي لا يعلمها إلا أصحاب «منازل الظلمات المحمودة والأنوار المشهودة». يحكى ابن عربى في هذا السياق قصتين متداخلتين: تتعلق القصة الأولى بأبيات من الشعر كان قد حدث بها نفسه وهو بمقصورة ابن مثنى بشرق تونس عند صلاة العصر، لكنه وجد شخصاً ينشد تلك الأبيات نفسها في «إشبيلية» بعد ثلاثة أشهر، وهى الفترة التى تستغرقها رحلة العودة إلى «إشبيلية» من «تونس»، وكان من الطبيعى أن يسأل ابن عربى منشد الأبيات: لمن تلك الأبيات؟ وكانت المفاجأة فى جواب الرجل أنه قال إن الأبيات لمحمد بن العربى. فسأله الشيخ مرة أخرى - أم نقول الصبى؟ - ومتى حفظتها؟ فنذكر له بالضبط التاريخ والوقت الذى حدثته نفسه بالأبيات فيها، ولما سأله: ومن أنشدك إياها، كان الجواب: «كنت جالساً ليلة بسوق إشبيلية فى مجلس جماعة على الطريق، ومربى رجل غريب لا نعرفه كأنه من السياح، فجلس إلينا فتحدث معنا ثم أنشدنا هذه الأبيات فاستحسنها وكتبناها».

ثم يواصل الرجل قصته مفصلاً ما حدث من حوار بينهم وبين الرجل الغريب الغامض الذى أنشدهم الأبيات التى حدث ابن عربى نفسه بها فى مقصورة ابن مثنى بتونس. فقد تساءل الجمع موجهين السؤال للغريب الغامض: لمن هذه الأبيات، وكان جواب الرجل الغامض أنها لفلان وذكر اسم «محمد ابن العربى». فلما قالوا له: فهذه مقصورة ابن مثنى (المذكورة فى الأبيات) ما نعرفها ببلادنا،

كان جواب الرجل الغريب الغامض: هي بشرق جامع تونس، ثم أضاف عن الأبيات: وهناك عملها (يقصد ابن عربي) في هذه الساعة وحفظتها. ثم يأتي التعليق من الراوي الثاني الذي يحكى لابن عربي عن الشخص الذي أنشدهم الأبيات: ثم غاب فلم ندر أمره، ولا كيف ذهب عنا وما رأيناه».

جدير بالإلتفات هنا أن الشخص الذي سمعه ابن عربي ينشد أبياته شخص لا يعرفه ابن عربي، فقد التقيا بالمصادفة، وسمعه ينشد الشعر الذي سبق له أن حدث نفسه به بالمصادفة أيضا. الرجل الغريب الذي روى الشعر في حضور الجماعة - التي كان قد انضم إليها الشخص الذي قابله ابن عربي - يدلى للجماعة بمعلومات دقيقة عن الأبيات وأين سمعها ومتى سمعها، دون أن يشير إلى «كيف» سمعها. الغريب في الأمر أن الأبيات التي حدث بها ابن عربي نفسه في تونس، وسمعها الكائن الذي ينتمي إلى عالم الغيب فأشاعها وأذاعها في إشبيلية، وسمع ابن عربي شخصا مجهولا بطريق المصادفة ينشدها في إشبيلية، هي أبيات موضوعها الغزل في صبي تونسي:

مـة صـورة ابن مـثنى	أـمـسـيت فـيـهـا مـعـنى
بـشـبـادن تـونـسـى	حـلـو الـلمـى يـتـمـنـى
خـلـعت فـيـه عـذارى	فـأـصـبـح الجـسـم مـضـنى
سـألـتـه الـوـصل لـمـا	رأيتـه يـتـجـنـى
فـهـز عـطـفـيـه عـجـبا	كـالـغـصـن إذ يـتـثـنى
فـقـال أنت غـريـب	يا ذا إلـيـك عـنـا
قـد ذبـت شـوقـا ويا سـا	و مـت و جـدا و حـزنا

ليس الغزل بمذكر أمرا غريبا، فهو تقليد شعري صوفي، والمعنى الصوفي للتعليق بالمردان - الصبيان - يفسره ابن عربي في مكان آخر (انظر: ٢/٢١١). في نهاية السرد يذكر الشيخ الأبيات الشعرية ثم يحدد اسم الصبي - الذي يتغزل

فيه - ويذكر تاريخ الواقعة: «وهذا الصبي كان يقال له أحمد بن الإدريسي من تجار البلد كان أبوه، وكان شاباً صالحاً يحب الصالحين ويجالسهم وفقه الله. وكان هذا المجلس بينى وبينه سنة خمسين وتسعمائة، ونحن الآن فى سنة خمس وثلاثين وستمائة». (٣/٣٧٧ - ٣٧٨).

ولكن قبل أن يصل السرد إلى نهايته، يروى الشيخ قصة أخرى لتأكيد أمر العلم برجال الغيب الذين ينقلون للناس ما يحدث به الإنسان نفسه، أو ما تحدث به الجماعة بين بعضها البعض. والقصة الثانية فى السرد تحكى عن شخص - مجهول أيضاً - التقى به الشيخ بجامع «العديس» بإشبيلية يوماً بعد صلاة العصر. بدأ هذا الشخص يحكى لابن عربى عن صفات رجل من أهل الطريق كان قد التقى به هذا الشخص المجهول فى «خراسان» مركز القصة الثانية وبؤرة دلالتها أن «الشيخ الخراسانى» ظهر بذاته لعينى ابن عربى، دون أن يراه الشخص الذى يحكى. الأهم من ذلك أنه - الشيخ الخراسانى - أخبر ابن عربى أنه هو الشخص الذى يحكى عنه الراوى المجهول. يمكن للباحث أن يلحظ هنا علاقة ما بين هذه القصة، أو بالأحرى التجربة، وبين تجربة ابن عربى فى جاهليته مع الحمر الوحشية: تجربة سريان روح «الأمان» من نفس «الإنسان» إلى نفس «الحيوان». فهل يكون هذا السريان بفعل رجال «الغيب» الذين يدل عليهم العلم الكامن فى القصة الحالية؟

وفى سنة ١١٩٤/٥٩٠ نجده فى تونس يقرأ كتاب «خلع النعلين» لأبى القاسم بن قسى رواية عن ابنه. وهى نفس السنة التى كان فيها فى إحدى زيارته لوليه وصديقه أبى محمد عبدالعزیز بن أبى بكر بن القرشى المهدوى (ت: ١٢٢٤/٦٢١)، وهو الذى كتب له الشيخ رسالة «روح القدس»، وهو فى مكة. وكان قد بدأ فى داره فى «تونس» تأليف «إنشاء الدوائر» سنة ٥٩٨^(٤). فى إهداء «الفتوحات» يذكر ابن عربى أنه فى زيارته سنة ٥٩٠ لمنزل ولية لم يلق ما كان يجب أن يلقاه من تقدير، لكن لغة ابن عربى فى التعبير عن هذا الموقف لغة

(٤) انظر: روح القدس فى محاسبة النفس، دمشق ١٣٨٤/١٩٦٤، ص: ١٩.

على درجة عالية من الرهافة؛ إذ يلوم وكأنه يعتذر، أو يعتذر وكأنه يلوم. وبين ليونة أسلوب «الاعتذار» وجفاء أسلوب «اللوم» تتماوج لغة الشيخ في هذا الإهداء المتميز.

وما يهمننا من هذا الإهداء في سياقنا هنا ما يعكسه من إيماء ابن عربى إلى الدرجة التى كان قد وصل إليها فى سلم المعرفة الصوفية، وعدم رضاه بسبب عدم تقدير أقرب الناس إليه - وهو صديقه ووليه - لمكانته. ويفصح الشيخ إلى أن سبب ذلك أنه لا يفخر بمكانته ولا يدل بها على أقرانه، ولكنه على العكس من ذلك يبدى من نفسه التواضع وسوء الحال. يبدأ الشيخ إهدائه بذكر أن من واجب الأصدقاء إذا افترقا أن يداوما الوصال، ويحس أن من واجبه أن ينقل إلى صديقه ووليه ما حصله فى غيابه عنه من تجارب وما أفاء الله عليه من عارف؛ فاعلم أيها العاقل الأديب والولى الحبيب أن الحكيم إذا نأت به الدار عن قسيمه، وحالت صروف الدهر بينه وبين حميمه، لابد أن يعرفه بما اكتسب فى غيبته وما حصله من الأمتعة الحكمية فى غيبته؛ ليسر وليه بما أسداه إليه البر الرحيم من لطائفه ومنحه من عوارفه، وأودعه من حكمه وأسمعه من كلمه، فكأن وليه ما غاب عنه بما عرف منه».

بعد هذه المقدمة التى يؤكد فيها الشيخ أن الود بين الأصدقاء لا يؤثر فيه تباعد المسافات يشير إلى «الكدر» الذى أحس به من وليه وأسرته أثناء زيارته سنة ٥٩٠، وذلك دون أن يشرح أو يفصل سبب هذا «الكدر». لكنه يعطى علامات ذات مغزى بالنسبة للقارىء، إذ سبب «الكدر» منشؤه عدم الالتفات إلى مكانته التى حاول بطرق شتى أن يكشفها لوليه: «وإن كان الولى أبقاه الله قد أصاب صفاء الود بعده كدر لعرض، وظهر منه انقباض عند الوداع لتتميم غرض، فقد غمض وليه عن ذلك جفن الانتقاد وجعله من الولى أبقاه الله من كريم الاعتقاد؛ إذ لا يهتم منك إلا من يسأل عنك. فليهنأ الولى أبقاه الله تعالى فإن القلب سليم، والود كما يعلم من الجوانح مقيم... وربما كان من الولى حفظه الله تعالى فى الرحلة الأولى التى رحلت إليه سنة تسعين وخمسمائة عدم التفات فيها إلى جانبى، ونفور عن الجرى على مقاصدى ومذاهبى؛ لما لاحظ فيها رضى الله

عنه من النقص. وعذرته في ذلك فإن أعطاه ذلك منى ظاهر الحال وشاهد النص، فإنى سترت عنه وعن بنيه ما كنت عليه في نفسي، بما أظهرت لهم من سوء حالى وشرة حسى، وربما كنت أسألهم أحيانا عن طريق التنبية، فيأبى الله أن يلحظنى واحد منهم بعين التنزيه. ولقد قرعت أسماعهم يوما في بعض المجالس. والولى أبقاه الله في صدر تلك المجالس، بأبيات أنشدتها وفي كتاب «الإسرا» أودعتها وهى:

أنا القرآن والسبع المثاني وروح الروح لا روح المعاني

فوالله ما أنشدت من هذه المقطوعة بيتا إلا وكأنى أسمع ميتا. وسبب ذلك حكمة كنت أبغى رضاها، فما كان إنشادى لهم مع معرفتى بقله حرمتى عندهم إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها... ولا أزل بعد مفارقتى حضرة الولى، أبقاه الله، له ذاكرة ولأفعاله شاكرا، وبمناقبه ناطقا، ولأحواله وآدابه عاشقا، وربما سطررت من ذلك في الكتب ما سارت به الركبان، وشهر في بعض البلدان، وقد وقف الولى عليه، ورأى بعض ما لديه. فقد ثبت له الود منى قبل سبب يقتضيه، وغرض عاجل أو أجل يثبتته في النفس ويمضيه.

لقد عجز الولى عن الالتفات إلى ما حاول الشيخ لفته إليه من مكانته التى بلغت أن يكون هو نفسه «القرآن والسبع المثاني». وهى مكانة توازى مكانة النبى عليه السلام، الذى قالت عنه زوجته السيدة عائشة «كان خلقه القرآن». ومن الواضح أن «عدم الالتفات» هذا جرح كرامة «ابن عربى» وإن حاول أن يخفى هذا الجرح بنسبة النقص إلى نفسه، أو بالأحرى بإقراره أنه كان حريصا على أن يبدووا في عيونهم بمظهر النقص. لكنه أيضا يعود فيقول إنه قصد بإظهار حاله لوليه. رغم علمه بنقص حاله في عينه. «حاجة في نفس يعقوب». والمقصود هنا - فى تقديرى - أنه شأن «الملامتية» لا يريد أن يظهر حاله بالإفصاح، وإن أراد أن يلمح إليه. ولأنه كان يتوقع من وليه أن يتفهم بالإشارات، وهذا لم يحدث، فقد أصابه ما أصابه من إحساس بالكدر.

يذكر الشيخ بعد هذه الزيارة سنة ٥٩٠ زيارته الأخيرة لوليه فى تونس؛ حيث قضى فى ضيافته تسعة أشهر قبل أن يرحل رحيله النهائى إلى «مكة» للحج،

مرورا ببيت المقدس، ومن الواضح أن السفر إلى مكة كان للحج ثم العودة، لكن الشيخ لم يعد أبدا: «ثم كان الاجتماع بالولى تولاه الله تعالى بعد ذلك بأعوام فى محله الأسنى، وكانت الإقامة معه تسعة أشهر دون أيام فى العيش الأرغد الأهنى، عيش روح وشيع وقد جاد كل واحد منا على صفيه وسمح. ولى رفيق وله رفيق، وكلاهما صديق وصديق: فرفيقه شيخ عاقل محصل ضابط يعرف بأبى عبد الله ابن المرابط، ذو نفس أبيّة وأخلاق رضية وأعمال زكية، وخلال مرضية. يقطع الليل تسبيحا وقرآنا، ويذكر الله على أكثر أحيانه سرا وإعلانا. بطل فى ميدان المعاملات، فهيم لما يبيده صاحب المنازل والمنازلات. منصف فى حاله، مفرق بين حقه ومحاله. وأما رفيقى فضياء خالص ونور صرف، حبشى اسمه عبد الله بدر لا يلحقه خسف.. فكنا الأربعة الأركان التى قام عليها شخص العالم والإنسان؛ فافترقنا على هذه الحال لانحراف قام ببعض هذه المحال. فإنى كنت قد نويت الحج والعمرة، ثم أسرع إلى محله الكريم الكرة. فلما وصلت أم القرى، بعد زيارتى خليل الرحمن الذى سن القرى، وبعد صلاتى بصخرة المقدس الأقصى، وزيارة سيد ولد آدم ديوان الإحاطة والإحصاء، أقام الله فى خاطرى أن أعرف الولى أبقاه الله بفنون من المعارف حصلتها فى غيبتى، وأهدى إليه أكرمه الله من جواهر العلم التى اقتنيتها فى غربتى. فقيدت له هذه الرسالة اليتيمة، التى أوجدها الحق لأعراض الجهل تميمة، ولكل صاحب صفى وحقق صوفى، ولحبينا الولى، وأخينا الذكى وولدنا الرضى عبد الله بدر الحبشى اليمنى معتق أبى الغنائم ابن أبى الفتوح الحرانى وسميتها «رسالة الفتوحات المكية فى معرفة الأسرار المالكية والملكية»^(٥).

من الجدير بالذكر أن الشيخ يذكر أن «أبا عبد الله المرابط» كان هو الذى أحس بما يحاول كشفه من حاله فى الزيارة الأولى سنة ٥٩٠، لكن إحساسه به كان ملتبسا، الأمر الذى يعنى أنه حتى هؤلاء الذين كانوا يحسون مكانته لم

(٥) عبد الله بدر الحبشى من إخص تلاميذ الشيخ، صحبه بإشبيلية منذ عام ٥٨٠، وألف الشيخ من أجله كتاب «مواقع النجوم» بالمرية سنة ٥٩٥. ومن أجله أيضا كتب كتاب «حلية الأبدال» بالطائف عام ٥٩٩، وكان شرحه لترجمان الأشواق وهو بدمشق تلبية لرغبته هو وتلميذه الآخر «اسماعيل بن سودكين». وقد توفى عبد الله بدر فى حياة الشيخ.

يكونوا قادرين على فهمها فهما عميقا: «وما أحس بى من ذلك الجمع المكرم إلا «أبو عبد الله ابن المرباط» كليهم المبرز المقدم، ولكن بعض إحساس والغالب عليه فى أمرى الإلتباس». (٩/١ - ١٠) هل كان هذا الإحباط الذى يعبر عنه الإهداء واحدا من أسباب قرار الرحيل؟

فى سنة ٥٩١ / ١١٩٥ يحكى لنا ابن عربى أنه كان فى فاس حين شهد عبور عساكر الموحدين للأندلس، وهو العبور الذى تحقق به انتصار الخليفة «أبو يوسف يعقوب» المنصور (٥٨٠ - ٥٩٥ / ١١٨٤ - ١١٩٩) فى ٨ شعبان ٥٩١ / ٨ يوليو ١١٩٥، فى معركة «الأراك». فهل كانت الحروب سببا آخر للرحيل؟

فى سنة ٥٩٢ نجده فى إشبيلية يحكى لنا عن تبسطه مع أصدقائه، والقصة تكشف أن الشيخ صار له أتباع ومريدون يتهيبون التبسط معه لعلو شأنه فى نظرهم. لكنها تكشف لنا أيضا ملمحا من ملامح شخصية الشيخ حدثنا هو عنها فيما مر بنا من قصص، ذلك هو «التواضع» و«البساطة» و«إنكار الذات» لكنه هذه المرة يربط بين هذا الملمح وبين صفة إلهية سارية فى الوجود، هى صفة الرحمة وما ينبثق عنها من صفات الجمال ومقام «البسط». يحكى لنا ابن عربى عن نموذج علاقته بتلاميذه وأصدقائه، واقعة يؤرخ لها بسنة ٥٩٢ / ١١٩٦ بعد أن دخل الطريق، كان أصدقاؤه ومريده يهابونه ويظهرون له الإعظام والتبجيل. يقول: بتنا ليلة عند أبى الحسين بن أبى عمر بن الطفيل^(٦) بإشبيلية سنة ٥٩٢، وكان كثيرا ما يحتشمنى ويلزم الأدب بحضورى. ويات معنا أبو القاسم الخطيب وأبو بكر بن سام وأبو الحكم بن السراج^(٧). وكلهم قد منعهم احترام جانبى (من) الانبساط ولزموا الأدب والسكون. فأردت (أن) أعمل الحيلة فى مباسطتهم، فسألنى صاحب المنزل أن يقف على شئ من كلامنا، فوجدت طريقا إلى ما كان فى نفسى من مباسطتهم، فقلت له: عليك من تصانيفنا بكتاب سميناه الإرشاد فى خرق الأدب المعتاد، فإن شئت عرضت عليك فصلا من فصوله،

(٦) هل هو ولد أبو بكر بن طفيل المتوفى ٥٨١ / ١١٨٥ ومولف «حى بن يقظان»؟

(٧) هو نفس «الناسخ» الذى شهد - مع ابن عربى - نقل رفات ابن رشد من «مراكش» إلى «قرطبة»، وهو صاحب العبارة التى يسجلها لنا ابن عربى: «هذا الإمام وهذه أعماله»، كما سنرى فى فصل تال.

فقال لى: أشتهى. فمددت رجلى فى حجره وقلت له: كبسنى، ففهم عنى ما قصدت، وفهمت الجماعة فانبسطوا وزال عنهم ما كان بهم من الانقباض والوحشة. وبتنا بأنعم ليلة فى مباسطة دينية» (٥٩٥/٤).

غنى عن القول أنه لا يوجد لابن عربى كتاب اسمه «الإرشاد فى خرق الأدب المعتاد» لكنها روح الدعابة والرغبة فى المباسطة وإزالة وحشة الهيبة والتوقير المبالغ فيه بين الشيخ ومريديه، لكنه يربط تلك القصة بمقام «البسط» وهو مقام صوفى يقابل مقام «القبض»، وكل من المقامين يرتبط بأسماء إلهية، إذ يرتبط مقام «البسط» بأسماء الجمال والرحمة، بينما يرتبط مقام «القبض» بأسماء «الجلال» و«الجبروت». من مقام «البسط» هذا يضاحك الملوك أهل البلاط من أمراء ونساء، بل يضاحكون أولادهم بما ينزلون إليهم من حركاتهم حتى يضحك الصغير (انظر: ٤٢٧/٤).

٥ - اللقاء بالخضر، البداية والنهاية:

عن لقائه بالخضر وهو فى أول الطريق يقول ابن عربى فى سياق حديثه عن «الأقطاب»، و«الخضر» واحد من المتميزين منهم: «هذا الود» (المخصوص المعمر) هو الخضر صاحب موسى عليه السلام أطل الله عمره إلى الآن. وقد رأينا من رآه واتفق لنا فى شأنه أمر عجيب؛ وذلك أن شيخنا أبا العباس العرينى جرت بينى وبينه مسألة فى حق شخص كان قد بشر بظهوره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى: هو فلان بن فلان، وسمى لى شخصا - أعرفه باسمه، وما رأيته ولكن رأيت ابن عمته - فتوقفت فيه ولم أخذه بالقبول، أعنى قوله فيه لكونى على بصيرة فى أمره، ولا شك أن الشيخ رجع سهمه عليه فتأذى فى باطنه ولم أشعر بذلك؛ فإنى كنت فى بداية أمرى، فأنصرفت عنه إلى منزلى، ولما كنت فى الطريق لقينى شخص لا أعرفه، فسلم على ابتداء سلام محب مشفق وقال لى: يا محمد صديق الشيخ أبا العباس فيما ذكره عن فلان، وسمى لى الشخص الذى ذكره أبو العباس العرينى: فقلت له: نعم، وعلمت ما أراد. ورجعت من حينى إلى الشيخ لأعرفه بما جرى. فعندما دخلت عليه قال لى: يا أبا عبد الله أحتاج

معك إذا ذكرت لك مسألة يقف خاطرك عن قبولها إلى الخضر يتعرض إليك ويقول صدق فلانا فيما ذكره لك؟ ومن أين يتفق لك هذا في كل مسألة تسمعها مني فتتوقف؟ فقلت: إن باب التوبة مفتوح، فقال: وقبول التوبة واقع. فعلمت أن ذلك الرجل كان الخضر ولا شك إنى استفهمت الشيخ عنه أهو هو؟ فقال: نعم هو الخضر». (٢٠٧/١ - ٢٠٨) ويعود ابن عربى لذكر القصة نفسها فى سياق آخر ليبين أن الخضر حين طلب منه أن يصدق الشيخ أبا العباس فى رأيه لم يكن يعنى أكثر من التأكيد على ضرورة الإلتزام بحدود الأدب واللياقة فى الاختلاف مع الشيخ. يقول ابن عربى إن شيخه رجع إلى رأيه فى المسألة موضوع الخلاف بينهما «وقال لى: إنى كنت على غلط فيها. فقلت له: يا سيدى علمت الساعة أن الخضر ما أوصلنى إلا بالتسليم. ما عرفنى بأنك مصيب فى تلك المسألة. فإنه ما كان يعين على نزاعك فيها؛ فإنها لم تكن من الأحكام الشرعية التى يحرم السكوت عنها؛ وشكرت الله على ذلك وفرحت للشيخ للمرتبة التى ينزله الحق فيها» (٣/٢٧٥).

وقد تكررت واقعة اللقاء بالخضر فى أول الطريق أكثر من مرة. «ثم اتفق لى مرة أخرى أنى كنت بمرسى تونس بالحفرة فى مركب فى البحر فأخذنى وجع فى بطنى، وأهل المركب قد ناموا، فقممت إلى جانب السفينة وتطلعت إلى البحر فرأيت شخصا على بعد فى ضوء القمر، وكانت ليلة البدر، وهو يأتى على وجه الماء، حتى وصل ووقف معى ورفع قدمه الواحدة واعتمد على الأخرى، فرأيت باطنها وما أصابها بلل، ثم اعتمد عليه ورفع الأخرى فكانت كذلك. ثم تكلم معى بكلام كان عنده ثم سلم وانصرف يطلب المغارة مائلا نحو تل على شاطئ بيننا وبينه مسافة تزيد على ميلين؛ فقطع المسافة فى خطوتين أو ثلاث، فسمعت صوته وهو على ظهر المغارة يسبح الله تعالى.

وربما مشى إلى شيخنا جراح بن خميس الكتانى وكان من سادات القوم مرابطا بمرسى عبدون، وكنت جئت من عنده بالأمس من ليلتى تلك، فلما جئت المدينة لقيت رجلا صالحا فقال لى: كيف كانت ليلتك البارحة فى المركب مع الخضر؟ ما قال لك وما قلت له؟

فلما كان بعد ذلك التاريخ خرجت إلى السياحة بساحل البحر المحيط، ومعى رجل ينكر خرق العوائد للصالحين، فدخلت مسجدا خريا منقطعا لأصلى فيه أنا وصاحبى صلاة الظهر، فإذا جماعة من السائحين المنقطعين دخلوا علينا يريدون ما نريده من الصلاة فى ذلك المسجد، وفيهم ذلك الرجل الذى كلمنى على البحر الذى قيل لى إنه الخضر، وفيهم رجل كبير القدر أكبر منه منزلة. وكان بينى وبين ذلك الرجل اجتماع قبل ذلك ومودة، فقامت وسلمت عليه؛ فسلم على وفرح بى، وتقدم فصلى بنا. فلما فرغنا من الصلاة خرج الإمام وخرجت خلفه وهو يريد باب المسجد، وكان الباب فى الجانب الغربى يشرف على البحر المحيط بموضع يسمى بكة. فقامت أتحدث معه على باب المسجد، وإذا بذلك الرجل الذى قيل إنه الخضر قد أخذ حصيرا صغيرا كان فى محراب المسجد، فبسطه فى الهواء على قدر علو سبعة أذرع من الأرض، ووقف على الحصير فى الهواء ينتقل فقلت لصاحبى: أما تنظر إلى هذا وما فعل؟ فقال لى: سر إليه واسأله. فتركت صاحبى واقفا وجئت إليه، فلما فرغ من صلاته سلمت عليه وأنشدته لنفسى شعرا:

شغل المحب عن الهواء بسره فى حب من خلق الهواء وسخره
العارفون عقولهم معقولة عن كل كون يرتضيه مطهرة
فهمو لديه مكرمون وفى الورى أحوالهم مجهولة ومسترة

فقال لى: يا فلان، ما فعلت ما رأيت إلا فى حق هذا المنكر، وأشار إلى صاحبى الذى كان ينكر خرق العوائد، وهو قاعد فى صحن المسجد ينظر إليه؛ ليعلم أن الله يفعل ما يشاء مع من يشاء. فرددت وجهى إلى المنكر وقلت له: ما تقول؟ فقال: بعد العين ما يقال؟

ثم رجعت إلى صاحبى، وهو ينتظرنى بباب المسجد، فتحدثت معه ساعة، وقلت له: من هذا الرجل الذى صلى فى الهواء؟ وما ذكرت له ما اتفق لى معه قبل ذلك. فقال لى: هذا الخضر؛ فسكت.. فهذا ما جرى لنا مع هذا الودند نفعنا الله برؤيته، وله من العلم اللدن ومن الرحمة بالعالم ما يليق بمن هو على رتبته..

وقد كنت قد لبست خرقة الخضر... من يد صاحبنا تقى الدين عبدالرحمن بن على بن ميمون بن زبى البورزى، ولبسها هو من يد صدر الدين شيخ الشيوخ بالديار المصرية، وهو ابن حمويه وكان جده قد لبسها من الخضر.

ومن ذلك الوقت قلت بلباس الخرقة، وألبستها الناس؛ لما رأيت الحضر قد اعتبرها. وكنت قبل ذلك لا أقول بالخرقة المعروفة الآن؛ فإن الخرقة عندنا إنما هى عبارة عن الصحبة والأدب والتخلق، ولهذا لا يوجد لباسها متصلاً برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن يوجد صحبة وأدب وهو المعبر عنه بلباس التقوى. فجرت عادة أصحاب الأحوال، إذا ما رأوا واحداً من أصحابهم عنده نقص فى أمر ما وأرادوا أن يكملون له حاله اتحد به هذا الشيخ. فإذا اتحد به أخذ ذلك الثوب الذى عليه فى ذلك الحال ونزعه وأفرغه على الرجل الذى يريد تكميل حاله، فيسرى فيه ذلك الحال فيكمل له ذلك؛ فذلك هو اللباس المعروف عندنا والمنقول عن المحققين من شيوخنا». (٢٠٧/١ - ٢٩٨).

تمثل علاقة ابن عربى بالخضر - الشخصية التى تمثل فى الثقافة الإسلامية نموذج القطب الصوفى الموهوب نعمة العلم الإلهى بلا نبوة أو رسالة - فى تطورها من اللقاء العابر إلى استلام الخرقة - شارة إكمال المعرفة - نموذجاً لتطور رحلة ابن عربى العرفانية من بداية الطريق حتى الوصول إلى قمة الولاية. ولعله من الدال فى هذا السياق أن نلاحظ حرص الشيخ على بيان أن مصادر خبرته الروحية تجمع بين مصادر نبوية - عيسوية موسوية أولاً - ومصادر عرفانية على رأسها يقف الخضر، القطب والإمام. ولكن من هو «الخضر» هذا؟ يقول ابن عربى عنه: «واسمه يليا بن ملكان بن فالخ بن غابر بن شالخن بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وكان فى جيش فبعثه أمير الجيش يرتاد له ماء، وكانوا فقدوا الماء، فوقع بعين الحياة فشرب منه فعاش إلى الآن. وكان لا يعرف ما خص الله به من الحياة شارب ذلك الماء... ثم عاد إلى أصحابه فأخبرهم بالماء فسارع الناس إلى ذلك الموضع ليستقوا منه فأخذ الله بأبصارهم عنه فلم يقدروا عليه» (٣٧٥/٣).

ومن الجدير بالتويه أن ابن عربى يفسر هذا العطاء الذى وهبه الله للخضر دون غيره من رجال الجيش - شرب ماء عين الحياة - بأنه كان مكافأة له على

سعيه لطلب الماء للناس. ومن خلال هذا التفسير يربط بين العطاء الرياني للنبي موسى، فقد كان موسى - وفقاً للقصة القرآنية - يسعى في حاجة أهله حين توجه إلى النار «فقال لأهله امكثوا إنني آنست نارا لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى» (سورة طه ٢٠: ١٠) فكانت نتيجة هذا السعى في حاجة أهله كلام ربه له «فلما أتاهما نودي يا موسى». «هكذا يربط ابن عربي بين الخضر وموسى حين يقول إن سعى الخضر بحثاً عن الماء من أجل الجيش» أنتج له الخلود «مثل ما في قصة موسى عليه السلام لما مشى في حق أهله ليطلب لهم نارا يصطلون بها ويقضون بها الأمر الذي لا يقضى إلا بها في العادة. وما كان عنده عليه السلام خبر بما جاءه فأسفر له عاقبة ذلك الطلب عن كلام ربه بكلمة الله تعالى في عين حاجته، وهي النار في الصوة ولم يخطر له عليه السلام ذلك الأمر بخاطر» (٣٧٤/٣).

هذا يمتدح ابن عربي من تراث طويل عن شخصية «الخضر»، وهو تراث تختلط فيه عناصر شتى شفهائية يهودية ومسيحية. وقد أدمجت هذه العناصر في كتب التفسير الكلاسيكية في سياق تفسير القصة القرآنية التي وردت في سورة «الكهف» رقم ١٨، وهي القصة التي تمثل محور المصدر الإسلامي، ونحتاج من ثم لوقفه لتحلل فيها عناصر القصة كما وردت في القرآن الكريم.

٦ - الخضر في القرآن

والقصة القرآنية كما وردت في سورة «الكهف» تتحدث عن قصة «موسى» و«العبد الصالح» دون تعيين لاسمه. والقصة تبدأ بذكر شأن موسى مع «فتاه»، الذي حدده المفسرون بأنه «يوشع بن نون»، وكان يتبع موسى يخدمه ليأخذ عنه العلم. ويبدو أن «موسى» كان في رحلة هدفها الوصول إلى «مجمع البحرين»:

وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا. (٦٠)

فلما بلغ مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرياً.

فلما جاوزا قال لفتاه لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا.

قال أرأيت إذ آوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره فاتخذ سبيله فى البحر عجباً .

قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا (٦٤).

هذه الرحلة الغامضة إلى «مجمع البحرين»، ثم الوصول واكتشاف «انسراب الحوت» العجيب للبحر، الأمر الذى دفع بموسى وفتاه للرجوع عوداً على بدء بحثا عن الحوت فيما يبدو، هذه الرحلة الغامضة فتحت المجال أمام المفسرين للبحث عن الدلالات والمعانى التى تكتنز بها القصة. ومما زاد من درجة «الغموض»، الباعث على مزيد من محاولات الكشف من جانب المفسرين، ذلك الانتقال المباشر من قصة موسى وفتاه والحوت لقصة أخرى يكون فيها موسى هو التابع بعد أن كان «المتبوع». يظهر «العبد الصالح» المشغول فى رحلته الخاصة. ليصبح هو «المتبوع» الذى يتبعه موسى ليتعلم منه. وبعبارة أخرى يختفى المتعلم «فتى موسى» من المشهد، ليصبح موسى «فتى» تابعا للعبد الصالح:

فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً (٦٥).

قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً؟

قال إنك لن تستطيع معى صبراً . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً؟

قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً .

قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى على شئ حتى أحدث لك منه ذكراً (٧٠).

هذا الاتفاق الغريب يثير منذ البداية تشوق القارئ أو المستمع أولاً لتنوع المعرفة والعلم الذى آتاه الله «العبد الصالح»، والذى يحتاج موسى - النبى الرسول - لتعلمه. تتمثل الإثارة الثانية فى تقرير «العبد الصالح» لموسى أنه لن يحتمل مصاحبته ولن يصبر على مشقتها، مبيناً له - بطريقة تزيد من درجة تشوقه أكثر مما تزده فى المصاحبة والتعلم - أنه من الصعب على الإنسان أن يحتمل مشاهدة ما لا يعلم أسبابه وعمله وغاياته. وتتجح حيلة «التشوق» ويقبل «موسى» التحدى فيضع «العبد الصالح» شرطاً أكثر غرابة لا يتردد «موسى» فى

قبوله. كان الشرط هو «عدم السؤال» عن شيء من جانب «موسى»، و«الانتظار» حتى يتكرم «العبد الصالح» بكشف الأسباب والمبررات والبواغث المفسرة لأفعاله. اتفاق غريب وعجيب خاصة إذا كان الهدف والغاية من المصاحبة هو «العلم» و«المعرفة».

وكل القصص الملفزة يقوم «العبد الصالح» بارتكاب أفعال ثلاثة تبدو في عين موسى إفسادا: الفعل الأول هو قيام العبد الصالح بإحداث «خرق» في السفينة التي ركبها، والفعل الثانى هو قيامه بقتل صبي بلا سبب واضح أو مبرر معقول. وكانت الحادثة الثالثة قيام «العبد الصالح» ببناء «جدار» كان على وشك السقوط، دون أن يطلب أجرا على هذا العمل رغم حاجته هو وموسى الماسة لما يقيم أودهما في هذه القرية، التى أبى أهلها أن يقدموا لهم أى طعام على سبيل الضيافة. بعد كل فعل من الأفعال الثلاثة السابقة يعترض موسى؛ ردا على أول اعتراض يذكره العبد الصالح موسى بما سبق أن اتفقا عليه، فيعتذر موسى. بعد الاعتراض الثانى يشدد لوم العبد الصالح لموسى لعدم صبره، فيعتذر موسى واعداد أن تكون تلك هى المرة الأخيرة. فى المرة الثالثة يكون اعتراض موسى علامة على عجزه عن احتمال الصمت، ويكون إعلان «الفراق» من جانب العبد الصالح. لكن قبل الفراق لا بد من كشف السر خلف الأفعال الثلاثة، وبانكشاف السر تكون القصة قد وضعت الأساس للتمييز بين «العلم اللدنى»، أى العلم الإلهى الذى يلقيه الله مباشرة على قلب من يشاء من عباده، وبين «العلم النبوى الرسولى».

ولكن هل يمثل اعتراض «موسى» على العبد الصالح - الخضر - نقصا فى العلم النبوى وسموا للعلم «اللدنى»؟ أو بعبارة أخرى: هل يمكن القول إن معارف «الأولياء» أرقى وأعمق من معارف الأنبياء؟ القراءة السطحية لابن عربى يمكن أن توهم القارئ بمثل هذا الاستنتاج الخاطىء. والحقيقة أن الأنبياء والرسول من آدم إلى «محمد» التاريخى يمثل كل منهم حقيقتين متلازمتين: حقيقة كونه نبيا ورسولا مهمته إبلاغ رسالة الله للبشر بلغة مفهومة للبشر على تفاوت مستوياتهم فى الفهم، والحقيقة الثانية كونهم أولياء عارفين يتلقون معارف قلبية لا

يستطيعون كشفها مكتفين بأداء الرسالة التي كلفوا بأدائها للبشر. فى أحيان كثيرة يميز ابن عربى بين نمطين من النبوة «نبوة الاختصاص» وهى صفة من اختارهم الله من الرسل والأنبياء ليبلغوا رسائل خاصة، وهذه لها بداية ولها نهاية: بدأت بآدم وختمت بمحمد، النمط الثانى من النبوة هو نمط «النبوة العامة المكتسبة»، وهى «الولاية» أيضا، وهذه لها بداية فى «الكلمة المحمدية» ونهايتها عودة «عيسى» ونزوله إلى الأرض ليقوم العدل فى الأرض ويحكم بشرع محمد؛ أى أن عودة عيسى هنا هى عودة له لا بصفته التاريخية - نبيا ورسولا بعث فى زمن ما مضى إلى بنى إسرائيل - بل بصفته ختم «الولاية العامة»، تلك الولاية التى عبر عنها الحديث «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين»؛ حيث يبرز ابن عربى فى تأويله للحديث حقيقة أن التأكيد هنا على «النبوة» ولا ذكر للرسالة. فى شرح مستفيض يميز ابن عربى بين «اختلاف الشرائع» لاختلاف الأزمان، وبين وحدة «الدين» لوحدة الحقيقة الوجودية والمعرفية، وفى إطار هذا التمييز أيضا يضع «المعتقدات» المختلفة فى جانب، و«الحقيقة» - حقيقة الدين كما هو عند الله - فى جانب آخر.

هذا عن القصة القرآنية، أما التراث التفسيري، والتراث الصوفي منه بصفة خاصة، فيحتفى بالإضافة إلى ذلك بالمرويات والقصص والرؤى التى أحاطت بهذه الشخصية. «روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخضر رضى الله عنه وقد سئل عن سبب تسميته بخضر فقال صلى الله عليه وسلم: «ما قعد على أرض إلا اهتزت تحته خضراء». والخضر هو القطب مداوى الكلوم الذى يستدعى ابن عربى فى سياق حديثه عنه لقاءه بابن رشد؛ شرحا لقوله تمييزا بين معرفة ومعرفة: «كل مقام مقال، ولكل علم رجال، ولكل وارد حال.. فالحقيقة الحقيقة، والطريقة الطريقة؛ فقد اشتركت الجنة والدنيا فى اللبن والبناء وإن كانت الواحدة من طين وتبن والأخرى من عسجد ولجين (١: ١٧١).

«وهو من «الركبان/ الأفراد»، وهى طائفة خارجة عن حكم القطب.. وحدها ليس للقطب فيهم تصرف. فلو كان الخضر نبيا لما قال (ما لم تحط به خبرا) فالذى فعله لم يكن من مقام النبوة. قال له فى انفراد كل واحد منهما بمقامه

الذى هو عليه: يا موسى أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا. واقترقا وتميزا بالإنكار . فالإنكار ليس من شأن الأفراد فإن لهم الأولوية فى الأمور فهم ينكر عليهم ولا ينكرون... ولهم من الأعداد من الثلاثة إلى ما فوقها من الأفراد؛ فليس لهم ولا لغيرهم فيما دون الفرد الأول الذى هو الثلاثة قدم. فإن «الأحادية» وهو «الواحد» لذات الحق، و«الاثنان» للمرتبة: وهو توحيد الألوهة، و«الثلاثة» أول وجود الكون عن الله» (٢٢٣/١ - ٢٢٤).

٧. الاستمداد من فلك النبوة، ابن عربى خاتم الولاية المحمدية:

أشرنا من قبل إلى قول ابن عربى: «كان شيخنا أبو العباس العرينى عيسويا فى نهايته، وهى كانت بدايتنا - أعنى نهاية شيخنا فى هذا الطريق كانت عيسوية - ثم نقلنا إلى الفتح الموسوى الشمسى، ثم بعد ذلك نقلنا إلى هود عليه السلام، ثم بعد ذلك نقلنا إلى جميع النبيين عليهم السلام، ثم بعد ذلك نقلنا إلى محمد صلى الله عليه وسلم. هكذا كان أمرنا فى هذا الطريق» (٢٠٧/١ - ٢٠٨) إذا كانت نقطة بداية الفتى هى نقطة نهاية الشيخ فأين يمكن أن نتوقع نهاية الشيخ؟ كانت البداية عيسوية ثم كانت النقلة من «عيسى» إلى «موسى» ثم إلى «هود»، ثم تقلبت روح ابن عربى فى أرواح الأنبياء جميعا حتى استقرت فى روح «محمد» عليه السلام، خاتم الأنبياء. وهكذا صار ابن عربى خاتم الأولياء. ولكن يظل هناك حبل ينظم البداية بالنهاية، فعيسى هو خاتم الولاية «العامة» فى حين أن ابن عربى هو خاتم الولاية المحمدية.

متى على وجه التحديد اكتملت لابن عربى ملامح تجربته؟ ومتى صار واعيا بمكانته التى تقع فى أعلى مراتب الكمال؟ فى سنة ١١٩٦/٥٩٣، نجد ابن عربى فى فاس حيث يجتمع بقطب الزمان. (٨١/٤ - ٨٢) وفى سنة ١١٩٨/٥٩٥ يحضر فى شهر مارس جنازة ابن رشد فى قرطبة، أو بالأحرى يشهد نقل رفاته من مراكش إلى قرطبة. وفى نفس السنة يرى فى «غرناطة» رؤيا يكتفى بسردها، وهى رؤيا يرويها موثقة بذكر التاريخ فى الفتوحات فى سياق تأويله لقول النبى:

«مثلى ومثل الأنبياء قبلى مثل من بنى حائطا من اللبن إلا لبنة واحدة، فأنا هذه اللبنة وأنا خاتم الأنبياء والرسول فلا نبى بعدى ولا رسول. فى هذه الرؤيا رأى ابن عربى كأن بناء الكعبة مكون من لبن: لبنة من ذهب تليها لبنة أخرى من فضة، والبناء مكتمل إلا لبنتين فى الجدار الذى على طرفه «الحجر الأسود»؛ يرى ابن عربى نفسه فى الرؤيا يسد الفراغ الناتج عن اللبنتين بشخصه، رغم إدراكه فى نفس الوقت أنه واقف يشاهد ذاته فى الحائط. (٢٠٩/١) قلنا أن ابن عربى حين يتحدث عن هذه الرؤيا يكتفى بسردها دون شرح أو تأويل، لكن لأن الرؤيا ذاتها تتكرر بعد ذلك بأربع سنوات فى مكة يبدأ الشيخ فى استقراء دلالتها بوصفها بشرى للمكانة التى يطمح إليها، وذلك على الوجه التالى:

«ولقد رأيت رؤيا لنفسى فى هذا النوع (حيث يدرك الرائي أنه فى رؤيا ويميز بين ذاته خرج الرؤيا وبين صورته فى الرؤيا) وأخذتها بشرى من الله؛ فإنها مطابقة لحديث نبوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ضرب مثله فى الأنبياء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

مثلى فى الأنبياء كمثلى رجل بنى حائطا فأكمله إلا لبنة واحدة.

فكنت أنا تلك اللبنة فلا رسول ولا نبى بعدى

فشبه النبوة بالحائط والأنبياء باللبن التى قام بها الحائط وهو تشبيه فى غاية الحسن؛ فإن مسمى الحائط هنا المشار إليه لم يصح ظهوره إلا باللبن، فكان صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين. فكنت بمكة سنة تسع وتسعين وخمسائة فرأيت فيما يرى النائم الكعبة مبنية بلبن فضة وذهب: لبنة فضة ولبنة ذهب، وقد كملت بالبناء وما بقى فيه شئ. وأنا أنظر إليها وإلى حسناتها فالتفت إلى الوجه الذى بين الركن اليمانى والشامى، وهو إلى الركن الشامى أقرب، فوجدت موضع لبنتين: لبنة فضة ولبنة ذهب، ينقص من الحائط إلى الصفيين: فى الصف الأعلى ينقص لبنة ذهب، وفى الصف الذى يليه ينقص لبنة فضة. فرأيت نفسى قد انطبعت فى موضع تلك اللبنتين؛ فكنت أنا عين تينك اللبنتين، وكمل الحائط، ولم يبق فى الكعبة شئ ينقص. وأنا واقف أنظر، وأنا

أعلم أنى واقف وأعلم أنى عين تلك اللبنتين لا أشك فى ذلك، وأنهما عين ذاتى. واستيقظت فحمدت الله تعالى وشكرته، وقلت متأولاً:

إنى فى الأتباع من صنفى كرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأنبياء وعسى أن أكون من ختم الولاية بى، وما ذلك على الله بعزيز

وذكرت حديث النبى صلى الله عليه وسلم فى ضربه المثل بالحائط، وأنه كان تلك اللبنة، فقصصت رؤياى على بعض علماء هذا الشأن بمكة من أهل توزر فأخبرنى فى تأويلها بما وقع لى. وما سميت له الرأى من هو، فالله أسأل أن يتمها على بكرمه. (٣٥٥/١).

أما لماذا رأى ابن عربى بناء الكعبة فى روياء مكونا من لبنتين، واحدة من فضة وأخرى من ذهب، ولماذا جعل النقص فى حائط الكعبة الذى على طرفه «الحجر الأسود» مع أن الحديث النبوى يضرب المثل بحائط - أى حائط - فهذا ما يحاول أن يشرحه فى كتاب «فصوص الحكم» وقد اكتملت له التجربة، حيث كتب سنة ٦٢٧/ ١٢٣٠، يقول: «ولما مثل النبى صلى الله عليه وسلم النبوة بالحائط من اللبن وقد كمل سوى موضع لبنة، فكان صلى الله عليه وسلم تلك اللبنة. غير أنه صلى الله عليه وسلم لا يراها إلا كما قال «لبنة» واحدة. أما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤيا، فيرى ما مثله به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويرى فى الحائط موضع لبنتين، واللبن من ذهب وفضة. فيرى اللبنتين اللتين تنقص الحائط عنهما وتكمل بهما، لبنة ذهب ولبنة فضة. فلا بد أن يرى نفسه تتطبع فى موضع تينك اللبنتين، فيكون خاتم الأولياء تينك اللبنتين. فيكمل الحائط. والسبب الموجب لكونه رآها لبنتين أنه تابع لشرع خاتم الرسل فى الظاهر، وهو موضع اللبنة الفضة، وهو ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام، كما هو آخذ عن الله فى السر ما هو بالصورة الظاهرة متبع فيه؛ لأنه يرى الأمر على ما هو عليه، فلا بد أن يراه هكذا - وهو موضع اللبنة الذهبية فى الباطن - فإنه آخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به إلى الرسول. فإن فهمت ما أشرت به فقد حصل لك العلم النافع بكل شيء^(٨).

(٨) تحقيق: أبو العلا عفيفى، القاهرة ١٣٦٥ / ١٩٤٦، ص: ٦٣.

اللبنتان هنا إشارة إلى المكانة المزدوجة لخاتم الولاية المحمدية - الذى هو ابن عربى نفسه - فهو من حيث الظاهر «تابع» لخاتم الرسل والأنبياء، وتلك دلالة اللبنة الفضة أما من حيث الباطن فالولى الخاتم يستمد ولايته من نفس المصدر الأصلى الذى يستمد منه النبى نبوته، وتلك دلالة اللبنة الذهب. ويكاد ابن عربى أحيانا يجعل من «الولاية» أفقا أوسع من أفق «النبوة» وذلك استنادا إلى أن «الولاية» لها مستندا فى الأسماء الإلهية. هو الاسم «الولى»، وليس ثم اسم إلهى تستند إليه «النبوة». ومن هنا يحرص على ربط أفق النبوة بأفق الولاية، وليس العكس؛ فكل الأنبياء وأولياء، بمعنى أن كل نبى ورسول له ظاهر وباطن: فظاهرة النبوة والرسالة ومناطها التبليغ ومخاطبة الناس على قدر عقولهم، أما الباطن فهو العلم بالأمر على ما هو عليه. من هنا نفهم التفرقة المعروفة فى الرسل والأنبياء من حيث هم كلمات إلهية، ومن حيث هم شخصيات تاريخية. محمد التاريخى الذى ولد بمكة هو الرسول النبى الخاتم؛ أى به أغلق باب النبوات والشرائع السماوية المنزلة، أما «الحقيقة المحمدية» فهي المشكاة التى لا ينقطع نورها أبدا، منها يستمد الرسل والأنبياء بدءاً من آدم حتى عيسى نورهم ظاهرا وباطنا. ومن باطنها يستمد «الأولياء».

«إن الرسالة والنبوة - أعنى نبوة التشريع ورسالته - تنقطعان، والولاية لا تنقطع أبدا. فالمرسلون من كونهم أولياء، لا يرونه ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فكيف من دونهم من الأولياء؟ وإن كان خاتم الأولياء تابعا فى الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع، فذلك لا يقدر فى مقامه ولا يناقض ما ذهبنا إليه، فإنه من وجه يكون أنزل كما أنه من وجه يكون أعلى.... فكل نبى من لدن آدم إلى آخر نبى ما منهم أحد يأخذ إلا مشكاة خاتم النبیین، وإن تأخر وجود طينته، فإنه يحقيقته موجود، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: كنت نبيا وآدم بين الماء والطين

وغيره من الأنبياء ما كان نبيا إلا حين بعث. وكذلك خاتم الأولياء كان وليا وآدم بين الماء والطين، وغيره ما كان وليا إلا بعد تحصيله شرائط الولاية من الأخلاق الإلهية فى الاتصاف بها من كون الله تسمى «بالولوى الحميد».

فخاتم الرسل من حيث ولايته، نسبته مع الخاتم للولاية نسبة الأنبياء والرسل معه، فإنه الولي الرسول النبي. وخاتم الأولياء الولي الوارث الآخذ عن الأصل المشاهد للمراتب. وهو حسنة من حسنات خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم، مقدم الجماعة وسيد ولد آدم في فتح باب الشفاعة. فعين حالا خاصا ما عم. وفي هذه الحال الخاص تقدم على الأسماء الإلهية، فإن «الرحمن» ما شفع عند «المنتقم» في أهل البلاء إلا بعد شفاعة الشافعين. ففاز محمد صلى الله عليه وسلم بالسيادة في هذا المقام الخاص. فمن فهم المراتب والمقامات لم يعسر عليه قبول مثل هذا الكلام»^(٩).

من المهم هنا أن نشير إلى أن مسألة «الولاية» وما يحيط بها من دلالات في التراث الصوفي تستمد بعض جذورها من التراث الشيعي، وهو تراث تعتمد مشروعيته السياسية والفكرية على «ميراث» العلم النبوي بانتقاله في أبناء «فاطمة» الذين يمثلون سلسلة «الأئمة». لكن إذا كان التراث الشيعي قد حصر ميراث العلم النبوي في الأئمة من بيت النبوة فقد فتح التراث الصوفي أفق ميراث العلم النبوي لكل إنسان. وفي حالة ابن عربي نرى أنه شديد الاعتزاز بمسألة أصله العربي وانتمائه إلى جذور يمنية تربط بينه وبين «الأنصار» من أهل يثرب. وسنرى في فصل لاحق كيف أن جذور هذا الانتماء تتبدى في رؤاه وتمنحها بعدا سياسيا واضحا في تقييم الماضي. ومن ناحية أخرى لا يفتأ ابن عربي - في مفتح «الفتوحات المكية» بصفة خاصة - يلح على أن كون اسمه «محمد» بقرينه من الرسول صلى الله عليه وسلم. ومعنى ذلك أن ثمة صلتان تربطانه بالنبي الكريم: كونه عربيا طائيا، وكونه سميا له. وسنرى كيف أنه يميز بين «المهدي المنتظر» من نسب النبي وبين «خاتم الولاية» المحمدية في إشارة واضحة للفارق بينه وبين مفهوم «المهدي» في التراث الشيعي.

لكن البعد الأكثر عمقا لمسألة الولاية يتبدى في الحرص على عدم إغلاق التواصل بين السماء والأرض. بالنسبة للفقهاء ورجال اللاهوت في كل الأديان

(٩) فصول الحكم، ص: ٦٢ - ٦٤.

تقريباً يمثل «الوحي» لحظة اتصال مكتملة بين «النبي» والله . ولا شك أن كون محمد «خاتم الأنبياء والمرسلين» صارت تعنى تدريجياً أن الإنسان قد منح الاستقلال بوصفه صار قادراً على الاعتماد على نفسه . لقد قالت السماء كل ما عندها، وعلى الإنسان وحده أن يقرر مصيره بالفور باتباع أوامر السماء، أو بالهلاك بمخالفتها . ولكن تحديد المعنى - معنى ما تأمر به السماء وما تنهى عنه - تحول إلى ساحة صراع بين الفقهاء بعضهم البعض من جانب، وبين رجال اللاهوت بعضهم البعض من جانب آخر . فى التجارب الروحية محاولة دائمة للاتصال بالسماء، ولا بد من ثم من الحرص على ترك الباب مفتوحاً . وهذا على وجه التحديد ما تضمنه نظرية «الولاية» . يقول ابن عربى كاشفاً ذلك بوضوح .

«ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الرسالة والنبوة قد انقضت فلا رسول بعدى ولا نبي» الحديث بكماله . فهذا الحديث من أشد ما جرعت الأولياء مرارته؛ فإنه قاطع للوصلة بين الإنسان وبين عبوديته . وإذا انقطعت الوصلة بين الإنسان وبين عبوديته من أكمل الوجوه انقطعت الوصلة بين الإنسان وبين الله؛ فإن العبد على قدر ما يخرج من عبوديته ينقص من تقربه من سيده لأنه يزاحمه فى أسمائه . وأقل المزاحمة الإسمية .

فأبقى علينا اسم «الولى» وهو من أسمائه سبحانه . وكان هذا الإسم قد نزعه من رسوله وخلعه عنه وسماه بالعبد الرسول . ولا يليق بالله أن يسمى بالرسول؛ فهذا الاسم من خصائص العبودية التى لا تصح أن تكون للرب سبحانه . وسبب إطلاق هذا الإسم وجود الرسالة، والرسالة قد انقطعت فارتفع حكم هذا الإسم بارتفاعها من حيث نسبتها إلى الله .

ولما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن فى أمته من تجرع مثل هذا الكأس، وعلم ما يطرأ عليهم فى نفوسهم من الألم لذلك رحمهم، فجعل لهم نصيباً ليكونوا بذلك عبيداً، فقال للصحابه: «ليبلغ الشاهد الغائب» . كما أمره الله عز وجل بالتبليغ . لينطلق عليهم أسماء الرسل التى هى مخصوصة بالعبيد . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

رحم الله أمراً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها .

يعنى حرفا حرفا . وهذا لا يكون إلا لمن بلغ الوحي من قرآن وسنة بلفظه الذى جاء به . وهذا لا يكون إلا لنقله الوحي المقربين والمحدثين . ليس للفقهاء ولا لمن نقل الحديث على المعنى - كما يراه سفيان الثوري وغيره - نصيب ولا حظ فيه (فى الإسم «الرسول»)؛ فإن الناقل على المعنى إنما نقل إلينا فهمه فى ذلك الحديث النبوى . ومن نقل إلينا فهمه فإنما هو رسول الله نفسه... فالصحابة إذا نقلوا الوحي على لفظه فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتابعون رسل الصحابة، وهكذا الأمر جيلا بعد جيل إلى يوم القيامة.. وإنما جوزنا حذف الوسائط لأن رسول الله كان يخبره جبريل أو ملك من الملائكة ولا نقول فيه «رسول جبريل» (٢٥٦/١) ابن عربى هنا لا يؤسس فقط مشروعية «الولاية» على الإسم الإلهى «الولى»، بل يضيف إلى ذلك أن كل من ينقل الوحي عن الرسول ويبلغه للناس فهو أيضا «رسول»، أى أن «الرسالة لم تنقطع . وابن عربى يقصد بالوحي هنا القرآن فقط، لأنه الذى يمكن نقله حرفا حرفا كما هو على عكس الأحاديث النبوية التى تروى عادة بالمعنى . وفى رأى ابن عربى أن الرواية بالمعنى ليست إلا تفسيراً، فمن روى بالمعنى . كرجال الحديث والفقهاء . فليس مبلغا ولا رسولا . الولاية إذن هى الأفق المفتوح أبدا لاستنادها لإسم إلهى، ولاستمدادها من نفس المصدر الذى تستمد منه النبوة . وابن عربى ينتمى لأفق الولاية «وراثية» و«أكتسابا» فى الوقت نفسه، وإذا كان بدأ «عيسويا» فإن النهاية . ختم الولاية المحمدية . لا تتفصل عن البداية؛ إذ تظل مسألة «ختم الولاية» تربط ابن عربى بعيسى: ابن عربى؛ فهو خاتم الولاية المحمدية وعيسى هو خاتم الولاية العامة . هذا ما يكرره الشيخ كتبه كلها، لا فى «الفتوحات» فقط، أنه هو لا غيره «خاتم الولاية المحمدية»، وهذا وجه الشبه والاشتراك فى الحكم بينه وبين «عيسى» الذى يمثل «خاتم الولاية العامة» .

خاتمة:

نعلم من العرض السابق أن تحول الفتى «ابن عربى» من «الجاهلية» إلى طريق «الولاية» بدأ فى فترة مبكرة من حياته بلا شيخ ولا معلم . ونعلم أن علاقته

بالشيوخ الذين يذكر أسمائهم بحرص واضح وإجلال مشهود كانت علاقة «ندية» و«تكافؤ» ، والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن: لماذا كان عليه أن يرحل عن «الأندلس» و«المغرب» كله إلى «المشرق» بلا عودة؟ لا شك أن هناك أسباب كثيرة: فهل كان رحيل الشيخ من «الأندلس» و«المغرب» بصفة عامة بحثاً فى المشرق عن تقدير لم يجده؟ أم كان بحثاً عن الحياة فى عالم أكثر استقراراً من عالم «الأندلس» و«المغرب»؟ هل ظن الشيخ أن «المشرق» هو موطن الإسلام، وأن وجوده فى الأندلس مهدد بالزوال؟ هل كان توقع هذا الزوال مؤكداً؟ أم كان مناخ الاحتقان الفكرى الناتج عن سيطرة الفقهاء وتحالفهم مع الحكام ضد المفكرين والمتصوفة هو الحافز الأصلى للرحيل؟ تلك كلها أسئلة مشروعة. ولعلنا نجد بعض الإجابة فى تحليلنا لهذا المناخ فى فصلنا القادم، الفصل الثانى عن «قيود المكان وضغوط الزمان».

الفصل الثانى

قيود المكان وضغوط الزمان

لكى نتفهم رحيل ابن عربى من الأندلس والمغرب العربى كله بلا عودة لا بد من النظر نظرا عميقا فى السياق التاريخى السياسى للقرنين السادس والسابع/الحادى عشر والثانى عشر من جهة، وللسياق الأندلسى بصفة خاصة من جهة أخرى. وبديهى أننا نتطلق منهجيا فى دراستنا هذه من حقيقة أن خطاب «ابن عربى» - شأنه شأن كل خطاب إنسانى - لا يقف خارج التاريخ ولا الجغرافيا؛ أعنى خارج الزمان والمكان. صحيح أن هناك من الباحثين من يميل إلى افتراض أن خطاب الشيخ الأكبر لا ينتمى إلى عصره ولا إلى عقيدته. ويصل الحماس بهنرى كوربان إلى أن يقول: «إن ابن عربى واحد من هؤلاء الأفراد القلائل ذوى النزعة الروحية الذين لا ينتمون إلى عصرهم ولا إلى عقائد عصرهم، بل هم معايير لعصرهم وعقائده». ويرى أن «الوسيلة الوحيدة لفهم ابن عربى هى أن يصبح الباحث واحدا من مريديه ولو لفترة من الزمن، وأن يأخذ عنه ويتلقى على يديه بنفس الطريقة التى أخذ بها هو نفسه عن مشايخ التصوف فى عصره»⁽¹⁾ ويعود مرة أخرى ليؤكد أن دارس ابن عربى لا يصل فى الحقيقة إلى معرفة

(1) Henry Corbin, *Creative Imagination in the Sufism of Ibn 'Arabi*, trans. By Ralph Manheim, Princeton University Press, 1969, p. 5.

"موضوعية" (٢) بفكر ابن عربي، بل إن أي معرفة بابن عربي يصل إليها الباحث ليست إلا الصورة التي يتجلى بها ابن عربي على قدر الباحث نفسه وطبقا لإمكانياته الروحية. وإذا كنا نتفق مع هنري كوربان في النقطتين الأخيرتين فإننا نختلف معه اختلافا جذريا في أطروحاته الأساسية حول عدم انتماء خطاب ابن عربي إلى عصره أو إلى عقيدته. وإذا كان هذا النهج الذي يطرحه هنري كوربان يتسق مع إطاره الفلسفي الفينومولوجي Phenomenology بنفس القدر الذي يتشابه به مع منظور ابن عربي للحقيقة التي تتجلى لكل عارف بقدر معرفته وعلى صورته، فإن موقف الباحث هنا -كاتب هذا الكتاب - ينطلق من أرض مغايرة.

من الضروري لدارس ابن عربي، كما هو من الضروري في دراسة أي موضوع أو شخص، أن يغوص الباحث في موضوعه مستوعبا. وفي حالة دراسة ابن عربي من الحيوى أن يحسن الباحث الإنصات للغة الرجل وتأمل مستوياتها بهدف الدخول إلى عالمه والتعرف على تضاريس تجربته الروحية. لكن الباحث مطالب في النهاية أن يخرج من عباءة الشيخ، وأن يتخذ مسافة تباعده عن «الفرق» في محيط فكره؛ وذلك لكي يتمكن من التحليل والتفسير والتقويم. هذا فارق هام بين «المريد» و«الباحث» نريد أن نؤكد. وفي النهاية لا يستطيع الباحث -أي باحث- أن يزعم قدرته على إنجاز تحليل موضوعي بالمعنى الوضعي؛ فللباحث أفقه المعرفي والقيمي الذي يدخل به في علاقة جدلية مع موضوعه. من خلال هذه العلاقة الجدلية تتجادل الذات - ذات الباحث - مع موضوعها في علاقة خلاقة، يحمي الوعي بطبيعتها الباحث من الانخراط في إصدار أحكام مجانية بالإدانة أو بالمبالغة في التقريظ والمدح. هكذا تعلمنا فلسفة التأويل المعاصرة hermeneutics.

إن التجارب الروحية العظمى في التاريخ - وتجربة «ابن عربي» واحدة من هذه التجارب المتميزة بلا شك - تجارب ذات طابع كوني لاشك في ذلك. ولكن ليس معنى ذلك أنها منقطعة الصلة بسياقاتها التاريخية والثقافية دينيا ولغويا. إن البعد الكوني للتجربة الروحية يتأسس على قواعد تاريخية (مكانية زمانية) لا

(٢) السابق، ص ٧٥ - ٧٦.

يصح إهمالها أو التقليل من شأنها من جانب الباحث، وإلا كانت النتيجة اعتبار التجارب الروحية في كل الأديان وكل الثقافات، بمختلف تعبيراتها اللغوية والرمزية، بمثابة تجربة واحدة، أو بمثابة نُسخ مكررة لتجربة «أصلية» نموذجية، وهذا مفهوم يتعارض جذريا مع طبيعة التجربة الروحية وخصائصها. إن من أهم خصائص التجربة الروحية أنها تجربة ذاتية رغم عناصر المشاركة التي لا يمكن أيضا إهمالها والتقليل من شأنها .

نحن إزاء تجارب تمتلك من الخصوصية والذاتية بقدر ما تمتلك من عناصر مشتركة تجمع بين «أفلاطون» مثلا و«ابن عربي» دون أن توحد بينهما. وإذا كانت للتجربة الروحية خصوصيتها الثقافية والدينية - واللغوية والرمزية - فإن التجارب أيضا تتعدد داخل كل ثقافة وفي إطار كل دين. كتابات الشيخ الأكبر تشهد بهذا التمايز والاختلاف في التجارب الروحية داخل سياق الثقافة الإسلامية، بنفس القدر الذي تؤكد به عناصر المشاركة والتشابه. والقارئ لرؤى ابن عربي وحكاياته لتجاربه الروحية يرى كيف يطرح التشابهات والاختلافات بين تجربته وتجارب الآخرين من صوفية الإسلام الذين سبقوه منهم والذين عاصروه على السواء. إن الطرق إلى الحقيقة تتعدد بتعدد السالكين، هكذا يعلمنا الصوفية عامة وهكذا يؤكد «ابن عربي» بصفة خاصة. إن الحقيقة في ذاتها واحدة لا تتعدد، ولكنها تتشكل وتتلون مثل الماء الذي يأخذ شكل الإناء الذي هو فيه ويتلون بلونه، هذا رغم أن الماء في حقيقته لا شكل له ولا لون. ابن عربي يكثر من تكرار هذا النموذج - الماء والإناء - نقلا عن أسلافه من العارفين .

لا نريد أن نطيل في هذه النقطة؛ إذ يكفي أن نستشهد ببيتين شعريين لشاعر الخمر «أبو نواس» اتخذ منهما كثير من الصوفية، ومنهم ابن عربي، شاهدا دالا على مبدأ عرفاني، هو استحالة التمييز بين «الظاهر» و«الباطن» في بنية الحقيقة من جهة، أو بين «الذات» و«الموضوع» من جهة أخرى. يقول «أبو نواس» في الخمر والكأس:

رق الزجاج وراقت الخمر	فتشاكلا فتشابه الأمر
فكأنما خمر ولا قدح	وكانما قدح ولا خمر

هكذا تكلم ابن عربي - ٦٥

صفاء الخمر يمثل الحقيقة في صفائها حيث لا شكل ولا لون، ورقة زجاج «الكأس» يمثل قلب العارف الذي حلت فيه الحقيقة في صفائها فقال «ما في الجبة إلا الله» كما قال «الحلاج»، أو قال «سبحاني ما أعظم شاني» كما قال «أبويزيد البسطامي». تتعدد الطرق إذن بتعدد السالكين، وهذا تأكيد لخصوصية التجربة. وليست مهمة الباحث أن يقتصر تحليله على رصد العناصر المشتركة العامة في التجربة الروحية، بل عليه أن يغوص في خصائص التجربة الخاصة بابن عربي، الذي ينتمي دينيا إلى أفق «الإسلام»، وثقافيا إلى «الحضارة العربية»، وتاريخيا للقرنين السادس والسابع الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين). وقد عرفنا في الفصل السابق أنه عاش شطرا من حياته في الأندلس، عابرا البحر إلى المغرب ثم عائدا إلى الأندلس عدة مرات، ثم غادر الأندلس أخيرا إلى المشرق العربي حوالي سنة ٥٩٨/١٢٠٢ دون أن يعود إليها مرة أخرى.

يرى بعض الباحثين أن سبب مغادرته للأندلس وللمغرب العربي بصفة عامة الحرب الضروس التي كانت تدور بين الملوك الكاثوليك في محاولتهم لاسترداد الأندلس وبين الأمراء والحكام المسلمين. ولم تكن هذه الحروب، من جهة أخرى، تخلو من صراعات بين الحكام المسلمين أنفسهم. ابن عربي يسجل في الفتوحات مشاهدته لعبور جيش «الموحدين» من فاس إلى الأندلس وانتصاره في معركة «الأراك» Alarcos سنة ٥٩١/١١٩٥، (الفتوحات ٤/٢٤٢). لكن هذا الانتصار الذي حققه الموحدون، والذي كان ابن عربي شاهدا عليه، تلتته هزيمة مُنكرة حاقت بالموحدين في معركة «العقاب» Las Navas de Tolos سنة ٦٠٩/١٢١٢ بعد رحيل ابن عربي نهائيا عن الأندلس بحوالي ١٧ سنة.

لم يكن الأمر في مشرق العالم الإسلامي يختلف كثيرا في الحقيقة عن الوضع في مغربه. كانت الحروب الصليبية في أوجها بين المسلمين والصليبيين الذين استطاعوا الاستيلاء على «بيت المقدس» حتى حرره من أيديهم الناصر صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣/١١٨٧ كما حرص ابن عربي على تسجيل ذلك أيضا في الفتوحات (٤/٢٤٢). لكن بداية الحملة الصليبية الرابعة بدأت حول

القسطنطينية حوالى سنة (١٢٠٤/٦٠٠) ، وتوالى الحملات فاستولى الصليبيون على «دمياط» فى مصر فى حملتهم الخامسة سنة ١٢١٩/٦١٥ ، وفى سنة استعاد ١٢٢٩/٦٢٤ استعاد الفرنجة «القدس» بطريق الخيانة، حيث سلمها السلطان «كامل» لفرديك الثانى. كان هذا حال المشرق الإسلامى، حيث كان ابن عربى دائم التجول والترحال بين مكة وبيت المقدس -بعد تحريره على يد صلاح الدين- وبغداد وملطية وتركيا ومصر وسوريا أخيرا حيث قضى السنوات الأخيرة من حياته.

هذا هو السياق الزمانى والمكانى الذى لا يمكن تجاهله أو إغفال شأنه ونحن بصدد تقديم تجربة ابن عربى الروحية. ونحن نهتم بهذا السياق لا من خلال المراجع التاريخية بل نهتم بما سجله ابن عربى نفسه فى كتاباته عن هذا السياق، بأسلوب مباشر أحيانا وبأسلوب غير مباشر فى أغلب الأحوال. يتجلى الأسلوب المباشر فى ذكر بعض الوقائع التاريخية بطريقة دقيقة، مثال ذكره لمشاهدته لعبور «جيش الموحدين» للأندلس من فاس. صحيح أن السياق الذى يرد فيه ذكر الواقعة هو سياق الحديث عن قيمة الحروف العديدة فيما يُعرف باسم «حساب الجُمَّل»، خاصة فى الحروف المقطعة المنفصلة التى تأتى فى مفتتح بعض سور القرآن الكريم، لكن حرص ابن عربى على ذكر تاريخ واقعة شاهدها بنفسه يعد أسلوبا مباشرا. أما الأسلوب غير المباشر فيبدو فى سياق مناقشة ابن عربى مثلا للعلاقة بين «الإيمان» و«النصر» الذى وعد الله سبحانه به المؤمنين. هذا بالإضافة إلى سياقات عديدة يحرص فيها ابن عربى على ذكر علاقته ببعض حكام عصره، وهى سياقات بدورها مباشرة أحيانا وغير مباشرة فى أحيان كثيرة. من المؤكد أن تحليل بعض تلك النصوص التى تحيل إلى السياق الزمانى والمكانى لعصر ابن عربى ولحياته يساعدنا على كشف جوانب فى تجربته الروحية لا تتكشف بمجرد تحليل ما يطرحه من أفكار وما يصوغه من تصورات ومعتقدات.

١ - الق الروح وعتمة التاريخ:

لعل علاقة ابن عريى ببعض حكام عصره ومكاتباته لهم يلقي ضوءا كافيا على مدى انغماس الشيخ فى مشكلات زمانه. فقد زار «قونية» مثلا مع صديقه «مجد الدين إسحاق» الذى كان قد التقى به وتعرّف عليه فى مكة - وهو والد «صدر الدين القونوى»، الذى أصبح فيما بعد أفضل تلاميذ ابن عريى وأهم شراحه - بدعوة من حاكمها السلجوقى «غياث الدين كيخسرو الأول» (١٢٠٥/٦٠١ - ١٢١١/٦٠٨) وقد احتفى كيخسور بضيافته احتفاء عظيمًا، ويروى أنه أهدي ابن عريى دارا تساوى ١٠٠ ألف درهم، ولكن ابن عريى وهبها لسائل مر به وطلب منه صدقة فقال له ابن عريى - فيما يحكيه هو بنفسه - «ما لى غير هذه الدار فخذها لك.» (١٦٤/٢) هذا نموذج لعلاقة ابن عريى بحكام عصره الذين كان يحظى باحترامهم وحبهم، من أمثال «الملك العادل الأول: سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب» (ت: ١٢١٨/٦١٥ شقيق صلاح الدين الأيوبي، وابنه الملك الأشرف بدمشق (ت: ١٢٣٨/٦٣٥) والملك الظاهر غازى (ت ١٢١٦/٦١٣) ثانى أبناء صلاح الدين حاكم حلب. يقول ابن عريى عن علاقته بهذا الأخير:

«كانت لى كلمة مسموعة عند بعض الملوك، وهو الملك الظاهر صاحب مدينة حلب رحمه الله الفازى ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب؛ فرفعت إليه من حوائج الناس فى مجلس واحد مائة وثمان عشرة حاجة فقضاها كلها. وكان منها أنى كلمته فى رجل أظهر سرّه وقدح فى ملكه، وكان من جملة بطانته، وعزم (الملك) على قتله وأوصى به نائبه فى القلعة ... أن يخفى أمره حتى لا يصل إلى حديثه. فوصلنى حديثه، فلما كلمته فى شأنه أطرق وقال: حتى أعرف المولى ذنب هذا المذكور، وأنه من الذنوب التى لا تتجاوز الملوك عن مثله. فقلت: يا هذا تخيّل أن لك همّة الملوك، وأنتك سلطان. والله ما أعلم فى العالم ذنبا يقاوم عفوى وأنا واحد من رعيتك، وكيف يقاوم ذنب رجل عفوك فى غير حد من حدود الله؟ إنك لدنىّ الهمة. فخجل وسرّحه وعفا عنه. وقال لى: جزاك الله خيرا من جليس، مثلك من يجالس الملوك. وبعد هذا المجلس ما رفعتُ إليه حاجة إلا سارع فى قضائها من فوره من غير توقّف، كانت ما كانت» (٥٩٥/٤ - ٥٩٦).

قضاء حاجات الناس عند الملوك والأمراء والخلفاء كانت دائما واحدة من المهام التي أحس العلماء والعارفون بأنها مسئوليتهم، فقد كانوا يمثلون صوت العامة من المظلومين وذوى الحاجات فى قصور الحكام ودواوين الأمراء. بعض العلماء بالطبع كانت مصالحهم الخاصة مع السلاطين والحكام أهم عندهم من توفير العدل للمحتاجين؛ فانخرطوا فى تملق الحكام وتبرير كل أفعالهم لهم. ابن عربى نموذج للعارف من الصنف الأول. وفى القصة التى يحكيها أعلاه فقد تدخل لإنقاذ رجل من بطانة الملك، كان قد عزم على قتله وأخفى أمره لأنه نقده علنا. حين علم شيخنا بالأمر كان تدخله لإنقاذ الرجل مبنيا على أساس أنه لم يخالف حدا من حدود الله الشرعية يستوجب القتل. واللغة التى يستخدمها ابن عربى فى مخاطبة الملك ليست لغة المستعطف الذليل، بل هى لغة الناصح القوى المستند إلى سلطته المعرفية. أليست المعرفة سلطة؟.

ورسالته إلى كيكاووس -صاحب بلاد الروم وبلاد يونان حسب تعريف الشيخ- ردا على رسالة كان قد تلقاها من هذا الحاكم من «أنطاكية» -حيث كان ابن عربى فى «ملطية» - سنة ١٢٤٩/٦٠٩ (٥٨٩/٤) تتضمن نفس الملمح، الشدة فى مخاطبة الملوك لحضهم على إقامة العدل. لكنها - من ناحية أخرى- تعكس إلى أى حد كان ضغط الواقع على روحانية الشيخ. إن ابن عربى المتسامح صاحب دعوة «دين الحب» الذى يسع كل العقائد من الوشية إلى التوحيد، فضلا عن اليهودية والمسيحية، يبدو فى رسالته إلى «كيكاووس» متعصبا أشد التعصب (٦٠٤/٤ - ٦٠٥)، ولكن علينا أن ندرك أن ضعف الإسلام -متمثلا فى هزائم المسلمين غربا وشرقا- كان هما من هموم الشيخ. ولعل هذا الهم يمثل أهم باعث للبحث عن سبيل معرفى جديد لإعادة اكتشاف «المعنى» الدينى عامة ومعنى «الإسلام» بصفة خاصة. لكن كما قلنا فإن عملية البحث عن المعنى تظل بحثا محكوما بالأفق الضاغط لهموم الواقع، مهما بدا الأمر متولدا عن تجربة روحية كونية.

ماذا يقول ابن عربى لكيكاووس فى رسالته؟ تنقسم الرسالة قسمين: فى الأول منهما يمارس الشيخ دوره النقدى الناصح للحاكم بوصفه خليفة استخلفه

الله على عباده. من أفق هذه المرتبة -مرتبة الخلافة- ينصح الشيخُ الحاكمَ -أى حاكم- أن يكون سلوكه متسقا مع وضع المرتبة التى أحله الله فيها -مرتبة الخلافة- بإقامة العدل، والتقرب إلى الله بالرحمة بعباده الذين استخلفه الله عليهم. فى لهجة أبوية ناصحة يخاطب الشيخ «كيكاووس» فى القسم الأول من رسالته قائلا :

«وصل الاهتمام السلطانى الغالب بأمر الله العزى أدام الله عدل سلطانه إلى والده الداعى له محمد بن العربى، فتعين عليه الجواب بالوصية الدينية، والنصيحة السياسية الإلهية، على قدر ما يعطيه الوقت ويحتمله الكتاب، إلى أن يقدر الله الاجتماع ويرتفع الحجاب. فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: الدين النصيحة، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. وأنت بلا شك من أئمة المسلمين، وقد قلدك الله هذا الأمر وأقامك نائبا فى بلاده، ومتحكما بما توفق إليه فى عباده. ووضعت لك ميزانا مستقيما تقيمه فيهم، وأوضح لك محجة بيضاء تمشى عليها وتدعوهم إليها. على هذا الشرط ولأؤك وعليه بايعناك. فإن عدلت فلك ولهم، وإن جُرّت فلهم وعليك. فاحذر أن أراك غدا بين أئمة المسلمين من أخسر الناس أعمالا (الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وعم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) ولا يكون شركك لما أنعم الله به عليك من استواء ملكك بكفران النعم وإظهار المعاصى، وتسليط النواب السوء بقوة سلطانك على الرعية الضعيفة -فإن الله أقوى منك- فيتحكمون فيهم بالجهالة والأغراض، وأنت المسئول عن ذلك. فيا هذا قد أحسن الله إليك، وخَلَعَ خَلَعَ النيابة عليك؛ فأنت نائب الله فى خلقه، وظله الممدود فى أرضه، فانصف المظلوم من الظالم، ولا يغرنك أن الله وسّع عليك سلطانك وسوّى لك البلاد ومهداها مع إقامتك على المخالفة والجور والتعدى على الحقوق؛ فإن ذلك الاتساع مع بقاءك على مثل هذه الصفات إمهال من الحق لا إهمال. وما بينك وبين أن تقف بأعمالك إلا بلوغ الأجل المسمى، وتصل إلى الدار التى سافر إليها أبؤك وأجدادك ولا تكن من النادمين، فإن الندم فى ذلك الوقت غير نافع.» (٦٠٤/٤).

ورغم اللهجة الأبوية الناصحة يمكن أن يلاحظ القارئ شعورا بعدم الثقة من جانب ابن عريى فى كفاءة الحاكم من حيث تحقيق العدل بين الرعية. بل إن إشارة ابن عريى لنواب السوء الذين يُعَيَّنُهُمُ الحُكَّامُ فيظلمون الرعية إشارة كاشفة. وابن عريى فى بعض أبيات من الشعر ينعى على هذا الحاكم -وعلى أمثاله من الحكام- الانشغال بأمر امتلاء بيت المال فيقول :

كتببت كتابى والدموع تسيل	وما لى إلى ما أرتضيه سبيل
أريد أرى دين النبى محمد	يقام ودين المبطلين يزول
فلم أر إلا الزور يعلو وأهله	يعزُّون والدين القويم ذليل
فيا عزدين الله سمعا لناصح	شفيق ونصاحُ الملوك قليل
وحاذر بتأليه الإله بطانة	تشير بأمر ما عليه دليل
لينمى بيت المال والبيت ساقط	فجد وتوكل فالإله كفيل

ومن الواضح أن الشيخ يشغله أمر المسلمين الذين يعانون ظلم حكامهم ومعاونيهم، ويعانون معاناة أشد من هزائهم المتوالية رغم ما يفرض عليهم من ضرائب باسم تلك الحروب. ويمكن أن نتفهم أسلوب ابن عريى فى رسالته ليكاووس، التى تتراوح لهجة الخطاب فيها بين الأسلوب الأبوى الناصح برقة، وبين الأسلوب العنيف أحيانا، حين نعلم أن كيكاووس كان أحد الحكام الذين حققوا بعض الانتصارات، خاصة انتصاره فى استرداد «أنطاكية» من يد «الروم» ولو لبعض الوقت. كان هذا هو الجزء الأول من الرسالة، الخاص بنصيحة الحاكم وحضه على تحقيق العدل فى حكمه.

ولكن حين يتصل الأمر بالصراع العسكرى بين المسلمين وغير المسلمين نجد أسلوب «ابن عريى» فى الرسالة نفسها يتخذ مسارا آخر. لا يحتمل ابن عريى رؤية «الزور وأهله يعززون» فى حين أن «الدين القويم ذليل»، وهو يعلم بأن يرى «دين النبى محمد يقام، ودين المبطلين يزول». فى ظل تلك الظروف الحرجة يمكن أن نتفهم كيف يتحول «التسامح» إلى «تعصب»، وتسقط

«الروحانية» من برجها العاجى فى طين «الواقع». إنها الحرب، وما فيها من قتل للحياة والأحياء، للنضارة والحرية والعقل، فكيف يدافع عن الحياة أنصارها وسط جثث القتلى ورائحة الدم فى كل مكان؟ هاهو شيخنا الأكبر يحرض كيكاووس على الانتقام من المواطنين، الذين ربما لا علاقة لهم بالحروب، وليس لهم فيها ناقة ولا جمل. لكن من يحمى الأبرياء حين تهب ريح التعصب، فتعصف بكل ما هو جميل. ليس شيخنا فى النهاية إلا ابن عصره، حاول أن يخلق فوق عصره باستعادة ألق الروح فى صفاتها المطلق فتجج على مستوى «التجربة الذاتية»، لكن «التجربة الذاتية» لم تتجج فى اختراق «الواقع». إن ابن عربى - مثله مثلنا جميعا - «ابن الوقت»، لا بالمعنى الصوفى الذى يجعل من مفهوم «الوقت» حالة من حالات النفس ومستوى من مستويات التجربة. إنه - مثلنا جميعا - ابن وقته الذى لم يصنعه، بل ولد فيه. يواصل ابن عربى رسالته منتقلا إلى قسمها الثانى:

«يا هذا ومن أشد ما يمر على الإسلام والمسلمين - وقليل ما هم - رفع النواقيس، والتظاهر بالكفر، وإعلاء كلمة الشرك ببلادك، ورفع الشروط التى اشترطها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه على أهل الذمة»^(٢) على

-
- (٢) وشروط عمر كم يوردها الشيخ تمنع أهل الذمة من الآتى :
- أن لا يحدثوا فى مدينتهم ولا حولها كنيسة ولا دبرا ولا قلعة ولا صومعة راهب، ولا يجددوا ما خرب منها،
 - ولا ينعون كنائسهم أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم،
 - ولا يآوون جاسوسا، ولا يكتموا غشا للمسلمين،
 - ولا يعلموا أولادهم القرآن،
 - ولا يظهروا شركا، ولا ينعوا ذوى أقرائهم من الإسلام إذا أرادوه [هل هذا ممكن وهم محرم عليهم تعلم القرآن؟]
 - وأن يوقروا المسلمين، وأن يقوموا لهم من مجالسهم إذا أرادوا الجلوس،
 - ولا يتشبهوا بالمسلمين فى شئ من لباسهم فى قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا يتسمون بأسماء المسلمين، ولا يتكنوا بكنائهم،
 - ولا يركبوا سرجا، ولا يتقلدوا سيفا، وأن لا يتخذوا شيئا من سلاح،
 - ولا ينقشوا خواتيمهم بالعربية
 - ولا يبيعوا الخمر
 - وأن يجزوا مقدم رؤوسهم، وأن يلزموا زيمهم حيث ما كانوا، وأن يشدوا الزناير على أوساطهم،
 - وألا يظهروا صليبا، ولا شيئا من كتبهم فى طريق المسلمين، =

قدر ما يبدو من قسوة فى استدعاء ابن عربى لما أسماه «شروط عمر» بالنسبة لأهل الذمة -النصارى واليهود والصابئة والمجوس- فإن القارئ مطالب بأن يستعيد السياق: لا فقط سياق الصراع العسكرى الذى رفع شعار «الصليب» فى المشرق، ورفع شعار «الاسترداد الكاثوليكي» فى أسبانيا، بل عليه أن يقارن بين هذا الموقف وموقف «محاكم التفتيش»، والتى كانت قد بدأت نشاطها المحموم فى مطاردة المسلمين واليهود معا فى أسبانيا سنة ١٢٢٣، أى قبل خمسة عشر عاما من كتابة هذه الرسالة. ومن المؤكد أن المقارنة ستكون فى صالح موقف «الإسلام»، حيث لا نجد فى نصوص الإسلام التأسيسية إرغاماً على اعتناق «الإسلام»، أو تقييداً بين «القتل» وبين الإسلام. فالمبدأ أنه «لا إكراه فى الدين» و«من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»، أى أن الإنسان حر فى اختيار دينه. ومهما كانت قسوة ما يسميه ابن عربى «الشروط العمرية» من منظور عصر «الحرية الفردية» واحترام «حقوق الإنسان»، فإننا لا نجد فيها دعوة لتعذيب غير المسلمين لاستخراج اعترافات منهم بجرائم زائفة، كما نجد فى محاكم التفتيش. ومن المؤكد أن احترام «الإسلام» للأديان السابقة عليه أمر لا خلاف عليه، فالإسلام فى النهاية ينسب نفسه إلى سلسلة الأديان «الإبراهيمية»، و«إسماعيل» جد العرب وجد «محمد» هو ابن «إبراهيم». هذا اعتراف بالأنبياء والرسل جميعاً وبالأديان التى أتوا بها من نفس المصدر الذى أتى منه الإسلام، وهو موقف لا مثيل له لا فى اليهودية التى تعتبر كلا من المسيحية والإسلام هرطقة وإلحاداً، ولا فى المسيحية التى ظلت تنظر لنبي الإسلام بوصفه «المسيح الزائف». بل إن الفاتيكان الذى اعترف بالإسلام ديناً فى وثيقته الثانية فى الستينات لم تصدر

= . ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم، ولا يضربوا بالناقوس إلا ضرباً خفيفاً، ولا يرفعوا أصواتهم فى كنائسهم بالقراءة فى شئ فى حضرة المسلمين، ولا يخرجوا سقائين، ولا يرفعوا مع أمواتهم أصواتهم، ولا يظهروا التيران معهم، ولا يشتروا من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين . فإن خالفوا شيئاً مما شورتوا عليه فلا ذمة لهم، وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من أهل المعاندة والشقاء. فهذا كتاب المادل عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا تبني كنيسة فى الإسلام، ولا يحدد ما خرب منها. فتدبر كتابي ترشد إن شاء الله ما لزمتم العمل به والإسلام (٦٠٤/٤ - ٦٠٥).

عنه أى وثيقة رسمية حتى الآن فيما أعلم تقرر أن «محمد» عليه السلام نبى من الأنبياء. ولسنا هنا بصدد اتخاذ موقف دفاعى أو اعتذارى عن الإسلام أو عن الشيخ، بقدر ما نهدف إلى وضع ابن عربى فى سياق عصره بلا زيادة ولا نقصان.

وعلى القارئ أيضا أن يتذكر دائما أن ابن عربى كاتب الرسالة المشار إليها سالفا هو نفسه الذى يتسع قلبه لكل العقائد فى «ترجمان الأشواق»، فهل يمثل هذان الموقفان - المتناقضان - خلافا فى بنية فكر ابن عربى، أم أن الخلل كامن فيمن يريد أن يقرأ كتابات الشيخ بعين واحدة: عين التجربة الروحية الكبرى خارج الزمان والمكان؟ من هنا حرصنا على أن ننظر للشيخ وحياته وتجاريه الروحية من جانبين: جانب التاريخ، بكل ما يتضمنه الوجود التاريخى من ارتباطات وانحيات، بل ومعوقات، وجانب انطلاق الروح فى محاولتها للتحرر من أسر اللحظة التاريخية ومن قيود الزمان والمكان. فى محاولة النظر لتجربة ابن عربى من خلال جدلية العلاقة بين الروحى الكونى والتاريخى الثقافى لا نفعل أكثر من تطبيق منظور ابن عربى للوجود وللمعرفة وللإنسان.

إن لكل «موجود» - يقول الشيخ - خيط يربطه بالحق - الله عز وجل - وخيط يربطه بعلته المباشرة. الخيط الذى يربط الموجود بالحق هو الخيط الناظم للوجود بأسره من أعلاه إلى أدناه؛ فهو خط الحقيقة السارية فى الوجود. والخيط الذى يربط كل موجود من الموجودات بعلته وسببه هو الخيط النسبى الخاص بهذا الموجود وحده. ووحدة الوجود بالمعنى المشار إليه هنا وجه آخر لوحدة «الكلمة» التى يمثلها فلك النبوة من أوله إلى نهايته. وللکلمة كما للموجودات جانبان: جانب الإطلاق والشمول، وجانب التعيين فى التاريخ والحدوث. إن كل الأنبياء فى نظر الشيخ - ومنهم «محمد» عليه السلام - يمثلون هذين الجانبين: الجانب الكونى الروحانى بوصفهم تجليات للکلمة الإلهية، والجانب التاريخى الزمانى بوصفهم رسلا مبلغين كلمة الله بلغتهم ومشرعين لأقوامهم. فى شخصية «آدم» مثلا هناك «الإنسان الكامل» صورة الله وصورة الكون معا، وهناك شخصية «آدم» التاريخى أبو البشر وأول الجنس، ذى الجسد

الطبيعى المكون من العناصر الأربعة الطبيعية. وفى شخصية «محمد» هناك «الحقيقة المحمدية» السارية فى الوجود بأسره، والتي تتجلى وجوديا ومعرفيا فى الأنبياء بدءا من آدم وتنتهى بظهور محمد «التاريخى» الذى ولد بمكة عام ٥٧٠م.

لتجربة ابن عربى بالمثل جانبان: جانب التجربة الروحية الكونية، وجانب التجربة التاريخية. ومن المنطقى أن نحلل خطابه المعبر عن تجربته الروحية من نفس المنظور الذى صاغه هو نفسه للحقيقة؛ فنرى فى تجربته بعدها الروحى الكونى، ولكن فى علاقته الجدلية مع تجربته ككائن تاريخى ثقافى، بل ككائن اجتماعى سياسى. أليس ذلك أقرب إلى طبيعة الأمور وأصوب من تجاهل الكائن التاريخى لحساب التجربة الروحية، التى مهما تعالت وسمت لا تستطيع كاية أن تغادر أرضها التى ترويهها وتمنحها الاستمرار؟

٢ - دار الإسلام ودار الكفر:

لن نفرض على تجربة الشيخ رؤيتنا نحن للواقع التاريخى الذى أنتج خطابه فى سياق ما نريد أن نقرأ الواقع فى عيون الشيخ كما صاغه خطابه. ولقد أشرنا من قبل إلى حرص الشيخ على أن يذكر مشاهدته لعبور جيش الموحدين إلى الأندلس وهو بفاس سنة ١١٩٥/٥٩١ «لقتال العدو حين استفحل أمره على الإسلام». وهى عبارة دالة على حالة من القلق تؤكد العبارة التى تليها والتى تكشف العلاقة بين رحيل الشيخ عن الأندلس - أو عودته إليها - وبين هذا الصراع الذى كان دائرا بين المسلمين والملوك الكاثوليك. يقول الشيخ «ثم جرت إلى الأندلس إلى أن نصر الله جيش المسلمين وفتح به قلعة رباح والأركو وكركوى، وما انضاف إلى هذه القلاع من الولايات» (٢٤٢/٤) وهل لهذا الحرص على ذكر أسماء القلاع المحررة أو المفتوحة من الذاكرة بعد سنوات وسنوات، بالإضافة إلى الحرص على ذكر أنه عاد إلى الأندلس بعد مشاهدة عبور الجيش، سوى دلالة الانشغال العميق والاهتمام البالغ؟

فى نفس السياق، وربما وفق قانون التداخلى، يذكر الشيخ فتح بيت المقدس سنة ١١٨٧/٥٨٣ على يد الناصر صلاح الدين الأيوبي، رابطا بينها عن طريق

التأويل العددي للحروف - ما يعرف بحساب الجُمَّل - وبين فتح مكة. لكن المثير للدهشة أن الآية القرآنية التي على أساس التأويل العددي لحروفها تم حساب سنة فتح مكة هي الآية الأولى من سورة الروم، والتي تشير إلى الصراع الذي كان دائراً بين «الروم» و«الفرس» في القرن السابع الميلادي. وسنعود في الفقرة التالية لدلالة هذا الرِبط بين «استرداد القدس» وبين «فتح مكة»، لنرى أن اهتمام شيخنا بالتاريخ يمثل جزءاً حيويًا من انشغاله بقضايا الواقع. لسنا بحاجة إلى ذكر أن الصراع بين «الروم» والمسلمين حول الأراضي المقدسة آنذاك - فيما عرف باسم الحروب الصليبية - كان في العمق صراعاً سياسياً استخدم «الدين» فيه سلاحاً إيديولوجياً. وهو صراع لا يجب النظر إليه منعزلاً عن الصراع في الأندلس.

من شأن هذه الصراعات التي ترفع لافتات «الدين» أن ترفع حرارة التعصب ضد التسامح، وأن تستثير نغرات الانعزال والتفوق الديني والثقافي ضد الانفتاح الثقافي والديني. في هذا السياق تبرز مفاهيم التمييز بين «دار الإسلام» و«دار الحرب» أو «دار الكفر»، ويصبح السؤال: هل يجوز للمسلم الإقامة في «دار الكفر» أم يجب عليه الهجرة. ويصبح السؤال أكثر تعقيداً إذا كانت الدار في الأصل «دار إسلام» وقعت تحت حكم «الكفار». في الباب الأخير من كتاب «الفتوحات المكية» - الوصايا - يوصي ابن عربي المسلم «ألا يقيم بين أظهر الكفار؛ لأن في ذلك إهانة لدين الإسلام، وإعلاء لكلمة الكفر على كلمة الله». وهذا يجعلنا نستعيد جوهر رسالته إلى «كيكاووس» التي حللناها في الفقرة السابقة. من هنا نتفهم تحريم ابن عربي لا فقط أن يقيم المسلم بين أظهر الكفار، بل أن يزور المسلم «بيت المقدس» وهي في أيدي الكفار. من الضروري هنا بيان أن الفصل الأخير من الفتوحات - كما هو واضح من النص التالي - كتب قبل تحرير القدس سنة ٥٨٣، أي قبل رحيل ابن عربي إلى المشرق. يقول: «ولهذا حجبنا في هذا الزمان على الناس زيارة بيت المقدس والإقامة فيه لكونه بيد الكفار، فالولاية لهم والتحكم في المسلمين، والمسلمون معهم على أسوأ حال. نعوذ بالله من تحكم الأهواء. فالزائرون اليوم بيت المقدس والمقيمون فيه من

المسلمين هم الذين قال الله فيهم (ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) (٥٠٩/٤).

هل نصف ابن عربى بالتطرف؛ لأنه يحرم على المسلم الإقامة في بيت المقدس حتى لو كانت مسقط رأسه؟ هل يتحتم على كل المسلمين الرحيل من ديارهم إذا وقعت بالاحتلال العسكرى في يد عدوهم؟ قد نتفهم تحريم «الزيارة» للمقيم خارجها، وبيت المقدس كانت دائما مزارا للمسلمين عامة وللعلماء والمتصوفة بصفة خاصة. أما تحريم الإقامة فيها لمن هو من أهلها فهو يعطى انطبعا بأن ابن عربى يتخذ موقفا متشددا فيه الكثير من التطرف. إن هذا الحرص على التمييز بين الكفار والمسلمين من جهة، وهذا الحرص -من جهة أخرى- على تأكيد عدم جواز الإقامة في دار الكفر، لا معنى له في سياق الرؤية الصوفية المتسامحة ولا تفسير إلا بإدراك ضغط الواقع الذى يحاول بعض الباحثين التقليل من أثره في تشكيل ملامح التجربة الروحية.

لكن علينا في نفس الوقت أن نعيد تأكيد حقيقة أن الفتوى -إذا صح أن نعتبرها فتوى- أصدرها الشيخ سنة ٥٨٢ قبل رحيله من الأندلس وقبل أن تتعمق تجربته الروحية وتكتمل. لكننا سنواجه مرة أخرى بحقيقة مغايرة: أنه كتب رسالته إلى «كيكاووس» سنة ١٢٤٩/٦٠٩ وكانت تجربته قد اكتملت. ألا يؤكد هذا كله الحقيقة التى نحاول إبرازها، حقيقة أن الروح في محاولتها السمو والارتفاع تظل في حالة صراع مع واقعها الأرضى، فإذا كانت تتجح أحيانا في التحليق عاليا فوق غيومه وأمطاره فإن هذا الواقع يصيبها في أحيان أخرى بفتور لا يمكن إنكاره أو تجاهله؟

٣. معنى «الكفر»:

لكى نؤدى للشيخ حقه كاملا علينا -دون التقليل من شأن ضغوط الواقع- أن نلمس لحظات تحليقه الروحى في نفس السياق؛ وذلك في تحديده لمعاني «الكفر» و«الإيمان». الكفر بمعنى عدم الاعتراف بوجود إله للعالم لا وجود له في الحقيقة عند شيخنا؛ إذ العالم كله من أعلاه إلى أدناه بمستوياته ومراتبه

المختلفة، من أرواح وعقول وأجسام فلكية وعناصر طبيعية، ليس سوى مظاهر ومجالي لحقيقة واحدة سارية في أجزائه بنسب مختلفة: تلك هي الحقيقة الإلهية. الكفر بمعنى إنكار وجود الباري ليس إلا صفة عارضة ظهرت مع ظهور الشرائع السماوية على أيدي الرسل والأنبياء، فصدقهم البعض وكذبهم البعض الآخر، فأطلق على المصدقين اسمُ «المؤمنين» وأطلق على «المكذبين» اسمُ الكفار. لولا نزول الشرائع وانقسام الناس بين مصدق ومكذب ما كان للكفر أن يظهر في العالم.

لكن ظهور الكفر في العالم لا ينفي حقيقة أن العالم كله مؤمن في الباطن. فمنذ اللحظة التي أخذ الله فيها العهد على البشر وهم في حالة «الذر»، أي وهم في لحظة كونهم بذورا في ظهر أبي البشر «آدم» أعلنت الذراري إيمانها برها حسب ما ورد في القرآن الكريم: «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين» (الأعراف ١٧٢/٧) في هذه اللحظة الفائرة في الأزل أقرَّ البشر جميعا بالربوبية لله، وكلهم ما يزالون على هذا الإقرار الأصلي منذ الأزل. وابن عربي في شرحه للآية يميز تمييزا دالا في صيغة السؤال؛ قاله -وفقا لفهم الشيخ- لم يسأل البشر في تلك اللحظة عن وحدانيته، أي عن انفراده سبحانه بالربوبية، فلم يقل: ألست بواحد؟ والسبب في أن صيغة السؤال اتخذت شكل «الست بربكم» بدلا من «ألست بواحد» -يشرح ابن عربي- أن الله سبحانه علم أنه إذا أوجدتهم أشرك بعضهم بواحد بعضهم واجتمعوا في الإقرار بالربوبية». (٢٧٥/٢) إذا كان كل البشر قد أقرّوا بالربوبية فإن الفارق بين الموحّد والمشرك يكمن في أن المشرك أضاف لله شريكا في ربوبيته بينما الموحّد آمن بإله واحد لا شريك له. المقصود بالمشركين في مفهوم ابن عربي عبدة الأوثان والكواكب بصفة خاصة، هذا بالإضافة إلى من يعتقدون ألوهية المسيح ويعبدونه. المشركون هم باختصار كلُّ مَنْ سوى الموحدين، وهم الذين يؤمنون بإله واحد لا شريك له ولا ولد. وأيا كان ما يعبد المشركون أو أيا كان من يعبدون من حجارة أو كواكب أو أشخاص، فهم في النهاية يؤمنون «أن هذا

الحجر أو هذا الكوكب أو ما كان من المخلوقات أنه إله» (السابق ص : ٢٧٤): فهم في الحقيقة - هؤلاء المشركون - يعبدون الله المتجلى في الحجر أو الكوكب أو الشخص، فيكون خطؤهم في هذه الحالة خطأ في نسبة الألوهية نسبة مطلقة إلى من نسبوها إليه. والخطأ في النسبة لا يمنع صحة الإيمان وصحة العبادة في الباطن. أليس الله سبحانه هو القائل: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» فكيف تكون عبادة لغيره؟

كل مخلوق في الحقيقة لا يعبد إلا الله، علم ذلك من علمه وجهله من جهله. هذا يصح على القائلين بالتثليث من النصاري، كما يصح على الثوية وعبدة الحجارة والكواكب والأشجار وعبدة الأسلاف. وماذا عن الملاحدة الذين يزعمون مطلق الكفر ويرفضون الانتماء إلى أى دين؟ وفقا لشيخنا الأكبر إن الإنسان - أى إنسان - لا بد أن يكون مؤمنا بشيء ما، بقيمة ما، أو بمذهب فكرى ما، وهذا يدخل فيه «الإلحاد» بوصفه موقفا فكريا. هذا الإيمان بموضوع أو فكرة أو مذهب أو مبدأ ليس فى باطنه العميق إلا إيماننا بمجلى من مجالى الحقيقة الإلهية المطلقة. وهكذا يكون العالم كله - طبقا لشيخنا - مؤمنا. إن الله ما خلق الجن والإنس إلا لعبادته، هكذا قُدر الأمر منذ الأزل، وهكذا هو الأمر. أليس الله هو القائل أيضا: «وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم»؟ أليس التسبيح عبادة بما هو فى جوهره تمجيد للخالق؟ إلا يؤكد ذلك كله ما يقوله الشيخ من أن عبادة الله سارية فى الموجودات كلها «فإن كل جزء من العالم مسبح لله تعالى من كافر وغير كافر؛ فإن أعضاء الكافر كلها مسبحة لله. ولهذا يشهد عليه يوم القيامة جلده وسمعه وبصره ويده ورجله (هنا يشير ابن عربى إلى آيات قرآنية عديدة ٢٤: ٢٤، ٣٦، ٦٥، ٤١ : ٢١ على سبيل المثال) غير أن العالم لا يفقهون هذا التسبيح وسريان هذه العبادة فى الموجودات.» (السابق ص: ٢٧٥).

الكفر والإيمان إذن مصطلحات ومفاهيم عارضة، والتقسيم إلى كفار ومؤمنين منشؤه نزول الشرائع التى قسمت الناس وفقا لتصديقهم -أو لتكذيبهم- لرسل الله. أما الحقيقة الوجودية فإن الكون كله مطيع لله بالفطرة، والمخلوقات كلها

مسبحة وعابدة بالطبيعة، والبشر كلهم مؤمنون بالعهد الأصلي فى لحظة «الذر» الأولية والأزلية. وفى التقسيم الوضعى، فالناس كلهم مؤمنون إما بالظاهر والباطن معا -وهؤلاء هم الموحدون - أو مؤمنون بالظاهر دون الباطن -وهؤلاء هم المنافقون- أو مؤمنون بالباطن دون الظاهر، وهم من يطلق عليهم اسم «الكافرون».

٣ - نصر الله للمؤمنين

هذا التصور للإيمان والكفر يجعل من السهل على ابن عربى أن يتقبل الواقع الذى فيه ينهزم المؤمنون ويتنصر الكافرون، كما يمكنه بالمثل أن يقدم تفسيراً دينياً مقنعاً لهذا الواقع الذى يبدو -ظاهرياً- مخالفاً للسنن الإلهية فى وعد الله بنصرة «المؤمنين» وإلحاق الهزيمة بالكافرين. أليس الله هو القائل: «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين»؟ فما بال المؤمنون يعانون الهزائم المتوالية وينعم الكفار بانتصارات متتالية عليهم؟ التمييز بين «المؤمن» و«الموحد» وإطلاق صفة «الإيمان» لتشمل كل البشر - شاءوا أم أبوا، وعوا ذلك أو لم يعوا- يُمكن ابن عربى من مدِّ مفهوم تولى الله سبحانه للمؤمنين لى يشمل كل البشر. وإذا كان البشر كلهم مؤمنين، فكلمهم «أولياء الله» من جهة، وكلهم منصورون من الله من جهة أخرى. أليس الله القائل: «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين» هو أيضاً القائل: «الله ولى الذين آمنوا»؟

إذا كان الأمر كذلك لا بد أن يكون معيار النصر والهزيمة معياراً لا يتعلق بموضوع الإيمان بقدر ما يتعلق بمستوى الصدق فى هذا الإيمان. يتحقق الانتصار إذن -أو بالأحرى يتحقق وعد الله بنصر المؤمنين - وفقاً لمستوى قوة الصدق فى الإيمان. أما إذا كان مستوى صدق الإيمان ضعيفاً تحل الهزيمة، أياً كان موضوع الإيمان. من المنطقى فى هذا التصنيف أنه إذا تعادلت درجتا الصدق عند الفريقين المتحاربين يكون فريق «المؤمنين/الموحدين» أحق بنصر الله من فريق «المؤمنين/النصارى أو المشركين». لكن التوحيد وحده - دون صدق- لا يحقق النصر. ألم يهزم المسلمون الأوائل فى بعض الوقائع ضد المشركين من أهل مكة بسبب الفرور والإعجاب بالكثرة؟ (القرآن ٩ : ٢٥).

يريد الشيخ أن يقول إن صدق الإيمان في قلب المؤمن، والإصرار النابع من هذا الصدق، أكثر جدوى في تحقيق النصر من محتوى الإيمان، أى من صدقه المعرفى. إن النصر يحققه البشر بصدقهم، وتولى الله للبشر ونصره لهم يتعلق بدرجة صدقهم؛ لأن كل صور «الإيمان» تجد لها انتماء في التجليات الإلهية. إن هزيمة المسلمين في حروبهم ضد «الروم» في المشرق وضد الملوك الكاثوليك في إسبانيا تجد تفسيرها في ضعف الهمم النابع من ضعف الإيمان. لو عدنا لرسالة الشيخ إلى «كيكاووس» لوجدنا إلماحا إلى هذا البعد في نقده لحكام المسلمين بسبب انشغالهم بجمع المال وعدم محاسبتهم لنوابهم الذين يعيشون في الأرض فسادا ويظلمون الناس.

يكاد ابن عربى أن يقول تفسيراً لهزائم المسلمين في الحاضر وفي الماضي على السواء: إن الله سبحانه وتعالى لا يتعصب، فالعالم كله مؤمن به، والعالم كله تحت جناح رحمته الشاملة وعدله المطلق. هكذا يمد الشيخ مفهوم «الولاية الإلهية» ليشمل الجميع، والمقصود هنا الولاية العامة لا الخاصة بالأولياء من الأقطاب والأبدال والأوتاد الخ. «الولاية نعت إلهى ... ولما كان هذا النعت للإله كان عام التعلق. وهكذا كل نعت إلهى لا بد أن يكون عام التعلق، وإن لم يكن كذلك فليس بنعت إلهى ... ولما كان نعتا إلهيا سرى في كل ما يُنسب إليه (إلهية) أى ما ينسب إليه وصف إلهى (مما ليس به. ولكن لما تقرر في نفس المشرك أن هذا الحجر أو هذا الكوكب أو ما كان من المخلوقات أنه إله -وهو مقام محترم لذاته- تعيّن على المشرك احترام ذلك المنسوب إليه (الألوهية)؛ لكون المشرك يعتقد أن تلك النسبة إليه صحيحة ولها وجه عام. ولما علم الله سبحانه أن المشرك ما أحترم ذلك المخلوق إلا لكونه إلهاً -في زعمه- نظر الحق إليه ... فإذا وفى بما يجب عليه لتلك النسبة من الحق والحُرمة وكان أشد احتراماً لها من الموحّد، وتراءى الجمعان (التقى الجيشان) كانت الغلبة للمشرك على الموحّد، إذ كان معه النصر الإلهى لقيامه بما يجب عليه من الاحترام لله وإن أخطأ في النسبة. وقامت الغفلة والتفريط في حق الموحّد فخذل ولم تتعلق به الولاية. فأى شخص صدق في احترام الألوهية واستحضرها. وإن أخطأ في النسبة ولكن هى مشهوده- كان النصر الإلهى معه (وذلك) غيراً على المقام

الإلهي؛ فإنه العزيز الذي لا يُقلب. فما جعل نصره واجبا عليه للموحد، وإنما جعله للمؤمن بما ينبغى للألوهية من الحرمة ... إن الموحد إذا أخلص في إيمانه ثبت نصره على قرنه بلا شك. فإذا طرأ عليه خلل ولم يكن مصمت الإيمان خذله الحق وما وجد في نفسه قوة يقف بها لعدوه من أجل ذلك الخلل فانهزم» (٢٧٤/٢ - ٢٧٥).

عزيز على ابن عربي أن يسمى هزائم المسلمين باسمها الصحيح، فيكتفى أن يسميها «خذلانا»، وذلك رغم تحليله المسهب لمفهوم «الولاية» و«الإيمان» وتعلقهما بالألوهية السارية في الكون كله. إن الإطار النظري العرفاني المحكم البناء يظل غير قادر على إقناع الشيخ باحتمال الواقع، إن شيئا ما هنا عصى على الهضم، الهزيمة التي يكاد الشيخ يراها ماثلة في كل شيء. يصير الشيخ على أن يضمن خطابه رسالة لمعاصريه: إن للخذلان الذي تعانونه أسبابا، إنه خذلان لكم وليس نصرا لأعدائكم. من هنا رسائله الموجهة إلى الحكام لعلمهم يتعضون من غفلتهم التي تسبب لهم الخذلان، وتتسبب في إذلال «الدين القويم». إن خطاب ابن عربي موزع بين صفاء فكره وتعالى تجربته الروحية وبين تجربة زمانه وانتمائه الثقافي والحضاري والديني. ومن منا لا يعجز في كثير من الأحيان عن حل تلك التعارضات بين سمو خبرة الروح وزمانية الوجود الإنساني لقد كان ابن عربي يحلم - وهذا حقه - بأن يرى «دين النبي محمد يقام، ودين المبطلين يزول».

٤ - التاريخ من أفق الحاضر:

والآن نطرح تساؤلنا المؤجل: ما الذي يربط بين فتح مكة في القرن السابع الميلادي واستعادة القدس -أو فتحها- من الروم بفضل صلاح الدين الأيوبي في القرن الثاني عشر؟ ما الذي يربط الحاضر بالماضي في نسيج واحد في وعي الشيخ أو في لا وعيه؟ كثيرا ما يعود ابن عربي لينبش - بطريقة رمزية شاعرية- في بعض أحداث الماضي السياسي الإسلامي مستثيرا دلالات بعينها جديرة بالتأمل. وتساؤلنا هنا: هل ثم علاقة ما تربط بين هذه الإثارات وبين وقائع بعينها في التاريخ العيني الذي كان الشيخ شاهدا عليه؟ ربما لا نستطيع أن نقدم إجابة

عن مثل هذا السؤال، لكننا نرى أن من واجبنا إثارته في هذا الفصل عن القيود والضغوط الزمانية والمكانية. فالواقع الذي نعيشه جميعا يتضمن التاريخ جزءا جوهريا من مكوناته، لكنه التاريخ منظورا إليه بعيون الحاضر، الذي ليس بدوره سوى استمرارية ما للماضى وانقطاعا عنه في نفس الوقت .

نحلل هنا نصا نرى أنه نص هام؛ لأنه يكشف لنا عن انخراط الشيخ انخراطا غير مباشر كما قلنا في إعادة رسم خارطة الماضى. كيف؟ لتأمل القصة التي يحكيها الشيخ ونحلل عناصرها لعلنا نصل إلى دلالتها ومغزاها. القصة أن رجلا من دمشق اسمه «يحيى بن الأخفش»، وهو فى الأصل من أهل مراكش، يصفه ابن عربى بأنه من أهل «العشق والأدب والدين»، كتب هذا الرجل رسالة للشيخ، الذى كان يعيش فى دمشق آنذاك أيضا، يخبره فيها برؤيا شاهد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم يقف بمقصورة الخطابة فى جامع دمشق. فى الرسالة التى يقص علينا ابن عربى تفاصيلها فى كتاب الفتوحات المكية (٢٩٧/١ - ٢٩٨) يحدد «يحيى بن الأخفش» هذا موقع «مقصورة الخطابة» بأنها تقع إلى جانب «خزانة المصحف» المنسوب إلى «عثمان بن عفان» رضى الله عنه .

فى المشهد يقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مقصورة الخطابة والناس - وبينهم «يحيى بن الأخفش» كاتب الرسالة وصاحب الرؤيا - يهرعون إليه ويدخلون عليه لمبايعته. يظل صاحب الرؤيا وكاتب الرسالة «واقفا حتى خفَّ الناس»، ويحكى فى رسالته: «فدخلت عليه وأخذت يده» وهنا يبدأ النبى صلى الله عليه وسلم حديثا مع «يحيى» هذا، يكون «ابن عربى» محوره وبؤرته .

يسأل الرسول يحيى : هل تعرف محمدا؟

يجيب يحيى متسائلا :يا رسول الله من محمد؟

الرسول : ابن عربى

يحيى : نعم أعرفه

الرسول: قل له يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انهض إلى ما أمرت به..» واصحبه فإنك منتفع بصحبته. وقل له: يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم: «امتدح الأنصار، ولتعين منهم سعد بن عباد ولا بد..»

ويواصل «يحيى بن الأخفش» في رسالته لابن عري حكاية ما شاهده في الرؤيا قائلا إن الرسول استدعى الشاعر «حسان بن ثابت» وقال له: يا حسان حفظه - يقصد يحيى بن الأخفش - بيتا امن الشعر (يوصله لمحمد بن عري بينى عليه وينسج على منواله في العروض والروى. فيلتفت «حسان بن ثابت» إلى «يحيى بن الأخفش» ممثلا لأمر رسول الله ويقول: «خذ إليك»، وينشده البيت الشعري:

شغف السهاد بمقلتي ومزارى فعلى الدموع مَعُوْلَى ومشارى

وما زال «حسان» يردد البيت حتى حفظه «يحيى».

يواصل «يحيى بن الأخفش» في رسالته فيقول إن الرسول قال له: اكتبه (=أى المديح الذى ينظمه ابن عري في الأنصار) يخط بيّن، واحمله ليلة الخميس إلى تربة كذا يسمونها «قبر الست» فستجد عندها شخصا اسمه «حامد»، فادفع إليه المديح.

هنا تنتهى الرسالة التى أرسلها يحيى بن الأخفش للشيخ محيى الدين يروى فيها رؤياه التى رأى فيها النبى فى جامع دمشق والحديث الذى دار بينه وبين الرسول حول ابن عري وضرورة أن يكتب قصيدة فى مدح الأنصار، لا بد أن يذكر فيها اسم «سعد بن عباد» تحديدا، هذا بالإضافة إلى طلب النبى من «حسان بن ثابت» شاعره أن ينظم بيتا يكون بمثابة نموذج ينسج ابن عري على منواله قصيدته. وتنتهى الرسالة بأن يأمر النبى «يحيى» أن يأخذ قصيدة ابن عري بعد أن يكتبها بخط بيّن ويحملها إلى مكان يُسمى «قبر الست» حيث يجد شخصا اسمه «حامد» يدفع القصيدة إليه.

يواصل ابن عري سرد الحكاية قائلا: «فلما أخبرنى الرأى وفقه الله عملت له القصيدة من وقتى من غير فكر ولا روية ولا تثبط، ودفعت القصيدة إليه»

وتنتهى القصة برسالة أخرى يتلقاها ابن عربى من «يحيى بن الأخفش» ينبئها فيها بما وقع بعد أن تسلم منه القصيدة : «لما جئت قبر الست ووصلت إليه بعد العشاء الآخرة رأيت رجلا عند القبر فقال لى ابتداء : أنت يحيى الذى جاء من عند فلان («وسمانى» هكذا يتدخل ابن عربى فى السرد شارحا) فقال له يحيى: نعم، فعاد الشخص وسأل يحيى: فأين هى القصيدة التى مدح بها الأنصار عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يحيى: هى عندي «فناولته إياها فقرب من الشمعة ليقرأ القصيدة فلم أره يخبر ذلك الخط، فقلت له: أتأذنى أن أنشدك إياها؟ فقال: نعم فأنشدته إياها».

ما يهمنى فى هذه القصة المليئة بالرموز الغامضة والدلالات الثرية التى يصعب الإحاطة بها هنا هو الدلالة السياسية لطلب النبى من ابن عربى -عن طريق وسيط هو «يحيى بن الأخفش» الذى لا يذكر ابن عربى عنه شيئا سوى تلك الجملة القصيرة أنه كان من أهل مراكش، يعيش فى دمشق، وهو من أهل «العشق والأدب والدين» - أن يكتب قصيدة فى مدح الأنصار. ما دلالة هذا التكليف؟ وما علاقته بكون ابن عربى ينتمى عرقيا إلى قبيلة طيء اليمانية، الأصل العرقى لقبائل الأنصار فى يثرب؟ ولماذا بالتحديد يتضمن الطلب النص على ذكر اسم «سعد بن عباد» فى القصيدة؟ هذا فضلا عن كتابة القصيدة بخط بيّن لشخص اسمه حامد، لا يجيد قراءة الخط الذى كتبت به القصيدة، الأمر الذى يعنى أنه ليس من أهل الإقليم، وربما ليس من أهل العصر، فيحتاج ليقرأها له «يحيى». وتساؤلات أخرى كثيرة تتعلق بطبيعة المكان الذى تحمل القصيدة إليه، المقابر و«قبر الست» تحديدا .

فى كل هذا السرد لم يفعل ابن عربى سوى كتابة القصيدة على صورة البيت الذى نظمه «حسان بن ثابت» شاعر النبى، وهو أيضا من الأنصار. ربما نكتفى هنا بالتعليق على الجزئية الخاصة بدلالة النص على ذكر اسم «سعد بن عباد» فى القصيدة. فسعد بن عباد من الشخصيات التاريخية الهامة التى قدمت دعما أدبيا وماليا وعسكريا لا يستهان به فى سبيل الدعوة الإسلامية، خاصة بعد هجرة المسلمين الأوائل إلى يثرب. ولم يتوقف دعمه أو دعم قبيلته بعد فتح مكة،

بل إن هذا الدعم أتاح له مكانة متميزة في المدينة نفسها، خاصة بعد ضعف أسهم «عبد الله بن أبي» زعيم الخزرج بسبب «نفاقه» المعروف^(٤)

لكن سمعة «سعد بن عباد» أصابها تشويه متعمد في المصادر المتأخرة نتيجة لموقفه في النقاش الذي دار في «سقيفة» قومه «بنى ساعدة» عشية وفاة النبي، حيث اجتمع «الأنصار» لمناقشة مسألة «الخلافة» وكان «سعد» أهم مرشحى الأنصار، لولا تدخل «أبو بكر» و«عمر» فتم انتخاب «أبي بكر» وأذعن الأنصار. واختفى «سعد» من الحياة العامة، ومات في سوريا بعد سنتين. هل نلمس في النص السابق محاولة لإعادة الاعتبار لشخصية «سعد بن عباد» بالنص على ضرورة ذكر اسمه في قصيدة مدح الأنصار التي أمر الرسول نفسه ابن عربي بكتابتها؟

ولكن لماذا الوسائط؟ نفهم أهمية أن تكون القصيدة المقترحة على غرار بيت من الشعر ينظمه شاعر الأنصار الذي تخصص في مدح النبي؛ لأن ذلك من شأنه أن يعطى للمديح طابعا مستمدا من حقيقة أن شعر «حسان» مؤيد بروح القدس، وهو «جبريل» ناقل الوحي إلى محمد. ولعل السؤال الأهم: هو لماذا الانشغال بالماضي وما علاقته بالحاضر. أسئلة كثيرة نعجز عن الإجابة عليها. ويكفى أن يكون ما نريد تأكيده قد صار واضحا رغم حرصنا على نفي أى ادعاء بأننا نريد سجن خطاب ابن عربي في إطار زمانه ومكانه بالمعنى البيئى أو الزمانى الضيق. كل ما نريد تأكيده أن عظمة المفكر - أى مفكر - تكمن في هذا التوتر الخلاق بين مخاطبة زمانه، وبين التشوف لمخاطبة المستقبل، لكن هل يمكن مخاطبة المستقبل إلا باللغة التي يمكن للحاضر استيعابها وهضمها.

إن إعادة الاعتبار لشخصية «سعد بن عباد» الأنصارى، بالحرص على ذكر اسمه في قصيدة يمدح فيها الأنصار، محاولة رمزية من ابن عربي لتقديم قراءة للتاريخ. وهذه المحاولة تتعلق بمسألة الخلافات المبكرة حول مشكل من يخلف الرسول. لم يكن خلاف «سقيفة بنى ساعدة»، الذي كان بطله «سعد بن عباد»،

(٤) انظر مقالة مونجمرى وات عنه في دائرة المعارف الإسلامية، ط ٢، دار بريل، ليدن، المجلد ٨، ص: ٦٩٨.

والذى انتهى باختيار «أبى بكر» خليفة، هو الخلاف الوحيد. ففى المصادر التاريخية - شيعية وسنية على السواء - أن «عليا بن أبى طالب». ابن عم الرسول وزوج ابنته «فاطمة». لم يحضر هذا الاجتماع؛ لأنه كان مشغولا بإجراءات دفن الجثمان الشريف. وتقتصر هذه المصادر على أنه لم يكن راضيا عن النتيجة التى أسفر عنها اجتماع السقيفة. كان يرى نفسه أحق بخلافة الرسول فى تولى أمور المسلمين لأسباب عديدة، ولهذا تأخر فى مبايعة «أبى بكر» فترة يختلف المؤرخون فى تحديدها.

لقد ظل أمر الخلافة موضوعا خلافا بين المسلمين خاصة فى سياق الحرب الأهلية التى نشبت عقب تولى «على بن أبى طالب» الخلافة بعد مقتل الخليفة الثالث «عثمان بن عفان». فى سياق تلك الحرب الأهلية - التى أطلق عليها اسم حروب «الفتنة» - تباينت الآراء والاتجاهات وتشعبت الأفكار، وكان هذا كله تمهيدا لميلاد «علم الكلام» على أرض الاختلافات السياسية؛ وبالتالي صارت قضية «الخلافة» أو «الإمامة» من قضاياها الأساسية. المعسكران الأساسيان هما الشيعة والسنة، ويتلخص الخلاف بينهما فى تحديد معيار اختيار الخليفة، ففى حين يقوم منطق الشيعة على ضرورة أن يكون «الخليفة» من أهل بيت النبوة، يكتفى «السنة» بأن يكون الخليفة من قبيلة «قريش». لكن السؤال الذى كان محور نقاش فى أتون الصراع الذى استمر بين «السنة» و«الشيعة» كان يتمحور حول مدى مشروعية خلافة كل من «أبى بكر» و«عمر». من منظور السنة لا إشكال فى مشروعية الخلافة، إذ مدار الاختيار هو «إجماع أهل الحل والعقد»، وهو متحقق فى الحالتين. أما الشيعة الأوائل فقد كان رأيهم أن كلا من «أبى بكر» و«عمر» يعدان مغتصبين لحق «على بن أبى طالب».

وكل خلاف يستعر فى أتون الصراع العسكرى ثم تهدأ حدته تدريجيا، عدل الشيعة من موقفهم من الخليفتين الأول والثانى، رغم إصرارهم على أن «عليا» كان هو الأكثر استحقاقا لها. طور الشيعة نظرية فحواها أنه من الجائز أن يتولى «الإمامة» أو «الخلافة» من هو أقل استحقاقا وفضلا مع وجود الأكثر استحقاقا والأفضل. تلك هى نظرية «جواز إمامة المفضل مع وجود الأفضل».

ابن عربى ليس شيعيا بالمعنى الاصطلاحي المذهبى للتشيع، لكن العلاقة بين التصوف والتشيع فكرى وتاريخيا أمر تعرض له بالشرح والتفسير باحثون كثيرون، لعل «هنرى كوريان» -الذى استشهدنا به أكثر من مرة فى هذا الفصل- من أشهرهم .

ابن عربى يصوغ قضية تأخر الأفضل وتقدم الأقل فضلا فى تولى الخلافة من خلال مفهوم عرفانى فحواه أن الأولوية والآخرة مفاهيم نسبية؛ لأن «الزمان» نفسه مفهوم نسبى مرتبط بعالمنا هذا، عالم الاستحالة والتكوين وفقا لحركة الأفلاك وتأثيراتها. فإذا كان «الأفضل» من الخلفاء -وهو على بن أبى طالب - قد تأخر زمان توليه الخلافة، فذلك حكم «الزمان» ليس إلا. أى أن هذا التأخر فى «الزمان» لا يقلل من شأن أفضليته ولا ينفيها. صحيح أن الخلفاء الأربعة كلهم مؤهلون للتقدم والخلافة، لكن ترتيب توليهم لا يعكس أفضلية بقدر ما هو حكم الزمان والآجال: «فلما كان فى علم الله أن أبا بكر يموت قبل عمر، وعمر يموت قبل عثمان، وعثمان يموت قبل على -رضى الله عنهم جميعا- ... جعل الله خلافة الجماعة كما وقع؛ فتقدم من علم أن أجله يسبق أجل غيره من هؤلاء الأربعة. فما قدم منهم من قدم لكونه أكثر أهلية من المتأخر عنهم فى نظرنا فإنه ما بقى إلا حكم الآجال والعناية». (٢٢٨/٤).

٥ - السلطان والقرآن، جدلية السيف والعرفان:

كان هذا زمان الخير، زمان الصحابة من المهاجرين والأنصار، وزمان الخلفاء الراشدين، زمان القرون الأولى التى هى خير القرون. إذا كان الشيخ قد انخرط بطريقة رمزية فى النقاش القديم فانخراطه فى شأن زمانه لا يجوز أن يكون أمرا فى حاجة لإثبات. يقول الشيخ فى «عقائد مغرب» ما نصه: «وذلك زمان الفتن، وحلول البلايا والمحن» (ص: ٢٢) ليس من المستغرب إذن أن يحدد زمان ظهور المهدي المنتظر بأنه القرن السابع الهجرى «القرن الرابع اللاحق بالقرون الثلاثة الماضية: قرن الرسول صلى الله عليه وسلم -وهو قرن الصحابة- ثم الذى يليه ثم الذى يلى الثانى» (وهى خير القرون حسب رواية

تُسبب في كتب الحديث للرسول) (الفتوحات ٣/٣٦٥) وبين القرون الثلاثة الأولى والقرن السابع -يقول ابن عربي- «حدثت أمور، وانتشرت أهواء، وسُفِكَت دماء، وغارت الذئاب في البلاد، وكثر الفساد إلى أن طمَّ الجور وطما سيَّله، وأدبر نهار العدل بالظلم حين أقبل ليله» (السابق) . ومن الطبيعي والأمر كذلك أن يكون خروج الخليفة المهدي في هذا القرن السابع -عصر ابن عربي- ليحقق الأهداف الثلاثة التي رأينا أنها كانت شاغل ابن عربي، والتي يمكن تلخيصها على النحو التالي:

- ١ - تحقيق العدل في الأرض بعد أن امتلأت بالظلم والجور.
 - ٢ - أن يقيم دين الله في الأرض بعد أن ارتفعت أديان الزور في كل مكان.
 - ٣ - أن يرفع الخلاف بين المسلمين في المذاهب ويقر دين الله الصحيح كما كان عليه أيام الرسول .
 - ٤ - أن يحقق الانتصار الذي عجز المسلمون عن تحقيقه في صراعهم ضد أعدائهم.
- هكذا يكون خروج المهدي المنتظر «وقد امتلأت الأرض جورا وظلما فيملؤها قسطا وعدلا ... يخرج على فترة من الدين، يزغ الله به ما لا يزغ بالقرآن يمشى النصر بين يديه ... يقفو أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخطئ .له ملك يسدده من حيث لا يراه .يحمل الكلَّ ويُقَوِّى الضعيف ويعين على نوائب الحق (وهي صفات نبوية وردت في حديث «خديجة» زوجة محمد الأولى له حين فاجأه الوحى فاضطرب، وكانت تحاول طمأنته) يفعل ما يقول ويقول ما يفعل ويعلم ما يشهد ... يبيد الظلم وأهله، يقيم الدين وينفخ بالروح في الإسلام، يعزُّ الإسلام به بعد ذلِّه، ويحيى بعد موته .يضع الجزية، ويدعو إلى الله بالسيف ما كان :فمن أبى قتله فلا يبقى إلا الدين الخالص.» (السابق : ص :٣٦٤).

رغم أن مفهوم «المهدي المنتظر»، الذي يظهر فيملاً الأرض قسطا وعدلا بعد أن امتلأت جورا وظلما، ليس من إبداع ابن عربي فالجدير بالالتفات أن ابن عربي يحدد زمن مجيئه بالقرن السابع معتمدا في ذلك على تصوير عصره بأنه

العصر الذى «ذل» فيه الإسلام بعد «عز» و«خسر» بعد «انتصار». لا يمكن لدارس ابن عربى أن يتجاهل هذا البعد الواضح فى الكيفية التى يوظف بها الشيخ مفاهيم مستقرة فى التراث السابق عليه ليخاطب مشكلات عصره.

لكن من هو المهدي المنتظر؟ ولماذا يحتاج الزمان إليه رغم وجود «خاتم الولاية المحمدية الخاصة»، الذى هو ابن عربى نفسه؟ تلك أسئلة لم تشغل الباحثين فيما أعلم لتركيزهم على المفاهيم الروحية والصوفية والفلسفية فى خطاب ابن عربى وإهمال - أو التقليل من شأن - الإشارات المتناثرة هنا وهناك فى ثنايا هذا الخطاب، والتى تحيل إلى هموم العصر والزمان فى زمان ابن عربى يظهر هو «خاتم الولاية المحمدية الخاصة»، ويظهر «المهدي المنتظر»، فيحقق العدل وينصر الدين بالسيف، ويفتح القسطنطينية. ولكن تنقلب الموازين مرة أخرى فيظهر «الدجال» الذى سيقتل «المهدي»، وينشر الفساد فى الأرض. وأخير ينزل من السماء «عيسى بن مريم»، فيقتل «الدجال» ويعيد العدل فى الأرض ويحكم وفقا لشريعة محمد لا وفقا لشريعته هو؛ إذ أن نزوله - هكذا فى آخر الزمان - إنما من حقيقة كونه «خاتم الولاية العامة». إن الوصف الذى يقدمه ابن عربى لنهاية العالم فى زمانه يدفعنا للتساؤل لماذا هذا التحديد؟

فمن هو «المهدي المنتظر»؟ أنه خليفة «من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولد فاطمة، جدّه الحسن بن على، يواطئ اسمه اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخلق -بفتح الخاء- وينزل عنه فى الخلق ... وهو أجلى الجبهة أقتى الأنف. أسعد الناس به أهل الكوفة، يقسم المال بالسوية ويعدل فى الرعية ويفصل فى القضية ... يُظهر من الدين ما هو عليه الدين فى نفسه ما لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لحكم به. يرفع المذاهب من الأرض فلا يبقى إلا الدين الخالص... يفرح به عامة المسلمين أكثر من خاصتهم، يبايعه العارفون بالله من أهل الحقائق عن شهود وكشف وتعريف إلهى. له رجال إلهيون يقيمون دعوته وينصرونه هم الوزراء يحملون أثقال المملكة ويعينونه على ما قلده الله ...» (وهم طائفة خباهم الله له فى مكنون غيبه أطلعهم كشفًا وشهودًا على

الحقائق وما هو الأمر عليه فى عباده ... وهم من الأعاجم ما فيهم عربى، ولكن لا يتكلمون إلا بالعربية. لهم حافظ ليس من جنسهم ما عصى الله قط، وهو أخص الوزراء وأفضل الأمناء» (٣/٣٦٤ - ٣٦٥).

من الواضح أن «المهدى» - وفقا لوصف ابن عربى- شخصية من أهل بيت النبى، يكاد ابن عربى يحدد الملامح ويشير إلى الاسم. لكن مما هو جدير بالالتفات أن الدين الذى سيظهره المهدى هو الدين «فى نفسه» كما أظهره الرسول، دين لا خلاف فيه ولا مذاهب، وهو دين أقرب إلى الدين الذى يبشر به ابن عربى نفسه. يقوى هذا الاستنتاج أن الله يُقَيِّض للمهدى وزراء «إلهيون»، أى صنف من الرجال العارفين بالله، وهم «أهل الحقائق» الذين سيبايعونه عن «شهود وكشف وتعريف إلهى». العامة يفرحون به أكثر من الخاصة، وهى إشارة واضحة من ابن عربى لحاجة العامة لمن يحقق لهم العدل. لكن أكثر الناس فرحا به وسعادة هم أهل الكوفة، والإشارة أيضا واضحة للشيعة، واختصاص أهل الكوفة بالذكر إشارة واضحة لأحداث تاريخية دامية عانى منها الشيعة، لعل مقتل الحسين فى «كربلاء» أبرز تلك الأحداث الدامية، وهو حدث تتجدد ذكره كل عام فى وعى الشيعة حتى الآن.

لكن مما هو جدير بالملاحظة كذلك أن «المهدى» ينتسب للرسول بنسب «الدم» ويشبهه فى «الشكل» الخارجى دون أوصافه «الخلقية»، فما معنى هذا؟ معناه أن «خاتم الولاية المحمدية»، الذى هو ابن عربى نفسه، هو وحده الحامل للصفات الخلفية إلى جانب حمله لنفس الاسم، بالإضافة إلى انتمائه العربى. ولعل أخص وزراء المهدى الذى «ما عصى الله قط»، والوحيد الذى ينتمى دون الوزراء جميعا للجنس العربى، أن يكون «ابن عربى» نفسه^(٥) ولعل تركيز أعداء المهدى من بين المسلمين فى العلماء من أهل الاجتهاد -يقصد ابن عربى المتكلمين- وفى «الفقهاء»، ما يعكس مناخ الصراع بين الفقهاء والمتصوفة من

(٥) لفهم تطور مفهوم «المهدى» فى تاريخ الثقافة الإسلامية يمكن مراجعة مقال W. . Madlung فى دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الخامس، ص ١٢٣٠ - ١٢٣٨.

جهة، وهو مناخ لا يمل ابن عربى من تكرار الحديث عنه تلميحاً وتصريحاً. أما عن الفريق الأول فيقول ابن عربى عن أعداء المهدي إن: «أعداؤه مقلدة العلماء أهل الاجتهاد لما يرونه من الحكم بخلاف ما ذهبت إليه إثمهم؛ فيدخلون كرها تحت حكمه خوفاً من سيفه وصولته ورغبة فيما لديه» (٣/٢٦٤ - ٣٦٥) أما الفقهاء فهم العدو المبين للمهدي: «فإنه لا يُبقى لهم رئاسة ولا تمييزاً عن العامة، بل لا يبقى لهم علم بحكم إلا قليل ويرتفع الخلاف من العالم فى الأحكام بوجود هذا الإمام. ولولا أن السيف بيد المهدي لأفتى الفقهاء بقتله، ولكن الله يظهره بالسيف والكرم، فيطمعون ويخافون، فيقبلون حكمه من غير إيمان، بل يضمرون خلافه كما يفعل الحنفيون والشافعيون غيماً اختلفوا فيه. فلقد أخبرنا أنهم يقتتلون فى بلاد العجم أصحاب المذهبين، ويموت بينهم خلق كثير، ويفطرون فى شهر رمضان ليتقوا على القتال. فمثل هؤلاء لولا قهر الإمام المهدي بالسيف ما سمعوا له ولا أطاعوه بظواهرهم كما أنهم لا يطيعونه بقلوبهم، بل يعتقدون فيه أنه إذا حكم فيهم بغير مذهبهم أنه على ضلالة فى ذلك الحكم، لأنهم يعتقدون أن زمان الاجتهاد قد انقطع، وما بقى مجتهد فى العالم، وأن الله لا يوجد بعد أئمتهم أحد له درجة الاجتهاد. وأما من يدعى التعريف الإلهى بالأحكام الشرعية فهو عندهم مجنون فاسد الخيال لا يلتفتون إليه. فإذا كان ذا مال وسلطان انقادوا إليه فى الظاهر رغبة فى ماله وخوفاً من سلطانه وهو ببواطنهم كافرون به» (ف٣/٣٧٤).

هذا الدور الذى يعتبره ابن عربى من بعض مهام «المهدي» يعكس حلم ابن عربى بحاكم عادل قادر على حسم الخلافات بالسيف أو بالمال، أى بالعصا والجزرة معاً، ومزود فى الوقت نفسه بوزراء عارفين من أهل الله. إلى أى حد يفسر لنا هذا الحلم الطوباوى احتقان الوضع فى رؤية ابن عربى للواقع الفكرى وما يزخر به من خلافات. ولعل ابن عربى يرى أن هذه الخلافات والصراعات -التي تصل إلى حد التحارب كما يحكى عن الشافعية والحنبلية- هى المسئولة عن حالة الخذلان التي تسبب الهزائم المتوالية للمسلمين فى حروبهم ضد أعدائهم.

وهذا ينقلنا إلى واحدة من مهام المهدي المنتظر، تلك هي قمع الكفر وأهله بفتح «القسطنطينية» أو «مدينة الروم». وكما حللنا في الفقرة السابقة فإن النصر على الأعداء لا يتحقق إلا بصدق الإيمان بصرف النظر عن محتوى الإيمان ومضمونه. هذا الصدق متحقق في وزراء المهدي؛ فهم من رجال الله أهل الكشف والشهود. وهذا الصدق «هو الذي يقررونه في نفوس أصحاب المهدي ... وإذا علم الإمام المهدي هذا (= يعني أهمية صدق الإيمان في تحقيق النصر) عمل به، فيكون أصدق أهل زمانه». وبسبب هذا الصدق ينجح جيش المهدي في فتح القسطنطينية بلا حرب، بل يفتحونها بالتكبير، صيحة «الله أكبر» «ألا تراهم بالتكبير يفتحون مدينة الروم؛ فيكبرون التكبير الأولى فيسقط ثلث سورها، ويكبرون الثانية فيسقط الثلث الثاني من السور، ويكبرون الثالثة فيسقط الثلث الثالث؛ فيفتحونها من غير سيف». (٣٦٦/٣ - ٣٦٧).

لكن هذا النصر المبين، وما يسبقه من تحقيق العدل، وإزالة الخلاف، تمثل بعض علامات نهاية العالم، فما يلبث «الدجال» أن يظهر ليملاً الأرض فساداً بعد أن ملئت عدلاً، ويزيف دين الله بعد أن صلح حاله. والدجال «رجل كهل أعور العين اليمنى، كأن عينه عنب طافية، مكتوب بين عينيه كاف فاء راء فلا أدري هل المراد بهذا الهجاء كَفَرَ من الأفعال، أو أراد به كافر من الأسماء إلا أنه حُذِفَ الألفُ كما حذفتها العرب في خط المصحف في مواضع مثل ألف الرحمن بين الميم والنون». هذه كلها علامات كافية لكي يكون الدجال تشخيصاً حياً للكفر وانتصاره على الإيمان. ويحدد ابن عريّ خروج الدجال بأنه بعد فتح القسطنطينية بثمانية عشر يوماً «ويكون خروجه من خراسان من أرض المشرق - موضع الفتن - تتبعه الأتراك واليهود، يخرج إليه من أصبهان وحدها سبعون ألف طليسان في أتباعه كلهم من اليهود». (السابق نفسه) (٦).

يخوض الدجال معارك ضد المهدي وجيشه يفعل فيها أعاجيب تشبه المعجزات، الأمر الذي يجذب الناس إليه. وفي وسط هذا المرج ينزل عيسى بن

(٦) انظر عن الدجال مقالة A. Abel في دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثاني، ص: ٧٥.

مريم «بالمنازة البيضاء شرقى دمشق ... والناس فى صلاة العصر، فيتحنى له الإمام من مقامه؛ فيتقدم فيصلى بالناس، يؤم الناس بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، يكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويقبض الله المهدي إليه طاهرا مطهرا». (٣٦٥/٣) يقتل عيسى الدجال يخوض حروبا ضد «يأجوج ومأجوج»، حتى تستقر الأمور، ويقام ميزان العدل، وتثمر الأرض من خيرها الكثير، فيجد كل إنسان أكثر مما يريد. إنه زمان «البركة» وإقامة دين الله - الإسلام - على الصراط المستقيم. لكنه موعد قيام الساعة ونهاية العالم. كأن ابن عربى لا يرى صلاحا للعالم إلا فى نهايته، وهل فى ذلك من غرابة؟ أليس «الموت» هو اليقظة من حالة «النوم» التى هى العالم؟ «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا» هكذا يروى عن النبى أنه قال، وهكذا يفسر ابن عربى الوجود بأنه «خيال» وأن البشر يظنون أنفسهم يقظى، والحقيقة أنهم نائمون.

هل كان هذا التبشير بنهاية العالم تطورا فى رؤية ابن عربى للواقع، الذى رحل من مغربه إلى مشرقه بحثا عن خلاص، فلما وجد الأمر فى المشرق لا يقل سوءا عن الحال فى المغرب الذى خلقه وراءه، أدرك أن لا خلاص إلا باليقظة الكبرى؟ ربما، خاصة وأن كتابه عن «عنقاء مغرب ف ختم الولاية وشمس المغرب» لا يتضمن تلك التفاصيل التى وجدناها فى الفتوحات، الذى لم ينته ابن عربى من كتابته إلا سنوات قليلة قبل رحيله عن العالم. نحن بذلك لا ننكر أن مفهوم «نهاية العالم» جزء تكوينى فى كل رؤية دينية، لكن تأكيد ابن عربى لها وتحديده لزمانها يمثل بعدا يحتاج للتفسير. لنعد إلى ما قبل رحيله من الأندلس، لنعد إلى لقائه بابن رشد لنرى ما دلالة اللقاء -أو بالأحرى اللقاءات - التى يحرص الشيخ على سردها، وما مغزاها بالنسبة للسؤال عن حياة الرحيل التى عاشها الشيخ.

الفصل الثالث

اللقاء بابن رشد

كانت تجربة الشيخ الروحية قد بدأت بالفعل وهو في إشبيلية - حسب تحليلنا في الفصل الأول- من خلال رؤيا غيرت مسار حياته خلال فترة مرض في شبابه المبكر. وقد أثار هذا التحول الروحي نظر أبيه أولاً؛ ثم إعجاب صديق الأب «ابن رشد» ثانياً. كان ابن رشد قاضى إشبيلية خلال الفترة ٥٦٥ - ٥٦٧ / ١١٦٩ - ١١٧١ ثم عُيِّن بعد ذلك قاضياً في قرطبة، حيث التقى به الفتى «ابن عربى» كما سنرى. ولعل من آخر ما شاهده ابن العربى في الأندلس قبل رحيله النهائى، الذى لم يعد منه أبداً إلى الأندلس، هو جنازة الفيلسوف قاضى قرطبة «ابن رشد» سنة ٥٩٥. فهل كان ابن رشد آخر خيط يربطه بالأندلس وبالمغرب، فلما انقطع الخيط بوفاة ابن رشد قرر الرحيل بلا عودة؟

لعل «المحنة» التى تعرض لها فيلسوف قرطبة سنة ١١٩٥ بسبب حاجة الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور إلى تأييد «الفقهاء» - وتأييد العامة بالتالى- فى حروبه ضد الملوك الكاثوليك- وهى محنة نفية ومصادرة كتبه، وما تبع ذلك من صدور فتاوى بتحريم دراسة الفلسفة وتعلمها، لعل هذه المحنة كان لها تأثير فى قرار ابن العربى أن يغادر المغرب كله إلى المشرق. لكنه فيما يبدو لم ينفذ قراره إلا بعد رحيل الفيلسوف من العالم رحيلًا تاماً.

سنأخذ من الرواية السردية التي يحكيها لنا «ابن عربي» عن اللقاءات التي حدثت بينه وبين فيلسوف قرطبة «أبو الوليد بن رشد» منطلقا لتحليل موقف الشيخ الأكبر من الفلسفة والفلاسفة، مع وضع هذا الموقف في السياق الثقافي التاريخي العام للعالم الإسلامي من جهة، وفي السياق الخاص للوضع الفكري والثقافي الديني في الأندلس من جهة أخرى. إن موقف الشيخ الأكبر من الفلسفة والفلاسفة وأصحاب النظر العقلي، المعتمد على الاستنباط والاستنتاج باستخدام أدلة المنطق، محكوم بنظرته العامة للحقيقة التي لا تقبل التقييد والحصر. وفقا لهذه النظرة فإن ما يتوصل إليه الفلاسفة بمنهجهم يعد اجتهدا موصلا لوجه واحد، أو لعدة وجوه ربما، من الحقيقة، لكنه لا يحصرها ولا يستوعبها استيعابا كاملا. وانطلاقا من المبدأ الإسلامي القائل إن «لكل مجتهد نصيب»، وأن «المجتهد له أجران إن أصاب، وله أجر واحد إن أخطأ» فإن ابن عربي لا يُخطئ أحدا في إيمانه ولو أخطأ في فكره ونظره. من هنا لا مجال للتكفير عند شيخنا، فالخطأ يقع دائما فقط حين يزعم الزاعم -أيا كان- أن منظوره للحقيقة هو المنظور الكامل والنهائي.

ولعل ما يرويه الشيخ في «الفتوحات» عن لقاءه بشيخ فلاسفة عصره «أبو الوليد ابن رشد»، ما يكشف عن رؤية الشيخ كشفا صريحا لحدود النظر الفلسفي وإمكانياته في الاقتراب من الحقيقة. ومنذ كتب هنري كوربان كتابه القيم عن «الخيال الخلاق عند ابن عربي»^(١)، واهتم اهتماما خاصا بتحليل هذا اللقاء والكشف عن مغزاه بالنسبة للفارق بين الفلسفة العقلية -الأرسطية بصفة خاصة كما يمثلها «ابن رشد» - وبين الفلسفة الإشراقية والتصوف من جهة والشيخ الأكبر من جهة أخرى، وهذا اللقاء يكاد يكون دائما محورا أساسيا في أى دراسة غربية أو عربية عن «ابن عربي» في الدورية التي تصدرها الجامعة الأمريكية بالقاهرة بعنوان «ألف: مجلة البلاغة المقارنة» تم تخصيص العدد السادس عشر الذي صدر عام ١٩٩٦ لموضوع «ابن رشد والتراث العقلاني في

(١) سبق ذكره.

الشرق والغرب». فى هذا العدد ينشغل باحثان أحدهما عربى والآخر غربى بتحليل هذا الدلالة، أو الدلالات الرمزية لهذا اللقاء بين فيلسوف قرطبة وقاضيه وبين الشيخ الأكبر. ولعله من المفيد قبل أن نرى كيف تعامل هذان الباحثان على سبيل المثال مع الرواية السردية أن نضع الرواية بكاملها أمام عين القارئ ليتمكن من متابعة النقاش. تتكون رواية ابن عربى من عدة نصوص سنمنحها نحن من عندنا أرقاماً لنرى كيف وقف كل باحث عند جزء من الرواية وجعله مركز الدلالة، ولنرى كيف تم لكل باحث تأويل الأجزاء الأخرى من الرواية وفقاً لرؤيته الخاصة للمركز.

إن منهجنا فى التحليل يضع فى اعتباره أنه يتعامل مع بنية سردية، تلعب الذاكرة فيها دوراً لا يمكن إغفال تأثيره فى إعادة بناء الواقعة فى السرد. بعبارة أخرى علينا أن نميز بين شخصية «الراوى» - وهو «ابن عربى» كاتب الفتوحات - وبين شخصية «البطل» فى السرد، والذى قد يكون «ابن عربى» الفتى، ولكن مرسوماً بقلم «ابن عربى» الشيخ. هذا التمييز التحليلى من شأنه أن يمنحنا قدراً من الحرية فى تحليل السياق الواضح فى السرد من جهة، والغائب من فضائه فى نفس الوقت. ذلك ممكن بحكم «المسافة» التى نفترضها بين «الراوى» و«البطل» فى البناء السردى. هذا هو المنهج العام. وهو المنهج الذى سنتعامل به مع قصة لقاءات الشيخ مع الفيلسوف، اللقاءات التى يروى لنا ابن عربى أحداثها مرتبة على الوجه التالى فى المجلد الأول من كتاب «الفتوحات المكية»، وذلك فى الباب الخامس عشر من الكتاب، والذى عنوانه «الأنفاس ومعرفة أقطابها المحققين بها وأسرارهم»:

١. اللقاء الأول:

دخلت يوماً بقرطبة على قاضيه أبى الوليد ابن رشد وكان يرغب فى لقائى لما سمع وبلغه ما فتح الله به علىّ فى خلوتى. وكان يُظهر التعجُّب مما سمع. فبعثنى والدى إليه فى حاجة قصداً منه حتى يجتمع بى، فإنه كان من أصدقائه. وأنا صبيٌّ ما بقل وجهى ولا طرَّ شاربى. فلما دخلت عليه قام من مكانه إلى محبة

وإعظاما، فعانقنى وقال لى: نعم، فقلت له: نعم. فزاد فرحه بى لفهمى عنه. ثم استشعرت بما أفرحه فقلت له: لا؛ فانقبض وتغير لونه وشك فيما عنده، وقال: كيف وجدتكم الأمر فى الكشف والفيض الإلهى؟ هل هو ما أعطاه النظر؟ قلت له: نعم لا، وبين نعم ولا تطير الأرواح من مواردها والأعناق من أجسادها. فاصفر لونه وأخذة الإفكل وقعد يحوقل، وما عرف ما أشرت إليه، وهو عين المسألة التى ذكرها هذا القطب، أعنى مداوى الكلوم.

٢ - اللقاء الثانى : الأمل الذى لم يتحقق!

«وطلب من أبى بعد ذلك الاجتماع بنا ليعرض ما عنده علينا، هل هو يوافق أو يخالف؟ فإنه كان من أرياب الفكر والنظر العقلى؛ فشكر الله تعالى الذى كان فى زمن رأى فيه من يدخل خلوته جاهلا وخرج مثل هذا الخروج، من غير درس ولا بحث ولا مطالعة ولا قراءة، وقال: هذه حالة أثبتناها وما رأينا لها أريابا؛ فالحمد لله الذى أنا فى زمان فيه واحد من أريابها الفاتحين مغاليق أبوابها، والحمد لله الذى خصنى برؤيته.»

٣ - اللقاء الثالث : أين ومتى؟

ثم أردت الاجتماع به مرة ثانية؛ فأقيم لى رحمةً من الله فى الواقعة فى صورة ضُرب بينى وبينه حجاب رقيق، أنظر إليه منه ولا يبصرنى ولا يعرف مكانى، وقد شُغل بنفسه عنى، فقلت: إنه غير مراد لما نحن فيه .

٤ - اللقاء الأخير : بعد الرحيل:

فما اجتمعت به حتى دُرِج وذلك فى سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمدينة مراکش ونُقل إلى قرطبة وبها قبره. ولما جُعل التابوت الذى فيه جسده على الدابة جُعِلَت تآليفه تعادله من الجانب الآخر، وأنا واقف ومعى الفقيه الأديب أبو الحسن محمد بن جبير كاتب السيد أبى سعيد وصاحبى أبو الحكم عمر بن

السراج الناسخ، فالتفت أبو الحكم إلينا وقال: ألا تنظرون إلى من يعادل الإمام ابن رشد في مركوبه؟ هذا الإمام وهذه أعماله، يعنى تأليفه، فقال له ابن جبير: يا ولدى، نعم ما نظرت، لا فُض فوك فقيدتها عندي موعظة وتذكرة، رحم الله جميعهم وما بقى من الجماعة غيري، وقلنا في ذلك:

هذا الإمام وهذه أعماله يا ليت شعري! هل أتت أماله؟

يتخذ الباحث العربي ^(٢) من «اللقاء الأخير» - الرابع حسب ترقيمنا - مركزاً لتحليله، فيتوقف عند دلالة السؤال في نهاية البيت الشعري والخاص بآمال فيلسوف قرطبة. ويرى أن ابن عربي هنا لا يعبر عن حيرة بقدر ما يعبر عن وعي حاد. هكذا يقول الباحث - بأن شيئاً من آمال ابن رشد لم يتحقق أبداً - ويرى الباحث أن تلك الآمال التي لم تتحقق تتمثل في عدم قدرة خطاب ابن رشد على اختراق السياق الثقافي الديني العربي، مشيراً بذلك إلى «محنة» ابن رشد وما تدل عليه من «تهميش» الخطاب الرشدي، الذي وجد لنفسه متفلساً وامتداداً خلافاً خارج إطار الثقافة العربية الإسلامية، هناك في عالم الشمال.

هذا الاستنتاج لمعنى «الآمال» التي لم تتحقق يستتبطه الباحث لا من عبارات ابن عربي الصريحة، بل من تصويره الرمزي الفريد لمشهد نقل رفات ابن رشد من جنوب المتوسط (مراكش) إلى شماله (قرطبة)، وذلك من حيث إن الرفات لم يكن وحده الذي غادر عبر البحر بل كانت النصوص أيضاً قد غادرت في معيته، لأنها «جُعِلَتْ تعادله من الجانب الآخر» بحسب نص عبارة ابن عربي. ويهمنا هنا تأكيد كون الباحث يقرأ نص ابن عربي قراءة رمزية مدركاً أن ابن عربي هنا هو «القاص» و«الراوي»، ومدركاً أن لغة السرد يمكن أن تقول أحياناً أكثر مما يبدو أنها تعنى على مستوى الدلالة السطحية. وطبقاً لهذه القراءة الرمزية، فإن معادلة رفات جثمان الفيلسوف بمؤلفاته لِيُنْقَلَ الكل من جنوب المتوسط - من مراكش - إلى شمال المتوسط - إلى قرطبة - هي بمثابة عملية «نفي» واستبعاد من

(٢) على مبروك: «الانكسار المراوغ للعقلانية: من ابن رشد لابن خلدون»، ص ٨٩ - ١١٥: من القسم العربي.

(I) Steffen Stelzer, "Decisive Meetings: Ibn Rushd, Ibn `Arabi, and the Matter of Knowledge", pp. 19-55 of the English section.

النظام الثقافي العربي الإسلامي لمنظومة «ابن رشد» إلى «الشمال» حيث وجدت أرضاً خصبة احتضنتها، وفيها أنتجت ثمارها، وتحققت «أمال» ابن رشد.

الباحث الغربي على عكس الباحث العربي يخصص مقالته كاملة لتحليل الجوانب المختلفة للقاءات -بصيغة الجمع- ابن عربي مع ابن رشد. ومع ذلك فالدلالات المستتبطة تركز على اللقاءين الأول والثالث بصفة أساسية. ونقطة انطلاقه الأساسية أن الموضوع المطروح في هذه اللقاءات ليس هو «المعرفة» knowledge بل هو على وجه التخصيص «موضوع المعرفة - the matter of knowledge». وما يقصده الكاتب بموضوع المعرفة هو معرفة أمر «المعاد» أي أمر الآخرة. هذا التحديد لبؤرة الموضوع الذي يتحاور فيه ابن عربي مع فيلسوف قرطبة يعتمد على عدة مرتكزات يهمننا هنا الإشارة إليها لاتفاقنا مع بعضها واختلافنا مع الكثير منها .

١ - الركيزة الأولى أن ابن رشد ينتمى إلى نظام معرفي مغاير تماماً للنظام المعرفي الذي ينتمى إليه الطفل ابن عربي دليل المؤلف على ذلك أن الفيلسوف أراد أن يرى الطفل، فليس هناك ما يُقرأ لفهم ما حدث للطفل. مفهوم هنا أن المؤلف يحصر طريق الفيلسوف في تحصيل المعرفة في قراءة الكتب وتوظيف أدلة القياس وأدوات الاستنتاج والبرهان العقلي، هذه هي القناة الوحيدة للمعرفة. ولهذا لم يكن من سبيل أمام الفيلسوف لاكتشاف حقيقة الأمر بالنسبة لما سمعه عن الفتى إلا «اللقاء»، ومن ثم سعى إليه ورتب له. وسنرى أن هذا التصور لوجود نظامين معرفيين تصور مثالي مأخوذ من الدلالة الحرفية للقصة السردية للقاء، حسب صياغة ابن عربي الشيخ .

٢ - الركيزة الثانية أن سياق القصة في كتاب الفتوحات هو الحديث عن «القطب مداوى الكلوم» وما ذكره من مقارنة بين «الدنيا» و«الجنة» وتشابهما من حيث البنية -كلاهما مبنى من وحدات من لبنٍ وأجر (طوبى -) واختلافهما من حيث المادة، فلبن «الدنيا» من «طين وقش» بينما لبن «الجنة» من «ذهب وفضة»^(٢)

(٢) هذا القطب «مداوى الكلوم» هو «الخضر» انظر الفصل السابق.

بناء على السياق يرى المؤلف أن معرفة «الأخرة» هو موضوع الخلاف بين ابن عريى الفتى والشيخ الفيلسوف. سنرى أن حصر دلالة اللقاء فى سياق الباب الذى ورد فيه، بل فى سياق الفكرة التى تسبق السرد مباشرة، أمر يتأبى على الانسجام مع طبيعة بنية خطاب ابن عريى التى يصعب إدراجها فى نسق تأليفى بعينه. إن مؤلفات الشيخ أشبه فى نظامها السردى بالقرآن الكريم. هكذا يؤكد الشيخ نفسه فى أكثر من موضع من كتبه. فى القرآن يمكن أن يدرك القارئ بسهولة الانتقال فى السورة الواحدة من موضوع إلى موضوع، وهى موضوعات قد توجد فى سياق سورة أخرى بترتيب ونسق مغاير. ابن عريى حريص على أن يلفت قارئه إلى ضرورة التنبه إلى هذه البنية السردية الخاصة لمؤلفاته، وهو موضوع سنناقشه تفصيلاً فى الفصل القادم. وهى بنية يصعب معها حصر وحدة سردية ما - أقصد هنا قصة لقائه بابن رشد - فى سياق وحدة سردية سابقة أو تالية حصراً تاماً. يمكن بالفعل اكتشاف علاقات بين الوحدات السردية، لكن اعتراضى ينصب على حصر الدلالة فقط فى سياق ما سبق أو ما يتلو من وحدات سردية.

٣ - الركيزة الثالثة ركيزة نصية، إذ يرى المؤلف أن ابن رشد سأل الفتى سؤالين لا سؤالاً واحداً حين قال: كيف وجدت الأمر فى الكشف والفيض الإلهى؟ هل هو ما أعطاه النظر؟ وبناء على هذا التوصيف يرى أن إجابة الفتى «نعم» هى إجابة عن السؤال الأول، والمعنى المقصود «نعم لقد وجدت الأمر فى الكشف والفيض الإلهى» بينما يرى المؤلف أن «لا» إجابة عن السؤال الثانى، والمعنى أن ما وجده الفتى فى الكشف والفيض الإلهى ليس هو ما أعطاه النظر. ومن الصعب لغوياً اعتبار ابن رشد سأل الفتى سؤالين، بل سأل سؤالاً واحداً يتعلق بمواصفات المعرفة التى تحصلت للفتى؛ أى هو سؤال عن الكيفية، وما إذا كانت هذه المواصفات مماثلة كفيها لمواصفات المعرفة النظرية أم لا.

السؤال الغائب فى تحليل الباحث: كيف يمكن لابن عريى «الفتى الذى ما طرَّ شاريه بعد» أن يعرف ما إذا كان الكشف يتعارض مع «النظر» أم لا، وهو الذى لم يكن قرأ كتاباً بعد؟ إلا يعنى هذا أن المجيب بـ «نعم ولا» على السؤال - سؤال

واحد لا سؤالين- هو ابن عربي الشيخ-الذي أتيح له أن يقرأ ويقارن ويحكم- وليس الفتى الذي ما طرَّ شاربه بعد؟ إنه ابن عربي الشيخ الذي يردد كثيرا -في إشارة لابن رشد - «وقد سمعت واحدا من أكابرهم (=العقلاء) وقد رأى ما فتح الله به عليّ من العلم سبحانه من غير نظر ولا قراءة، بل من خلوة خلوت بها مع الله ولم أكن من أهل الطلب فقال: الحمد لله الذي أنا في زمان رأيت فيه من أتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما» (٣٦٢/١) ومن الواضح في هذا «الاستشهاد» القرآني الذي يرويهِ ابن عربي على لسان الفيلسوف أنه يحيل إلى أن الفيلسوف المسلم يعلم من القرآن، قصة العبد الصالح (الخضر)، ولا يستبعد أن يهب الله من عنده علما لأحد عباده. والسؤال: هل اللقاء يعكس بالفعل مواجهة بين نظامين معرفيين؟ لتأمل تحليلنا للقاءات حسب تقسيمنا السالف:

١ - اللقاء الأول:

ومن الواضح أنه لقاء تم بناء على طلب «ابن رشد» نفسه الفيلسوف وقاضى «قرطبة» ورجل البلاط الملكي. سمع الفيلسوف قصة الفتى - الذي لم يكن قد بلغ سن النضج بعد - وما توصل إليه من خلال «الخلوة» من معارف وعلوم تحتاج إلى سنوات من معاناة القراءة والتدبر والتأمل. سمع الفيلسوف بذلك، الأمر الذي يعنى أن أمر الفتى محمد بن العربي كان يتردد على الألسن، هكذا يحكى لنا الشيخ على الأقل وهو يكتب فتوحاته ويتذكر، ربما بعد أكثر من ربع قرن من هذا اللقاء. فنحن نعرف يقينا أن الشيخ ولد سنة ٥٦٠ / ١١٦٥ وأنه بدأ في كتابة «الفتوحات» سنة ٥٩٨/١٢٠٢ . ومكان اللقاء هو «قرطبة» بعد أن أعد «الأب»، الذي كان صديقا للفيلسوف القاضى، أمر اللقاء بإرسال الفتى في حاجة ما بينما كان القصد - يقول الشيخ - تحقيق رغبة قاضى قرطبة المرموق في لقاء الفتى الأعجوبة .

لا ينبغي في تقديري أن يشغلنا السؤال عن قصد «ابن رشد» من اللقاء؛ لأن «ابن رشد» لم يذكر في كتاباته شيئا عن هذا اللقاء في حدود ما نعلم، ولم يذكر أحد ممن اهتم بهذا اللقاء ودلالته - فيما قرأت - شيئا عن أى رواية لابن رشد أو

إشارة لهذا اللقاء. إنه «ابن عريى» الذى يسرد لنا اللقاء من ذاكرته، ونحن نعلم أن «الذاكرة» تعيد تشكيل الحدث من خلال الأسلوب السردى. فماذا يقول لنا ابن عريى عن هذا اللقاء، الذى لم يكن من المفترض أن يكون مستعدا له؟ يقول الشيخ حاكيا عن «الفتى» أن قاضى «قرطبة» وفيلسوف البلاط ومترجم أرسطو قام له بإجلالا ومحبة وعانقه عناق الصديق. لكن الأهم من ذلك أن الشيخ الفيلسوف بدأ مخاطبة الفتى بلغة الرمز سائلا: نعم؟ لا بد من وضع علامة الاستفهام؛ فالكلمة لا بد أن تكون -وفقا لأسلوب السرد- قد نُطِقت بنغمة السؤال الذى يتطلب إجابة. وكانت الإجابة تكرارا لنفس الكلمة ولكن بتفيم الجواب: نعم.

طبقا لأسلوب السرد نفهم أن «الفتى» ابن عريى كان مستعدا للقاء، بل ومتحفزا له. وهنا لا بد لنا أن نؤكد أهمية التمييز فى السرد بين «الراوى» - وهو ابن عريى مؤلف الفتوحات الذى وصل إلى سن الأربعين أو قريبا منها - وبين «الفتى» بطل السرد بلا منازع. وبدون هذا التمييز تختلط علينا الأمور فى التحليل والفهم واستتباط الدلالة. يحكى الراوى عن الفتى أن «ابن رشد» زاد فرحه بالفتى لما لمسه من سرعة بديته وفهمه عنه. ثم يواصل الراوى الحكاية على لسان الفتى: «ثم استشعرت بما أفرحه فقلت له: لا؛ فأنقبض وتغير لونه وشك فيما عنده».

تعددت التأويلات والشروح لهذا «اللغز» الذى يجمع بين «الإثبات» فى قول الفتى «نعم»، وبين «النفى» فى قوله «لا» بعد ذلك مباشرة. ولكن ابن عريى - على لسان الفتى - يكشف للقارئ أن الباعث على «النفى» بعد «الإثبات» كان إزالة «الفرحة» التى ظهرت على وجه قاضى قرطبة بالإثبات. ولا يحتاج القارئ إلى من يرشده إلى «الموضوع» الذى يمكن إثباته ويمكن نفيه فى نفس الوقت. الموضوع هو التساؤل من جانب فيلسوف البلاط وقاضى قرطبة عن «الاتفاق» بين نتائج تجربة العقل واستنتاجاته المنطقية من جهة، وبين تجربة الروح التى تعتمد على الخلوة وتلقى الإلهامات الريبانية من جهة أخرى. وهو تساؤل لا نستبعد نحن أنه صحيح، بصرف النظر عن طريقة العرض الدراماتيكية فى سرد الشيخ الأكبر.

فيلسوف قرطبة هو فى النهاية كما نعرف تلميذ «أبو بكر ابن طفيل» (ت: ٥٨١ هجرية / ١١٨٥ م). (وهذا الأخير هو الذى قدّم ابن رشد التلميذ إلى «يعقوب أبو يوسف» (٥٥٨ - ٥٨٠ / ١١٦٣ - ١١٨٤) الخليفة الثالث فى دولة «الموحدين». كان الخليفة قد شكّا لابن طفيل من صعوبة قراءة ترجمات أرسطو العربية وأبدى رغبة فى إعادة ترجمتها إلى لغة يمكن قراءتها . وكانت تلك هى المهمة التى طلب «ابن طفيل» الشيخ من «ابن رشد» الشاب أن يقوم بها . إن تساؤل ابن رشد الموجه للفتى: كيف وجدتم الأمر فى الكشف والفيض الإلهى: هل هو ما أعطاه النظر؟ ينطلق من خلفية فكرية يمكن تلمس ملامحها قبل «ابن رشد» فى الأليجوريا التى كتبها أستاذه «حى بن يقظان». وهى الأليجوريا الفلسفية التى كتبها قبل «ابن طفيل» كل من «ابن سينا» و«السهروردي».

٢ . البرهان والعرفان، لقاء لا صدام:

وتجربة «حى بن يقظان» التى قصّها «أبو بكر ابن طفيل» هى تجربة فكرية روحانية لنموذج الإنسان بإطلاق، أى الإنسان المتوحد خارج الزمان والمكان واللغة والثقافة والدين. وهناك بعدان على الأقل نهتم بهما فى هذه التجربة: أما البُعد الأول الذى يهمنى هنا لاتصاله بسؤال الفيلسوف الكبير، فهو الذى يتجلى فى القصة . قصة «حى بن يقظان» . فى طبيعة الأدوات المعرفية التى أوصلت بطل القصة إلى إدراك الحقيقة، بل ومعاينتها، بلا معرفة مسبقة دينية أو غير دينية. أما البعد الثانى وهو بُعد عدم التعارض بين «الشرعية» و«الحقيقة»، وهو بُعد نعلم أن «ابن رشد» أفرد له رسالته المعروفة باسم «فصل المقال فيما بين الحكمة والشرعية من الاتصال». وفى هذه الرسالة يُسلم قاضى قرطبة - كما سلم «حى» فى القصة كما سنرى - بحقيقة تفاوت مستويات البشر فى إدراك الحقائق. لكن «ابن رشد» يميّز - كما هو معروف - بين ثلاث طبقات فى البشر: «أهل البرهان»، وهم الفلاسفة، و«أهل الجدل» وهم المتكلمون اللاهوتيون، و«أهل الخطابة» وهم العامة . ولأن الله بعث الأنبياء للبشر كافة - أسودهم وأحمرهم - فقد تضمن القرآن الكريم فى لغته وأسلوبه أنواعا ثلاثة من «الخطاب» لتلائم

أنواع البشر؛ فتضمن الأسلوب الخطابى الشعرى -أو المجازى- الذى يلائم «العوام»، كما تضمن الأسلوب الجدلى الذى يلائم «المتكلمين» أهل الجدل، هذا بالإضافة إلى الأسلوب البرهانى الذى يلائم الحكماء والفلاسفة.

القصة الفلسفية التى نحن على وشك الإبحار فى بعض شطآنها تتعامل سردياً مع قضية «المعرفة». وبدءاً من العنوان الذى اختاره «أبو بكر بن طفيل» لقصته الفلسفية «حى بن يقظان»، لا يستطيع الباحث إلا أن يتأمل دلالتة: فحى يمثل «الحياة» التى لا تتجلى إلا فى «يقظة» العقل والروح. فى ضوء هذا التلازم بين يقظة «المعرفة» و«الحياة» الحقيقية يختار ابن طفيل اسم بطل قصته؛ ليشير إلى «مطلق» الإنسان؛ ولِيُحِيلَ إحالة رمزية إلى إمكانات هذا الإنسان «حى بن يقظان» فى الوصول وحده إلى أرقى درجات المعرفة. وعليها أن نشير هنا إلى دلالة صيغة المبالغة «فعلان» التى تعنى كامل اليقظة، أو يقظة الامتلاء بالوعى، لا مجرد اليقظة التى هى غياب حالة النوم. إن «حى» يقظان -وليس مجرد مُتَيَقِّظ- ولهذا فهو «حى» بالمعنى الحقيقى للحياة، التى هى اكتمال المعرفة.

تتأكد تلك الطبيعة المطلقة لشخصية البطل حين يطرح ابن طفيل احتمالين لميلاده: الاحتمال الأول، والذى يبدو من السياق السردى أنه الاحتمال الراجح عند ابن طفيل، هو أنه ولد من الطبيعة من غير أب أو أم^(٤) والوصف التفصيلى لعملية «التولد» الطبيعى تلك تبدو تصويراً أو إعادة تمثيل لقصة خلق جسد «آدم» من عناصر الطبيعة أو الأساطيسات الأربعة، ثم بث الحياة فى هذا الجسد بالنفخة الإلهية. ويتزايد تأكيد صفة الإطلاق فى البطل، أى من حيث دلالتة على مطلق الإنسان، حين يواجه البطل للمرة الأولى مواجهة مباشرة معضلة «الموت» متمثلة فى موت «الظبية»، التى كانت له بمثابة الأم. كان قد بلغ من العمر سنوات سبع، واستطاع أن يتأقلم مع الحياة فى الجزيرة بحيواناتها ووحوشها عن طريق «التقليد» أولاً، ثم بدأ فى ابتكار بعض الحلول التى عمقت وعيه بتمييزه عن الحيوانات والوحوش واستقلاله عنها. حاول أن يكتشف «العلة» التى أفضت إلى

(٤) حى بن يقظان، تقديم وتعليق: البير نصرى نادر، دار المشرق، بيروت، ط٤، ص: ٢٩٠. سنكتفى بعد ذلك بالإحالة فى المتن إلى رقم الصفحة بين قوسين.

الموت؛ فقام بتشريح جثة الطيبة حتى وصل إلى التجويف الأيسر من «القلب»، فلما وجده خاليا أدرك أن خُلُوّه دليل على أنه موطن «سرّ» الحياة.

ويتهدى «حى» إلى عملية «دفن» جثمان الطيبة بالتقليد ، تقليد الغراب الذى صرع غرابا آخر وقام بدفنه . والمشهد فى قصتنا هذه يكاد ينقل المشهد القرآنى فى قصة ابنى آدم «قابيل» و«هابيل»، باستثناء ما تتضمنه القصة القرآنية من النص على أن الله هو الذى «بعث» الغراب ليُرى القاتل كيف يوارى سوءة أخيه (المائدة : ٣١) لكن هذه الدلالة غير غائبة عن قصتنا؛ لأن إحساس «حى» بأنه كان أحق من الغراب بالاهتداء إلى عملية الدفن يعمّق فى نفس القارئ استدعاء الدلالات الموجودة فى الأصل، على أساس أنها مضمرة فى النص الراهن مهما كانت غائبة. ومن هنا يمهد النص قارئه لإدراك أن العقل الإنسانى فى سعيه المخلص والدعوب للمعرفة والفهم تحوطه العناية الإلهية وترعاه دائما .

هذا البطل الكونى المطلق، أو العقل الخالص، يعيش فى جزيرة مهجورة من الجزائر الموهومة أو المتخيلة. وهى جزيرة مثالية الموقع الجغرافى والمناخ «أعدل بقاع الأرض هواء» ، فليس بها «حرّ مفرط ولا برد مفرط» ، وهى بالإضافة إلى ذلك أتم الأماكن استعدادا «لشروق النور الأعلى عليها» (ص : ٢٦ - ٢٧). فى هذه الجزيرة لا يوجد من البشر سوى هذا الإنسان الذى لا يدرك القارئ ما إذا كان ذكرا أم أنثى إلا بدلالة الاسم المُذكّر «حى»، بالإضافة إلى جملة واحدة فى النص كله. وردت هذه الجملة الوحيدة فى سياق مقارنة «حى» بين أجساد الحيوانات وبين جسده؛ فلاحظ ضمن ما لاحظ أنها «أخفى قضباناً منه» (ص: ٣٤) . هذا الإنسان لا يحتاج مجتمعا ولا لغة، فضلا عن أن نقول تعليما أو ثقافة، لكى تتمو مداركه أو تستيقظ حواسه أو ينشط عقله ويتحرك وعيه. وبالمعرفة العقلية الاستدلالية وصل إلى معرفة وجود الله ومعرفة ما يليق به من الصفات، وذلك بعد أن وصل إلى إثبات «حدوث» العالم؛ واستتباط حاجته فى وجوده إلى «محدث» مغاير له فى الطبيعة والصفات.

هذا مستوى ما وصل إليه «حى»، فى سن الخامسة والثلاثين، من معرفة عقلية أساسها ومصدرها النظر فى الأدلة الوجودية . وقد حرّكت تلك المعرفة

أشواقه إلى مشاهدة جمال ذلك الموجود الذي أثبتته عقله، وهذا ما يُميّز «حى» عن إنسان المتكلمين أو إنسان الفلاسفة البرهانيين. إن «حى» يمثل نموذج الإنسان عند العرفانيين من المتصوفة والفلاسفة على السواء. إنه باختصار «الإنسان العارف»، الكامل والنموذج، الذى أنتجه الوعى الإسلامى. إن البراهين العقلية الوجودية لا تكفى هذا الإنسان لتحقيق السعادة التى تتمثل فى معانقة المطلق والاتحاد به. المعرفة «العقلية» مرحلة لإدراك ظاهر الوجود، والتوصل إلى «معرفة» الخالق والمبدع، مجرد معرفة تثير الشوق وتوقظ الجنين إلى «التواصل»، تواصل اليقين بالكشف والمشاهدة لا مجرد الاكتفاء بالمعرفة.

والسبيل إلى ذلك الكشف وتلك المشاهدة لا يكون إلا بالنفاذ من سجن الكون الذى هو حجاب يخفى وجه المحبوب. ولأن «الإنسان» جسد وروح - هكذا يتوصل العقل بالمعرفة - فأول الطريق يبدأ بإسقاط ما سوى الضرورى من حاجات «الجسد»، الذى ليس فى الحقيقة إلا مُختَصراً للكون، وذلك من أجل تطهير النفس وتنقيتها من الشواغل حتى تصل إلى حالة الاستعداد للاتصال بمصدرها وأصلها الأول.

هكذا يبدأ «حى» رحلته، ويواصل بطلنا مجاهداته منتقلاً من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام حتى فَنَى عن ذاته وعن جميع الذوات، وتحقق له المراد. وتصل القصة إلى ذروتها وختامها، ونصل معها نحن القراء إلى «بيت القصيد» وبؤرة الدلالة. يصل إلى الجزيرة «أسال»، عابد متبتل زاهد يطلب العزلة، واسمه دال على ما يعتمل بنفسه من «أسئلة». وكان «أسال» هذا على خلاف مع صديق له من أتباع دينه وأهل موطنه، كان «أكثر احتفاظاً بالظاهر، وأشد بعداً عن التأويل، وأوقف عن التصرف والتأمل» (ص: ٨٩). واسم هذا الصاحب الغائب إلا من حديث «أسال» عنه «سلامان» الدال على إيثار «السلامة» بلزوم الجماعة والتمسك بقولها.

«لما كان فى طباعه من الجُبْن عن الفكرة والتصرّف. فكانت ملازمته للجماعة عنده مما يدرأ الوسواس، ويزيل الظنون المعترضة، ويعيد من همزات الشياطين» (ص: ٩٠).

يلتقى كل من «حى» و«أسال» ، ويقوم «أسال» بتعليم بطلنا اللغة: «بأن كان يشير له إلى أعيان الموجودات ، وينطق بأسمائها، ويكرر ذلك عليه ، ويحمله على النطق؛ فينطق بها مقترنا بالإشارة؛ حتى علّمه الأسماء كلها، ودرّجَه قليلا حتى تكلم فى أقرب مدة (ص: ٩٢) والتأكيد من عندنا؛ لأن الوصف يستدعى إلى «النص» عملية تعليم «آدم» الأسماء كما شرحتها كتب التفسير ثم كانت المفاجأة المذهلة حين سمع «أسال» وصف «حى» لحقائق الوجود كما شاهدها وعانيتها؛ فتيقن

أن جميع الأشياء التى وردت فى شريعته من أمر الله عز وجل، وملائكته وكتبه، واليوم الآخر، وجنته وناره، هى أمثلة هذه التى شاهدها حى بن يقظان. فانفتح بصر قلبه (أى أسال)، وانقدحت نار خاطره، وتطابق عنده المعقول والمنقول، وقربت عليه طرق التأويل، ولم يبق عليه مشكل فى الشرع إلا تبين له، ولا مُغلق إلا انفتح، ولا غامض إلا اتضح. وصار من أولى الألباب. وعند ذلك نظر إلى حى بن يقظان بعين التعظيم والتوقير. وتحقق عنده أنه من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (ص: ٩٢ - ٩٣).

ويقوم «أسال» بالمثل بإعلام «حى» بشأن الجزيرة التى جاء منها، ويعرفه بالدين الذى يؤمن به، وبأوامره ونواهيه، بعباداته ومعاملاته.. الخ. وهنا لا يجد «حى» إلا توافقا كاملا بين ما توصل إليه فى توحّده وخلوته وبين ما جاء به «الوحى» جملة. أما فى التفاصيل فقد تملكته الحيرة فى بعض الأمور؛ لأنه لم يدر وجه الحكمة فيها. من هذه الأمور: لماذا يعتمد الوحى فى «أمر العالم الإلهى»، وفى «أمر الثواب والعقاب» على ضرب الأمثال دون المكاشفة بالحقيقة بلغة صريحة لا تحتل التأويل والاختلاف؟ أليس هذا الاعتماد على «التمثيل» فى العبارة عن تلك الحقائق هو الذى أوقع «الناس فى أمر عظيم من التجسيم واعتقاد أشياء فى ذات الحق، هو مُنَزَّه عنها وبرئ منها؟». والأمر الثانى الذى أثار حيرة «حى» هو أمر العبادات والمعاملات؛ إذ رأى فى الوحى «اختصارا» فى العبادات إذا قورن بما ورد من «تفصيل» وتطويل فى المعاملات (ص: ٩٣ - ٩٤).

ولقد سبق للمتكلمين أن تناولوا المشكل الخاص بالعبارات التمثيلية، أو المجازية، في القرآن الكريم في سياق مناقشاتهم لقضية «المحكم والمتشابه»، وهي قضية أثارها الخطاب القرآني ذاته (آل عمران/٧). وكانت إجاباتهم تتلخص - رغم اختلاف اتجاهاتهم وميولهم الإيديولوجية - في أن الحكمة الإلهية اقتضت من وراء ذلك إثارة العقل الإنساني من أجل تحريكه للاجتهاد تعريضا للمجتهد لمزيد من الثواب، وتمييزا له عن المقلد^(٥). لكن الخطاب الفلسفي عامة، وانطلاقا من التقسيم الحاد للبشر إلى خاصة وعامة، أو إلى «ذوي الفطر الفائقة» و «ذوي الفطر الناقصة» - إذا استخدمنا عبارة ابن طفيل - جعل من الوحي مجرد خطاب للعامة يتناسب مع نقص فطرتهم، لكنه يتضمن «إشارات وتبسيهات» للخاصة والحكماء تمكنهم من تأويل عباراته المجازية والتمثيلية تأويلا يكشف الدلالات الحقيقية المقصودة من ورائها. واعتبرت هذه التأويلات الكاشفة عن الحقيقة «مُحرّمة» على العامة «مضنونا بها» على غير الخاصة، سواء كانوا من أهل البرهان أم من أهل العرفان^(٦).

هكذا يرحل «حي» مع صاحبه «أسال» إلى الجزيرة التي أتى منها الأخير، أملا أن «تكون نجاتهم (أي أهل الجزيرة من جهلهم، نتيجة إصرارهم على التمسك بالظاهر دون تأويل) على يديه» بإيضاح الحقيقة وتبيينها لهم. لكنه حين شرع «في تعليمهم وبث أسرار الحكمة إليهم» وجد منهم انقباضا واشمئزازا وسخطا، لأنه، كما يعلل الراوي ببساطة متناهية، «لم يكن يدري ما هم عليه من البلادة والنقص، وسوء الرأي، وضعف العزم، و أنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا» (الفرقان/ ٤٦) (ص: ٩٤ - ٩٥) وأخيرا يتحقق «حي» بأن شأن العامة التمسك بالظواهر والركون إلى التمثيلات والتشبيهات بوصفها حقائق حرفية، فأدرك «أن

(٥) تناولنا هذه القضية في سياق دراستنا: الاتجاه العقلي في التفسير، دراسة في قضية المعاز في القرآن عند المعتزلة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ص ١٦٤ - ١٩٠.

(٦) تعرّضنا لهذه القضية في سياق دراستنا: «خطاب ابن رشد وضغوط الخطاب النقيض»، في العدد المشار إليه سابقا من مجلة «ألف للبلغة المقارنة»، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٩٦، ص ٣٥-٦ من القسم العربي. وقد أعيد نشر الدراسة في كتاب الخطاب والتأويل، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، الفصل الأول ص: ١٩ - ٥٧.

الحكمة كلها ، والهداية والتوفيق فيما نطقت به الرسل، ووردت به الشريعة، لا يمكن غير ذلك، ولا يحتمل المزيد عليه» (ص: ٩٦ - ٩٧) وقبل أن يغادر الجزيرة هو و«أسال» عائدان إلى جزيرة «حى» توجه «حى بن يقظان» إلى الناس متظاهرا بالتوبة عن الآراء التى سبق أن أعلنها لهم، وأوصاهم بملازمة ما هم عليه من التزام حدود الشرع والأعمال الظاهرة، وقلة الخوض فيما لا يعنيههم، والإيمان بالمتشابهات والتسليم لها، والإعراض عن البدع والأهواء، والاقتداء بالسلف الصالح، والترك لمحدثات الأمور (ص : ٩٧).

٣ - حل ابن رشد وحل للتعارضات:

يمكن لنا بلا شك أن نعتبر القصة الفلسفية التى صاغها شيخ «ابن رشد»، والتى سبق لكل من «ابن سينا» و«السهروردي» كتابتها لتتقل نفس المعنى، تعبيرا عن اللقاء الذى تحقق بين الفلاسفة العقلين وفلاسفة الإشراق، والذى على أساسه أصبح للعرفان مكانا إلى جانب «البرهان». أصبح «البرهان» فى هذا النسق الفلسفى «مقدمة» لا بد منها قبل الولوج إلى عالم «العرفان»، الذى اكتسب مكانة أعلى، رغم أن الوصول إليها مستحيل دون المرور بالبرهان. لكن هذا الاتصال بين «البرهان» و«العرفان» ظل كما هو واضح فى القصة سجين إشكالية الحقيقة المزدوجة. يتبدى ذلك فى تساؤلات «حى» عن الحكمة فى توظيف التمثيل والمجاز فى التعبير عن الحقائق، وذلك رغم ما تسببه هذه الصيغ التعبيرية من ارتباكات معرفية. تحت ضغط الضرورة فقط، الضرورة التى تعكسها التجربة التى تعرض لها «حى» و«أسال» حين أرادا أن ينقلا للعامة فى الجزيرة الأخرى الحقائق التى توصلوا إليها. تحت ضغط «غيباء» العامة وضعف استعدادهم لتلقى الحقائق اعترف «حى» بأن «الوحى» لا بد له أن يخاطب الناس جميعا بقدر عقولهم.

أليس هذا هو المشكل الذى يحاول «ابن رشد» أن يجد مخرجا له فى التقسيم الثلاثى للخطاب الإلهي؟ ولعل الأهم من ذلك تجريم «ابن رشد» لمسلك المتكلمين؛ لأنهم أشاعوا النتائج التى توصلوا إليها - من خلال أدلتهم الجدلية

غير اليقينية بين الناس على أساس أنها حقائق الشريعة «فأوقعوا الناس من قبل ذلك في شتآن وتباغض وحروب ومزقوا الشرع كل تمزيق». ويصل الأمر في خاتمة «فصل المقال» أن يعبر الفيلسوف الكبير عن ألمه أشد الألم من الأضرار التي سببها من ينسبون أنفسهم للحكمة من المتكلمين - يقصد أبو حامد الغزالي (ت : ٥٠٥ / ١١١١) تحديداً - للشريعة بنشر تأويلاتهم الفاسدة. لسنا معنيين هنا بنقد موقف «ابن رشد»، الذي لم يجد حلاً لعلاج هذا الداء العضال إلا في إغلاق باب معرفة التأويلات الصحيحة دون العامة، واستبعاد كتب البرهان من أن تصل إلى أيديهم. وهو حل شبيه بحل «حي بن يقظان» وصاحبه «أسال». ليس هذا شأننا هنا بقدر ما نحن معنيون بالكشف عن الأزمة واستجابات كل من الفيلسوف والشيخ لها.

إن مشكلة المتكلمين - في نظر ابن رشد - تكمن في أنهم وقعوا في أخطاء جسيمة نتيجةً لأدلتهم الجدلية التي تعتمد أساساً على «القياس». لقد انتهوا إلى تصور «الله» سبحانه وتعالى كما لو كان «إنساناً أزلياً». وبعبارة أخرى فقد أدى مبدأ «قياس الغائب على الشاهد» بالمتكلمين إلى أنهم حين شبهوا العالم بالمصنوعات، التي تكون عن إرادة الإنسان وعلمه وقدرته، توصلوا إلى أن الله سبحانه لا بد أن يكون له - بالمثل أو بالقياس - إرادة وعلم وقدره. فلما قيل لهم إنه يلزم أن يكون (صانع العالم) وفقاً لهذا القياس - جسماً قالوا في التمييز بين «الله» والإنسان إن الله أزلي. فصار هذا - يعلق ابن رشد - القول «قولاً مثالياً شعرياً». والأقوال المثالية، يواصل فيلسوف قرطبة، «مقنعة جداً، إلا أنها إذا تُعقبتْ ظهر اختلالها».

والآن ما هو الدواء الشافي الذي يطرحه الفيلسوف لهذا المرض الذي أصاب العقل الإسلامي بسبب سيطرة المتكلمين وأشباه الحكماء على عقول العامة حتى أفسدوا عقائدهم؟ كيف يمكن الهروب من مفهوم «الإله» الذي ليس في الحقيقة سوى «إنسان أزلي»؟ وما هو المفهوم الذي يمكن أن يقنع «العامة» ويقترّب من الحقيقة؟ في محاولة الفيلسوف إيجاد دواء شاف للمرض لا يكتفى بما اكتفى به «حي بن يقظان» من إدانة «العامة» في قلبه وموافقته باللسان. كما أنه ليس قانعاً بتأويلات المتكلمين لأنها أفسدت عقائد العامة بسبب خلافاتهم، بل وكانت

سبب مباشرا فى عداء العامة للفلسفة بصفة عامة. أما لماذا لم يكتف ابن رشد بموقف التعالى واحتقار العامة، فهذا سؤال يمكن أن نجد إجابة له فى حياة ابن رشد «القاضى» و«الفقيه»، بكل ما يعنيه الجلوس فى منصة «القضاء» من الانشغال بهوم العامة وبمشكلاتهم. هذا بالإضافة إلى سعى «الموحدين» منذ بداية حركتهم على يد «ابن تومرت» فى المغرب تنقية عقائد العامة من مظاهر الشرك والتشبيه بالحرص على تأكيد مفهوم «التوحيد».

فى النهاية لا يجد «ابن رشد» حلا لإقامة عقيدة العامة فى التوحيد على أساس لا يناقض البرهان، ولا يصعب على العامة فى نفس الوقت هضمه، سوى المفهوم الصوفى الذى صاغه «الغزالى» -خصمه اللدود- فى رسالته «مشكاة الأنوار» ذلك مفهوم «الله/ النور». وجدير بالالتفات أن الشاهد الشرعى الذى يؤسس عليه الفيلسوف جواز تعليم العامة بشكل يناسب قدرتهم على الاستيعاب هو نفس الشاهد الذى يردده ابن عربى كثيرا ولكن لغاية أخرى غير الغاية النفعية البرجماتية المحركة لابن رشد. أراد أحدهم أن يعتق جارية، ولكنه أراد أن يتأكد من إيمانها، فأحضرها لرسول الله (صلعم)، فسألها «أين الله» فلما قالت «فى السماء» اعتبر الرسول أنها مؤمنة. هذا رغم الخطأ الفادح فى التحديد المكانى. ابن رشد يستدل من ذلك على مشروعية «مخاطبة الناس على قدر عقولهم»، لكن نفس الشاهد -عند ابن عربى- دال على «الحقيقة» فى حق هذه الجارية دون خطأ. فهى صادقة الإيمان؛ لأن الحقيقة تتجلى لها على قدرها. عند «ابن عربى» ليس فى العالم مرض يحتاج لعلاج، بل فيه تعصب يحتاج للتواضع.

هل يساعدنا هذا أن نفهم دلالة «النفى» بعد «الإثبات»، وعلاقة هذا «النفى» بالفرحة التى لاحظ الفتى انتشارها فى وجه الفيلسوف؟ لكن علينا أن نكرر أن «الراوى» هنا ليس «الفتى»، بل هو الشيخ الذى أصبح على معرفة بالتراث وقادرا على التعامل معه. إنه الآن فى هذه اللحظة - لحظة الكتابة - الشيخ الأكبر، هو الذى يقول لنا أن فيلسوف قرطبة، الذى فهم «الإثبات» واستوعبه، لم يفهم «النفى» ولم يستوعبه. وابن عربى الراوى - وليس الفتى بطل السرد - هو الذى يقول عن الفيلسوف «فانقبض وتغير لونه وشك فيما عنده». لقد تكفل «النفى»

-حين قال الفتى «لا» بإزالة «اليقين» الذى سببه الإثبات فى «نعم»، فما معنى «الإثبات والنفى»؟

٤- حلول ابن عربى:

يسعى ابن عربى فى نسقه الفكرى كله لإزالة التعارضات الثنائية من الوجود ومن المعرفة ومن الفكر. ومنطلقه فى ذلك «وحدة الوجود» لا بالمعنى الفلسفى الذى يوهم به المصطلح PANTHEISM فى الفلسفة الغربية، التى إما أن تحل «الله» فى العالم والطبيعة، أو تلغى وجود العالم والطبيعة لحساب الوجود الإلهى. ابن عربى يحتفظ - نظريا - بالثنائية فى شكل «مراتب» يمكن ذهنيا التمييز بينها. ويحرص على أن يقيم - عمليا - بين طرفى كل ثنائية وسائط عديدة تجمع وتوحد بين كل الثنائيات. على المستوى الوجودى الخالص تتميز «الذات الإلهية» فى مرتبة «الأحادية المطلقة» باستقلال تام، إنها مرتبة «الوجود لا بشرط شىء». أما «العالم» بتعدد مراتبه فهو «الوجود بشرط شىء». هذه ثنائية وجودية تتميز الأولى من طرفيها بالتححرر الكامل من كل شرط، فهى مرتبة «النفى» المطلق (لا بشرط شىء)، بينما يتميز الطرف الثانى بالوقوع فى أسر «إثبات» الشرطية الكاملة (بشرط شىء) هل تشير إجابة «الفتى» الملفزة أولا، ثم إجابة الشيخ الأقل إلغازا ثانيا إلى جدلية «الإثبات» و«النفى» تلك؟ ربما

يسأل الفيلسوف مجددا بعد أن فاجأه «النفى» بعد «الإثبات»، فتحوّلت حاله من «الفرح» إلى الحزن و«الانقباض»: «كيف وجدتم الأمر فى الكشف والفيض الإلهى؟ هل هو ما أعطاه النظر؟» ويجيب «الفتى» على لسان «الراوى» دون شك: «نعم لا، وبين نعم ولا تطير الأرواح من مواردها والأعناق من أجسادها» فما هو هذا الذى بين «نعم» و«لا»، والذى يسبب طيران «الأرواح» من مواردها وطيران «الأعناق» من أجسادها؟ إن الجامع بين «الإثبات» و«النفى» هو «عالم الخيال» أو «البرزخ الأعلى» أو «برزخ البرازخ»، وهى مرتبة الوجود الوسيط الذى تجتمع فيه كل الثنائيات بدءا من الثنائية التى أشرنا إليها بين «الوجود لا بشرط شىء» و«الوجود بشرط شىء»، أو بين «الذات الإلهية» فى أحديتها المطلقة وبين

«العالم» فى كثرته الظاهرة . بين المرتبتين تتوسط الألوهة -وهى مجموع الأسماء الإلهية- وهى نسب وعلاقات وروابط لا تتمتع بأى وجود ذاتى .

وقد آن الأوان أن يتحدث ابن عربى بنفسه عن هذا الوسيط الذى تطير فيه الأرواح من مواردها والأعناق من أجسادها، إنه عالم ما بين «الإثبات» و«النفى». يبدأ الشيخ الأكبر بتأكيد الثنائية التى أشرنا إليها بالقول: «والمناسبة بين الخلق والحق غير معقولة ولا موجودة؛ فلا يكون عنه شئ من حيث ذاته، ولا يكون عن شئ من حيث ذاته. وكل ما دل عليه الشرع أو اتخذ العقل دليلا إنما متعلقه الألوهة لا الذات. الله من كونه إلها هو الذى يستند إليه الممكن لإمكانه». (الفتوحات ٥٧٩/٢) ويقول أيضا: «وأما أحدية الذات فى نفسها فلا تُعرف لها ماهية حتى يُحكَمَ عليها؛ لأنها لا تشبه شيئا فى العالم ولا يشبهها شئ». (الفتوحات / ٢٦٩) إن الكون لا تعلق له بعلم الذات أصلا، وإنما متعلقه العلم بالمرتبة وهو مسمى الله؛ فهو الدليل المحفوظ الأركان الدال على معرفة الإله وما يجب أن يكون عليه سبحانه من أسماء الأفعال ونعوت الجلال وبأية حقيقة يصدر الكون عن هذه الذات المنعوتة بهذه المرتبة المجهولة العين والكيف. وعندنا لا خلاف فى أنها لا تُعلم، بل يُطلق عليها نعوت تنزيه صفات الحدث، وأن القَدَم لها والأزل الذى يطلق لوجودها إنما هى أسماء تدل على سلوب من نقى الأولية وما يليق بالحدوث. وهذا يخالفنا فيه جماعة من المتكلمين الأشاعرة، ويتخيلون أنهم قد علموا من الحق صفة نفسية ثبوتية. وهيهات أنى لهم بذلك . (الفتوحات/١/١٦٠).

نلاحظ هنا نقد الشيخ للمتكلمين كما يمثلهم «الأشاعرة»، وهم أتباع «أبو الحسن الأشعري» (ت : ٣٢٤ - ٩٣٦) ، الذين يقولون بوجود صفات لله سبحانه وتعالى ذات وجود متميز عن «الذات» . وهذا بالضبط محور نقد الشيخ الأكبر، فالصفات عنده مجرد أسماء ونسب لا تتمتع بأى وجود ما، وهو ما يعنيه من أن الأسماء تدل بالسلب على نقى الأزلية والحدوث الخ، أما تصور أن لها وجود ثابت فهذا خطأ محض. كل الأسماء والصفات تمثل منطقة وسطى بين «وجود الذات» وبين «الوجود الظاهر»، أى العالم. فإذا أثبت المُثَبِّت اسما أو صفة

للذات الإلهية واضعاً في اعتباره مستواها في الوجود الخيالي فهو صادق. أما ادعاء وجود ثابت فهو الخطأ الذي ينبع على المتكلمين عموماً وعلى الأشاعرة على وجه الخصوص. في هذا النقد للمتكلمين يلتقى ابن عريى مع ابن رشد في نقده لمنهج المتكلمين حين قاسوا الشاهد على الفائب، فتوصلوا إلى مفهوم لله ليس في الواقع سوى تصور لإنسان إزلى.

لكن ابن رشد في نقده للمتكلمين لم يقدم بديلاً، وفي محاولته إحلال «البرهان» الفلسفي ليحل مكان «القياس» عند المتكلمين، لم يضيف البرهان إلى أطروحات المتكلمين جديداً. إن نعى الشيخ الأكبر على الأشاعرة إثبات صفات نفسية ثبوتية على الذات الإلهية يصدق أيضاً على الفلاسفة، ومنهم ابن رشد، لأنهم لم يميزوا بين مراتب وجودية لا تتمتع بوجود عيني. إن «الذات الإلهية» لا يتعلق بها من الوصف إلا «السلب»، وهو «النفى». أما الإثبات فلا يجوز إطلاقه على الذات الإلهية، والذي ورد في القرآن الكريم من صفات إنما تشير للألوهة، وهي مرتبة الوجود الخيالي الفاصلة والجامعة في نفس الوقت بين «الذات» و«العالم». أما عن تعريف هذه المرتبة -مرتبة الوجود الخيالي- فيقول الشيخ عن البرزخ بصفة عامة:

البرزخ يتوسع الناس فيه، وما هو كما يظنون. إنما هو كما عرفنا الله في كتابه في قوله في البحرين «بينهما برزخ لا يبغيان»؛ فحقيقة البرزخ أن لا يكون فيه برزخ. وهو الذي يلتقى ما بينهما بذاته، فإن التقى الواحد منهما بوجه غير الوجه الذي يلتقى به الآخر، فلا بد أن يكون بين الوجهين برزخ يفرق بين الوجهين حتى لا يلتقيان، فإذا ليس ببرزخ. فإذا كان عين الوجه الذي يلتقى به أحد الأمرين الذي هو بينهما عين الوجه الذي يلتقى به الآخر فذلك هو البرزخ الحقيقي؛ فيكون بذاته عين كل ما يلتقى به فيظهر الفصل بين الأشياء، والفاصل واحد العين. وإذا علمت هذا علمت البرزخ ما هو. ومثاله بياض كل أبيض، وهو في كل أبيض بذاته ما هو في أبيض ما بوجه منه ولا في أبيض آخر بوجه آخر، بل هو بعينه في كل أبيض، وقد تميز الأبيضان أحدهما عن الآخر. فعين الأبيض واحد في الأمرين، والأمران ما هو كل واحد عين الآخر. فهذا مثال البرزخ الحقيقي.

وكذلك الإنسانية في كل إنسان بذاتها. فالواحد هو البرزخ الحقيقي، وما ينقسم لا يكون واحداً. والواحد يَقسِم ولا يُقسَم أى لا ينقسم فى نفسه؛ فإنه إن قبل القسمة فى عينه فليس بواحد. وإن لم يكن واحداً لم يقابل كل شئ فى الأمرين اللذين يكون بينهما بذاته. والواحد معلوم فى أنه ثم واحد بلا شك. والبرزخ يُعلم ولا يُدرك ويُعقل ولا يُشهد. (٥١٨/٣).

وينتقل من التعريف العام نزولاً إلى مستوى من مستويات التخصيص فى التعريف فيقول:

ولما كان البرزخ أمراً فاصلاً بين معلوم وغير معلوم، وبين معدوم وموجود، وبين منفى ومثبت، وبين معقول وغير معقول، سُميَ برزخ اصطلاحاً. وهو معقول فى نفسه وليس إلا الخيال؛ فإنك إذا أدركته وكنت عاقلاً تعلم أنك أدركت شيئاً وجودياً وقع بصرك عليه، وتعلم قطعاً بدليل أنه ما ثم شئ رأساً وأصلاً. فما هو هذا الذى أثبت له شيءية وجودية ونفيته عنه فى حال إثباتك إياها؟ فالخيال لا موجود ولا معدوم، ولا معلوم ولا مجهول، ولا منفى ولا مثبت. (٣٠٤/١) أما مجال فعالية هذه المرتبة الوجودية فهي تتسع لتصبح الحضرة الجامعة للحقائق من أعلاها إلى أدناها: الألوهة، عالم الأمر، عالم الخلق، عالم الطبائع الخ:

«فما أوسع حضرة الخيال، وفيها يظهر وجود المحال، بل لا يظهر فيها على التحقيق إلا وجود المحال؛ فإن الواجب الوجود وهو الله تعالى لا يقبل الصورة وقد ظهر بالصورة فى هذه الحضرة. فقد قبل المحال الوجود الوجود فى هذه الحضرة/» (٣١٢/٢).

الحق بين الخلق وبين ذاته الموصوفة بالغنى عن العالمين. فالألوهة فى الجبروت البرزخى؛ فتقابل الخلق بذاتها، وتقابل الحق بذاتها. ولهذا لها التجلى فى الصور الكثيرة والتحول فيها والتبدل؛ فلها إلى الخلق وجه به يتجلى فى صور الخلق، ولها إلى الذات وجه به تظهر للذات. فلا يعلم المخلوق الذات إلا من وراء هذا البرزخ وهو الألوهية. فتحققناها فما وجدنا سوى ما ندعوه بها من الأسماء الحسنى؛ فليس للذات جبر فى العالم إلا بهذه الأسماء الإلهية. ولا يُعرف من

الحق غير هذه الأسماء الإلهية، وهى أعيان هذه الحضرات. (٢٠٨/٤ - ٢٠٩،
وأيضاً ٢٠٣/٢، ٣٧٩، ٣٥٨/٣).

٥ - اللقاء الثانى: الأمل الذى لم يتحقق!

إن فرح ابن رشد بالإثبات يعنى من منظور ابن عربى «الراوى» لا «الفتى» بطل السرد، أنه يقف بعلمه عند أحد طرفى الحقيقة -جانب الإثبات- فأراد أن يكشف له عن جانبها الآخر -جانب النفى- لكن الفيلسوف لم يدرك مغزى الإشارة. الدليل على ذلك الاضطراب والحزن الذى حل محل الفرح فى وجهه فأعاد السؤال. وكان لابد للجواب أن يكون أكثر تفصيلاً، وإن لم يخرج عن أفق الرمز والتلميح. لكن الفيلسوف مرة ثانية «اصفر لونه وأخذ الإفكل وقعد يحوقل، وما عرف ما أشرت إليه». ينهى الشيخ الأكبر قصة هذا اللقاء الأول تعليقاً بأن المسألة التى لم يفهم ابن رشد الإشارة إليها هى «عين المسألة التى ذكرها هذا القطب، أعنى مداوى الكلوم». سبق أن قلنا أن الباب الذى ترد فيه قصة اللقاء تلك هو الباب المعنون «الأنفاس ومعرفة أقطابها المحققين بها وأسرارهم»، وهو الباب الخامس عشر. أما المسألة المشار إليها فهى تتعلق بالمقارنة بين «الدنيا» و«الآخرة»، أو بالأحرى بين «الدنيا» و«الجنة». ومداوى الكلوم المشار إليه يقول أن الدنيا والجنة يتشابهان فى بنائهما، لكنهما يتفاوتان تفاوتاً حاداً من حيث «مادة» البناء. فبناء الدنيا من لبن مادته «القش والطين»، فى حين أن بناء الجنة من لبن مادته من «ذهب ولُجَيْن». ومن الواضح أنها مسألة تثير فى عمقها أمر «الإثبات» إذ تبدو كل من «الدنيا» و«الجنة» من حيث ظاهر بنائهما متشابهتين، وهذا هو «الإثبات» بينما هما فى الحقيقة والواقع مختلفتان من حيث المادة التى يقوم عليها البناء، وهذه هى «النفى». نقول هذا بالطبع دون أن نحصر الدلالة فى السياق كما قلنا فى تعليقنا من قبل.

لكن لماذا مثال الجنة والدنيا تحديدًا؟ ربما لأن جذر الشجار بين المتكلمين بعضهم البعض من جهة، وبينهم وبين الفلاسفة من جهة أخرى، كان يدور حول

«تأويل» القرآن الكريم. دار الخلاف بين المتكلمين حول ثنائية «المحكم والمتشابه»، التي تمحورت حول تفسير الآية السابعة من سورة آل عمران (قم ٣) حول صفات الله وأفعاله. أما بين المتكلمين والفلاسفة فقد كانت قضية التأويل الأشد إثارة تتعلق بتأويل «العقاب والثواب»، وهي قضية من القضايا التي بسببها كُفِّرَ «أبو حامد الغزالي» الفلاسفة في كتابه «تهافت الفلاسفة»، وهو الكتاب الذي تصدى «ابن رشد» للرد عليه بكتاب «تهافت التهافت».

وموقف «ابن عربي» من ثنائية «المحكم والمتشابه» هو امتداد لموقفه من كل الثنائيات: البحث عن وسيط جامع. وقد وجد ابن عربي في قوله تعالى: «ليس كمثله شيء»، وهو اللطيف الخبير» نموذجاً لجدلية «الإثبات والنفي». ورغم أن «المعتزلة». وهم بلا منازع فرسان تأويل «الصفات» التي توهم مشابهة الله للبشر. يتخذون من هذه الآية نموذجاً للإحكام الذي ينفي المشابهة، فابن عربي يراها نموذجاً للجمع بين «التزيه» و«التشبيه»، كما هي نموذج للجمع بين «النفي» في «ليس كمثله شيء»، لكنها في بقيتها تثبت وتُشَبَّه «وهو اللطيف الخبير». لقد سالت دماء وسالت أحبار في العراق بين «المثبتين» و«النفاة»، والقرآن بظاهره -أي بلا تأويل- يثبت وينفي؛ لأن كلا من النفي والإثبات يقدمان الحقيقة في لغة واضحة. هل تحتاج الآيات القرآنية التي وردت في نعيم الجنة وعذاب النار إلى تأويل؟ نعم إن القرآن يبدو وكأنه يصور «الجنة» بصورة «الدنيا»، لكن شتان بين الحقيقتين. لا نريد أن نطيل في عرض ما يقوله ابن عربي في شأن «الصورة»، فالله سبحانه خلق الإنسان على صورته، لكنه إنسان والله إله. إن تشابه صورة الجنة مع صورة الدنيا هو تشابه في شكل البناء. لا حاجة إذن للتأويل، لا تأويلات المتكلمين ولا تأويلات الفلاسفة. إنها تجربة الروح ومعانقة باطن الكون وإدراك روحانيته السارية هي الكفيلة بحل المشكلات وفك المعميات.

«وطلب من أبي بعد ذلك الاجتماع بنا ليعرض ما عنده علينا، هل هو يوافق أو يخالف؟ فإنه كان من أرياب الفكر والنظر العقلي؛ فشكر الله تعالى الذي كان في زمن رأى فيه من يدخل خلوته جاهلاً وخرج مثل هذا الخروج، من غير درس ولا

بحث ولا مطالعة ولا قراءة، وقال: هذه حالة أثبتناها وما رأينا لها أرباباً؛ فالحمد لله الذى أنا فى زمان فيه واحد من أربابها الفاتحين مغاليق أبوابها، والحمد لله الذى خصنى برؤيته».

ماذا يعنى ذكر أمر هذا اللقاء الذى لم يتحقق، والذى يمر عليه الدارسون المهتمون بشأن دلالة لقاء الشيخ والفيلسوف بلا تعليق؟ إنه يعنى أن الشيخ/الفتى لم يكن فى لقائه الأول بالفيلسوف قد اطلع على شىء من كتاباته، الأمر الذى يعنى أن إجاباته المُلغزة على سؤال الشيخ فى اللقاء الأول هى إجابات الشيخ كاتب الفتوحات -الراوى- وليست إجابات الفتى الذى لم يكن شاربه قد نبت بعد. وابن عربى حريص فى أكثر من سياق على تأكيد أن الفيلسوف لم يستبعد إمكانية الوصول بالفيض والإلهام والكشف إلى معارف وهبية لندية تأتى مباشرة من الله على قلب السالك. بل أكثر من ذلك يكرر ابن عربى أن الفيلسوف عبّر عن امتنانه لوجوده فى الزمن الذى شهد واحداً من أرباب المعرفة الكشفية، وأنه قابله. ويبدو ابن عربى فى سياق نادر، حين يذكر اسم «أفلاطون»، يبدو مدافعا عن الفلسفة ضد من يكرهون «أفلاطون» من المسلمين فقط بسبب علاقته بالفلسفة. يفسر ابن عربى كراهيتهم لأفلاطون بجهلهم بمعنى كلمة «فلسفة» إذا كانت «الفلسفة» ليست إلا «محبة الحكمة»، فإن كل من له نصيب من عقل لا بد أن يكون محبا للحكمة. (فتوحات ٥٢٣/٢) لم يكن فيلسوف قرطبة بأى معنى من المعانى من أتباع أفلاطون، وهذا ما يباعد بينه وبين فلاسفة الإشراق الأقرب إلى قلب ابن عربى. لكن من الواضح كذلك أن ابن عربى كان يكن تقديرا خاصا لابن رشد رغم ما يبدية من تفاوت بين طريقتيهما، خاصة فى اللقاء الثالث.

٦ - اللقاء الثالث: أين ومتى؟

ثم أردت الاجتماع به مرة ثانية؛ فأقيم لى رحمة من الله فى الواقعة فى صورة ضُرب بينى وبينه حجاب رقيق، أنظر إليه منه ولا يبصرنى ولا يعرف مكانى، وقد شُغل بنفسه عنى، فقلت: إنه غير مراد لما نحن فيه.

إذا كان اللقاء الثانى الذى لم يتم كان مرغوبا من جانب الفيلسوف، ولا يذكر لنا الشيخ لماذا لم يتم، فإن هذا اللقاء الثالث تم باستدعاء إرادى من جانب الشيخ. وعلى عكس اللقاء الأول الذى يمكن تخمين وقت وقوعه، واللقاء الأخير -الرابع- المنصوص على مكان وزمان وقوعه، فإن هذا اللقاء الثالث تم فى «واقعة» حيث أقيم -بصيغة المبنى للمجهول، الأمر الذى يعنى غياب إرادة الفيلسوف غيابا تاما- فى «صورة». كل هذه المفردات ترشح أن هذا اللقاء كان لقاء خياليا برزخيا. وسواء حدث اللقاء استحضارا بالمخيلة والهمة، وسواء حدث فى شكل «رؤيا» منامية، وكلا الاحتمالين وارد لما يتمتع به العارف بمخيلة خلاقة ناهيك عن قوة القدرة على الاستدعاء، فالنتيجة واحدة والمحصلة هى بيان القدرة على السيطرة. الفيلسوف هنا فى «الواقعة» مُصَوَّرٌ بالصورة التى يمنحها له خيال العارف. لقد حاول Steffen Stelzer فى دراسته المشار إليها أعلاه أن يفهم معنى «الواقعة» فى سرد اللقاء الثالث، بالإضافة إلى كلمة «صورة»، بالإحالة إلى سورة «الواقعة» فى القرآن الكريم. وهذا نهج مشروع فى فهم نصوص ابن عربى بصفة عامة وسورة «الواقعة» - رقم ٥٦ فى ترتيب المصحف - من السور المخصصة بالكامل للحديث عن «الآخرة» وعن «النعيم» فى الجنة والعذاب لأهل النار. والسورة تميز فى أهل الجنة بين «السابقين» وبين «أهل اليمين» وتسهب فى تفصيل صور النعيم لكل منهما. وكل ذلك لكى يثبت الباحث العلاقة السياقية بين السرد ومسألة «مداوى الكلوم» بصفة خاصة، توصلا لإثبات أن اللقاء لم يكن حول «المعرفة» بقدر ما كان حول «موضوع المعرفة».

وصورة ابن رشد فى الواقعة - كما يخبرنا السرد - محجوبة عن رؤية ابن عربى. ليس هذا فقط بل «الصورة» مشغولة بنفسها، فما معنى ذلك؟ مفهوم الحجاب يتسع عند ابن عربى ليصبح الوجود كله؛ فالوجود الظاهر يمثل حجابا على «الحقيقة»؛ فلا موجود فى الحقيقة إلا الله والعالم كله مظاهر تظهر وتخفى فى نفس الوقت. هى مظاهر كاشفة للقادر على النفاذ من الصورة إلى أصلها، وهى نفس الوقت حجاب لمن لا يرى إلا الصورة. فى التمثيل الرمزى لصورة «ابن رشد» المشغولة بنفسها نتبين من صياغة ابن عربى أن «الحجاب» ليس

مانعا في ذاته، بدليل أن الفتى قادر على رؤية «صورة» الفيلسوف، لكن انشغال الصورة بذاتها هو «المانع» لها من رؤية ابن عريى . وهكذا يصبح الحجاب المانع في الحقيقة هو «الصورة».

ربما يحيل ابن عريى في هذا الجزء من السرد إلى حقيقة انشغال ابن رشد بشئون الدولة والحكم والقضاء، وهو انشغال معوّق في نظر الشيخ عن صفاء القريحة الذى هو شرط لبداية السلوك إلى العرفان. والمبرر لهذا التفسير من جانبنا أن الشيخ الأكبر لا يفتأ يردد أن ملاحظة الإنية . أنا العبد . عائق عن ملاحظة إنية الرب. وبعبارة أخرى يمكن القول إن «الأنا» تمثل حجابا معرفيا عن إدراك الحقيقة، رغم أن «الحقيقة» ليست خارج «الأنا» . وطريق الصوفى هو المحاولة الدائمة لإزاحة صورة «الأنا» الظاهرة لإخلاء الطريق لانبثاق «الأنا» الحقيقية، أنا الروح التى هى «الصورة» الشفافة للحقيقة؛ فتدرك «الأنا» حقيقتها، وبذلك فقط تتنفى «الصورة» الخارجية، الصورة التى تحجب الأنا الحقيقية، وتحجب معها الحقيقة .

هذا ما يحيل إليه النص السردى الخاص باللقاء الثالث: صورة الفيلسوف التى تحجبه عن رؤية الشيخ بسبب عجز الفلسفة عن اختراق «الحجاب» الذى لا يمثل بالنسبة عائقا بالنسبة للعارف. في هذا اللقاء الثالث يصرح الشيخ أن طريق الفلسفة . خاصة طريق فلسفة «أرسطو» والمتكلمين . ليس الطريق الأمثل الموصل للحقيقة. إنما يكون الوصول إليه برفع الأحجية ونزع الأغطية عن «الأنا» الروحية المحجوبة بالصورة. لماذا إذن تتملك ابن عريى الحيرة أمام جثمان الفيلسوف، الذى تعادله مؤلفاته على ظهر الدابة التى تحمله من «مراكش» إلى «قرطبة» وما معنى هذه الحيرة؟

٧. اللقاء الرابع : بعد الرحيل:

فما اجتمعت به حتى دُرِج وذلك فى سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمدينة مراكش ونُقل إلى قرطبة وبها قبره. ولما جُعِلَ التابوت الذى فيه جسده على الدابة جُعِلَت تآليفه تعادله من الجانب الآخر، وأنا واقف ومعى الفقيه الأديب

أبو الحسن محمد بن جبیر كاتب السيد أبى سعيد وصاحبى أبو الحكم عمر بن السراج الناسخ، فالتفت أبو الحكم إلينا وقال: ألا تنظرون إلى من يعادل الإمام ابن رشد فى مركوبه؟ هذا الإمام وهذه أعماله، يعنى تأليفه، فقال له ابن جبیر: يا ولدى، نعم ما نظرت، لا فض فوق فقيدتها عندى موعظة وتذكرة، رحم الله جميعهم وما بقى من الجماعة غيرى، وقلنا فى ذلك:

هذا الإمام وهذه أعماله يا ليت شعرى! هل أتت أماله؟

نكرر ما بدأنا به من قبل من أن منظور ابن عربى يستبعد «الخطأ» فى الإيمان مهما حدث فى الفكر أو فى المعرفة. هذا بالإضافة إلى إدراكه أن فيلسوف «قرطبة» وقاضيه لم يكن أبدا معاديا للكشف والإلهام والفيض كسبيل للمعرفة. والحقيقة أن المشترك الجامع بين «الفيلسوف» والشيخ -والذى ليس مجرد الانتماء الجغرافى- أوسع من مساحة الاختلاف. ولقد كشفنا عن السياق الفلسفى والفكرى الذى جمع بين «العرفان» و«البرهان» فى أليجوريا «حى بن يقظان» التى كتبها «ابن طفيل» أستاذ الفيلسوف. ونريد هنا أن نضيف عنصرا مهما أدركه أيضا باحثون غيرنا نذكر منهم على سبيل المثال «كلوديا عداس» Claudia Addas. هذا العنصر هو النظر إلى «الشريعة» من منظور شمولى لا يستبعد من تراثها النصى التفاصيل المنقولة، خاصة تلك التفاصيل التى يحملها التراث النبوى الذى صار يعرف باسم «السنة»، وهى أقوال النبى «محمد» وأفعاله كما جمعت وصنفت بدءا من القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) فى كتب السنة المعروفة.

لا نجد حضورا للسنة مكثفا عند المتكلمين العقلانيين من أمثال المعتزلة والفلاسفة عموما من أمثال «الكندى» و«الفارابى» و«ابن سينا» يماثل حضور «القرآن» أو يقاربه. وإذا كان من الصعب إن لم يكن من المستحيل على أى مفكر إلا أن يجد نفسه مضطرا للمساهمة فى النقاش فى مشكلة العلاقة بين «الوحى» و«العقل»، فقد تم قصر محتوى «الوحى» عند المتكلمين والفلاسفة -عدا استثناءات قليلة- فى كلام الله الذى هو القرآن. الفقهاء وحدهم هم الذين ضموا «السنة» بمعناها الشامل -أى أقوال النبى وأفعاله بل وتقاريراته (الموافقة

على فعل أو قول ما من أحد معاصريه أو الاعتراض عليه) إلى نطاق «الوحي». وكان التمييز الذي استقر تقريبا في نهاية القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) أن «القرآن» هو كلام الله بالمعنى واللفظ، في حين أن «السنة» هي كلام الله بالمعنى فقط دون اللفظ الذي هو من كلام «محمد». هذا بالإضافة إلى تمييز آخر يتمثل في طريقة الانتقال من جيل إلى جيل. في حالة القرآن كان الانتقال بالتواتر عن طريق الحفظ والترديد من خلال الذاكرة الجمعية للمسلمين في كل جيل، بينما انتقلت السنة بالرواية التي تعتمد على الذاكرة الفردية للصحابة الذين اعتنوا بحفظ بعض ما استمعوا إليه من النبي أو ما شاهدوه يفعله (يستثنى من ذلك الشعائر الجماعية كالصلاة والحج والصيام، فقد كان يشهدها الجمع الغفير وينقلونها؛ فهي تدخل في باب التواتر كذلك).

لأن ابن رشد شغل منصب «القضاء» فقد كان فقيها، أو لأنه كان فقيها فقد صار قاضيا. وله في الفقه كتاب شهير عنوانه «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»، وهو كتاب مختصر لكنه في نفس الوقت جامع للآراء المذهبية المختلفة في أصول المسائل الفقهية. هذا بالإضافة إلى محاولة ابن رشد أن يرد الخلافات في المسائل بين أصحاب المذاهب إلى أصولها العامة في القواعد، فهو بذلك لا يكتفي بجمع الآراء بل يضيف إليها قدرا من التحليل؛ فالفيلسوف في النهاية لا يكون فقيها تقليديا. وابن رشد الفقيه كان في ذلك مخلصا للتقاليد العائلية، فجده كان فقيها مرموقا، لدرجة أن التمييز بين «الجد» الفقيه و«الحفيد» الفيلسوف جعل من الضروري أحيانا أن يقرن باسم «الفيلسوف» كلمة «الحفيد». ولم تكن التقاليد العائلية الرشدية من هذه الزاوية سوى جزء من التقاليد الثقافية في بيئة الأندلس، التي اكتسب فيها الفقهاء خلال حكم «المرابطيين» مكانة خاصة، مكنتهم من السيطرة على الحكام فحرموا «الكلام» و«الفلسفة». ولعل «ابن طفيل» في «حي بن يقظان» يلمح إلى سيطرة الفقهاء بتزمتهم حين يتحدث عن «الجزيرة» التي فر منها «أسال»، ولعله يلمح إلى شخصية «الفقيه» المتزمت، لكن المسيطر على عقل العامة وذي السطوة بسبب ذلك عند السلطان، في شخصية «سلامان» الغائبة الحاضرة في السرد.

ولم تهدأ سيطرة الفقهاء فى عهد «الموحدين»، إذ كان مناخ الصراع العسكرى الدينى يدفع بالتوتر فى أفق الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية إلى أقصاه، وفى ظل هذا المناخ المتوتر تسيطر عادة نزعات التمسك بالشكليات الدينية تعبيرا عن مفاهيم «الهوية» فى مواجهة التهديد بالقضاء عليها من قبل أعداء خارجيين يرفعون شارات دينية بدورهم. نحن نعرف مثلا أن مأساة «ابن رشد» ومحنته المعروفة تسبب فيها حاجة الخليفة لفرض ضرائب جديدة لتغطية تكاليف الحروب. ولما كان من شأن «العامة» المستضعفين اجتماعيا واقتصاديا أن تحركهم مثل هذا الأعباء إلى انتفاضات وثورات، فقد كان الحكام دائما فى حاجة إلى الفقهاء والوعاظ فى المساجد ليتمصوا أى احتمال لثورة العامة ضد الأعباء الجديدة. ومن المنطقى فى مثل هذا السياق أن يكون للفقهاء بدورهم شروطا على الحاكم لضبط «السلوك» الدينى الذى غالبا ما يتهمون «الفلاسفة» و«المتكلمين» و«الصوفية» بإفساده .

كان الاهتمام بالفقه -وما يتضمنه من اهتمام بدراسة السنة- والوقوف فى نفس الوقت ضد سطوة الفقهاء، هو الجامع بين ابن عربى «الصوفى» وبين ابن رشد «الفيلسوف» فى سياق الوضع الأندلسى. من هنا روح «التوقير» البادية فى وصف اللقاء الأخير، لقاء ما بعد الرحيل. هذا هو «الرفات»، تعادله المؤلفات تعبر «البحر الأبيض المتوسط» من «مراكش» إلى «قرطبة»، أمام هذا المشهد يتساءل «الناسخ» فى حضرة «الفقيه». ولا بد للقارئ أن يهتم بملاحظة حرص الراوى على ذكر أن الفقيه هو «محمد بن جبير»، وأنه يعمل كاتباً لأبى سعيد. لماذا هذا الحرص على ذكر اسم الفقيه وعلى تحديد وظيفته؟ هل لأن الشيخ الأكبر يريد أن يُلحَح إلى «محنة» الفيلسوف ودور الفقهاء فيه؟ ربما. لكن الذى بدأ التعليق على المشهد هو الناسخ «أبو الحكم عمر بن السراج»، فكان من المنطقى أن تلفت نظره ثقل المؤلفات وكبر حجمها فى نفس الوقت حتى تعادل «رفات» الفيلسوف على ظهر الدابة. فقال: ألا تنتظرون إلى من يعادل الإمام ابن رشد فى مركوبه؟ هذا الإمام وهذه أعماله. يبدو تعليق الفقيه، كأنه يعظ: يا ولدى، نعم ما نظرت، لا فُضْ فسوك. لكن ما معنى التعليق وما دلالته؟ ابن عربى وحده فى

المشهد صامت، لكن الذاكرة استوعبت فقيدتها عندى موعظة وتذكرة، رحم الله جميعهم وما بقى من الجماعة غيرى. وهو فى النهاية الذى يتساءل:

هذا الإمام وهذه أعماله يا ليت شعرى! هل أتت آماله؟

كان هذا المشهد هو آخر شئ شاهده ابن عربى فى الأندلس قبل رحيله النهائى الذى لم يعد منه أبدا إلى الأندلس، فهل كان ابن رشد آخر خيط يربطه بالأندلس وبالمغرب، فلما انقطع الخيط بوفاة ابن رشد قرر الرحيل بلا عودة؟ سؤال يستحق الالتفات، وليست الإجابة عليه يسيرة، خاصة بعد أن ترسخت قراءة المشهد فى إطار التعارض بين طريق فيلسوف قرطبة وقاضيه وبين طريق «ابن عربى». هل الأمر بالفعل أمر اختلاف وتدابير، أم كان ابن عربى يدرك أن أمر الأندلس إلى «أفول»، وأن «العلامة» قرأها لا فى رحيل ابن رشد فقط، بل فى الموعظة التى تشي بالشماتة فى تعليق الفقيه على ملاحظة «الناسخ» عن حجم مؤلفات الفقيد ووزنها؟ ابن عربى وحده قرأ العبرة والموعظة فى المشهد، ووحده رثى الإمام فى تساؤله، كأنه ينعى الأندلس. لقد تحققت آمال ابن رشد فى الغرب شمال المتوسط، فهل تحققت آمال ابن عربى فى شرق العالم الإسلامى؟ قبل أن نجيب عن هذا السؤال علينا أن نلقى نظرة على الخطوط العامة لفلسفة ابن عربى. لكن الأمر يتطلب قبل ذلك إلقاء نظرة عابرة، أو طائفة، على طبيعة اللغة الصوفية والصعوبات الناجمة عن بنيتها المعقدة، ومحاولة استجلاء بعض أسباب هذه البنية، واقتراح بعض الحلول لإنجاز قراءة مُنتجة. هذا موضوعنا فى الفصل القادم.

الفصل الرابع

جدلية الوضوح والغموض

(التجربة الصوفية بين «الكشف والستر»)

تمثل التجربة الصوفية في جوهرها محاولة لتجاوز حدود التجربة الدينية العادية، تلك التي تقنع بالعمادى والمألوف من مظاهر التصديق والإيمان، وتقتصر على مجرد الوفاء بالتكاليف الشرعية والامتناع عن المحرمات الدينية، أو ما يُسمى الوفاء بمتطلبات الشريعة والوقوف عند حدودها ورسومها. يطمح الصوفى إلى تجاوز حدود «الإيمان» للدخول في تخوم «الإحسان»، الذى شرحه «جبريل» للنبي (صلعم) حين ظهر له فى صورة أعرابى؛ وأجاب على أسئلته له فى حضور بعض الصحابة. سأل النبي عن «الإيمان» فأجاب: «أن تؤمن بالله وملائكته ورسله، وأن تؤمن باليوم الآخر وبالقدر خيره وشره». وحين سأل النبي عن «الإحسان» أجاب جبريل - المتمثل فى صورة إنسانية بشرية هى صورة أعرابى - «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١).

(١) الحديث رواه كل من البخارى ومسلم فى صحيحيهما: باب «الإيمان»، رقم ٣٧ فى البخارى، وباب «الإيمان»، رقم ٥٧ فى صحيح مسلم.

يسعى الصوفي إلى التواصل تواصلا مباشرا مع «الحق» سبحانه، ويطمح إلى عبادة «المعانية» التي أشار إليها جبريل. من هنا نفهم أقوال شهيدة العشق الإلهي «رابعة العدوية» (ت : ١٨٥ هـ / ٨٠١) ، التي ترى في العبادة التي مبنها «الخوف» من العقاب و«الطمع» في الثواب سلوكا يماثل سلوك عبد السوء، الذي إذا خاف أطاع وإذا أمن عصى. أما عبادتها هي فمبنها على «الحب»، الذي غايته الوصول إلى رضا المحبوب حتى يكشف للمحب الحُجُب التي تحول دونه ودون رؤية وجه المحبوب . فإذا انكشفت الحُجُب تحققت الرؤية:

أحبك حبين: حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عن سواكا
وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحُجُب حتى أراكا^(٢)

ويمكن لنا بالمثل أن نفهم ما ورد على لسان «الحسين بن منصور الحلاج» (٣٠٩ هـ / ٩٢٠ م) من شطحات، أساء فهمها وتأويلها فقهاء السلطة فأهدروا دمه، وهي أقوال مبنها العشق الذي تفنى فيه «إنية» العاشق في ذات المحبوب، فلا تبقى إلا ذات واحدة:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن زُوجان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا^(٣)

وتجربة «حي بن يقظان» التي قصّها «أبو بكر ابن طفيل» - وتناولناها في الفصل السابق - تقدم شاهدا فلسفيا على ما يمكن أن ينشأ من تعارض بين التجربة الدينية الصوفية ومثيلتها العادية .

وقد أدى التعارض بين التجربة الصوفية والتجربة الدينية العادية إلى مأس دامية تمثلت فيما حدث من صلب لـ «الحلاج»، ومن قتل لـ «السهروردي، شهاب

(٢) انظر: أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، القاهرة د. ت.، المجلد الرابع، ص: ٢٦٧ .

(٣) انظر: «ديوان الحلاج» تحقيق: ماسينيون، باريس ، ١٩٥٥ .

الدين يحيى بن حبش» (٥٨٧ هـ - ١١٩١ م) على سبيل المثال. ولم يتوقف هجوم الفقهاء على المتصوفة، إلى حد وصمهم بالردة والكفر، حتى عصرنا هذا. إذ يذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى إخراج الفكر الصوفي بصفة عامة - وفكر «محيي الدين بن عربي» بصفة خاصة - من حظيرة الإسلام. وقد بلغ الحماس ضد التصوف بمحقق كتاب برهان الدين البقاعي «تبيين الغيبى إلى تكفير ابن عربي» إلى أن يضع له عنوانا من عنده يعلو على العنوان الأصلي للكتاب، هو «مصرع المتصوف»^(٤). وقد ذهب باحث معاصر آخر إلى اتهام «ابن عربي» بالقصد إلى التخريب العقائدى بنشر أفكار الباطنية. كالحلول ووحدانية الوجود - فى أقطار الدولة الإسلامية^(٥)

بسبب هذا التعارض فى الفهم والتأويل بين التجريتين الدينيتين من جهة، وبسبب «العنف» المادى و اللغوى الذى مارسه التجربة الدينية العادية. والفقهية بصفة خاصة- من جهة أخرى، كان على المتصوفة أن يُنتَجوا لغتهم الخاصة بهم، والى يمكن أن تحمىهم من بعض هذا العنف من هنا منشأ اهتمام المتصوفة باللغة؛ فاستعاضوا عن اللغة العادية بلغة الرمز والإشارة؛ سواء فى تفسيرهم للقرآن الكريم أو فى تعبيراتهم عن مواجدهم وتجاربهم الصوفية ومكاشفاتهم الروحية فى أحوالهم ومقاماتهم.

١ - مؤلفات الشيخ، نظرة عامة:

إن نظرة على لغة بعض مؤلفات الشيخ، ونسق تأليفها يمكن أن تكشف لنا كثيرا من خصائص هذه اللغة. كان الشيخ قد بدأ بالفعل نشاطا تأليفيا مكثفا قبل رحيله النهائى للمشرق سنة ٥٩٨-٥٩٩ هجرية. ولا يسعنا أن نتعرض هنا لمؤلفات الشيخ التى تستعصى على الإحاطة؛ إذ كتب الشيخ بنفسه عام ٦٣٢ أنه

(٤) تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٢هـ / ١٩٥٧ م، المقدمة، ص: ١٦ - ١.

(٥) انظر: عباس المزراوى: «محيي الدين بن عربي وغلاة الصوفية»، ضمن «الكتاب التذكاري لمحيي الدين بن عربي»، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٣٨٩هـ / ١٩٧٧، ص: ١٣١ وما بعدها.

قد أُلّف نحواً من مائتين وتسعة وثمانين رسالة، بينما يذهب «عبد الرحمن جامي» صاحب «نفحات الأنس» أن له خمسمائة رسالة ويذكر «الشعراني» في «اليواقيت والجواهر» أن لابن عربي حوالى أربعمائة كتاب، في حين يذكر «بروكلمان» في «تاريخ الأدب العربي» أن لابن عربي مائتين وخمسين رسالة وكتاباً مخطوطاً ومطبوعاً. وبالإضافة إلى ذلك يذكر صاحب «فوات الوفيات» أن تفسير ابن عربي للقرآن المعروف باسم «التفسير الكبير» يقع في خمس وتسعين مجلدة.^(٦) يكفينا هنا في مجال تحليل طبيعة اللغة الصوفية أن نتعرض لبعض مؤلفات الرجل التي تطرح بشكل لافت مشكل اللغة، لا على مستوى التعبير فحسب، بل على مستوى البناء والنسق التأليفى كذلك.

بدأ ابن عربي تأليفه بكتابة الرسائل القصيرة نسبياً، ثم بدأ في تصنيف الكتب الأطول بعد رحيله إلى المشرق؛ فبدأ تصنيف موسوعته «الفتوحات المكية» في مكة كما سنرى، ثم كان كتاب «فصوص الحكم» من آخر ما سطره من كتب قبل وفاته في دمشق. والشيخ حريص على أن يسجل تسجيلاً دقيقاً تاريخ تأليف كتبه في معظم السياقات التي يحيل إليها في كتب أخرى. نعلم مثلاً أنه في سنة ٥٨٨ / ١١٩٤ صنف كتاب «مشاهد الأسرار القدسية»، وذلك بعد العودة إلى إشبيلية من أول رحلة قام بها إلى تونس، أما كتاب «روح القدس في محاسبة النفس»^(٧) فقد صنّفه سنة ٥٩٠ / ١١٩٨ في تونس. وفي فاس كتب كتاب «الإسرا إلى مقام الأسرا» سنة ٥٩١ / ١١٩٩^(٨) وكتاب «مواقع النجوم ومطالع

(٦) انظر ص ٥ : من تصدير أبو العلا عفيفى لكتاب «فصوص الحكم». ويمكن لمن يريد معرفة المزيد عن مؤلفات الشيخ المطبوعة والتي ما تزال مخطوطة، هذا بالإضافة إلى معرفة ما يكتب عن الشيخ وفكره وما ترجم من مؤلفاته إلى اللغات المختلفة أن يرجع إلى «دائرة المعارف الإسلامية الكبرى» الصادرة عن مركز دائرة المعارف الإسلامية الكبرى، طهران ١٤١٩ / ١٩٩٨، المجلد الثالث، مادة «ابن عربي» ص : ٤٩٦ - ٥٤١ من الطبعة العربية. كذلك يمكن الرجوع إلى مجلة «جمعية محبي الدين ابن عربي» Journal of Muhyiddin Ibn `Arabi Society، الأعداد الثالث (١٩٨٤) والرابع (١٩٨٥) على وجه الخصوص.

(٧) نشر أولاً بتحقيق المستعرب الإسباني آسين بلا ثيوس، مدريد ١٩٣٩، وبتحقيق «عزه حصرية» دمشق ١٣٨٦ / ١٩٧٠.

(٨) دائرة المعارف العثمانية، حيد آباد الدكن، ١٣٦٧ / ١٩٤٨، ضمن «رسائل ابن عربي» جزءان ٩

أهلة الأسرار والعلوم»، الذى يتعامل فيه مع «قواعد أهل الطريق»، صنّفه فى
المرية سنة ٥٩٥ هـ^(٩) وكان قد ذهب إليها بعد حضور جنازة ابن رشد فى قرطبة .

يذكر ابن عربى هذا الكتاب الأخير فى سياق الحديث عن طهارة الأعضاء
الثمانية المكلفة من الإنسان، وهى العين والأذن واللسان واليد والبطن والفرج
والرجل والقلب، من حيث الظاهر والباطن معا، وذلك فى كتاب «الفتوحات
المكية». يقول: «وقد بينها بكمالها وما لها من الكرامات والأنوار والمنازل
والأسرار فى كتابنا المسمى مواقع النجوم. وما سُبقت فى علمى فى هذا الطريق
إلى ترتيبه أصلا. وقيدته فى أحد عشر يوما من شهر رمضان بمدينة المرية سنة
خمس وتسعين وخمسمائة. وهو يغنى عن الأستاذ، بل الأستاذ محتاج إليه، فإن
الأستاذ فيهم العالى والأعلى. وهذا الكتاب على أعلى مقام يكون الأستاذ عليه،
ليس وراءه مقام فى هذه الشريعة التى تعبدنا بها. فمن حصل لديه فليعتمد
بتوفيق الله عليه؛ فإنه عظيم المنفعة. وما حملنى على أنى أعرف بمنزلته إلا أنى
رأيت الحق فى النوم مرتين وهو يقول لى: «انصح عبادى، وهذا من أكبر نصيحة
نصحتك به والله الموفق وبيده الهداية».

وهنا نلمس أول ملمح من ملامح مؤلفات الشيخ: إنها ليست كتباً من تأليفه،
بل هى رسائل طُلب منه أن يبلغها للناس. هكذا ليس كتاب «مواقع النجوم» إلا
ثمرة من ثمار اللقاء مع «الحق» سبحانه فى رؤيا تسلم فيها الكتاب ليبلغه للناس
ناصحا. أهمية الكتاب تكمن هنا فى مصدر إلهامه، من هنا علو قدر ما يتضمنه
من نصائح وإرشادات فوق قدر أى أستاذ أو معلم.

وفى نفس العام صنف ابن عربى كتاب «التدبيرات الإلهية فى إصلاح المملكة
الإنسانية»^(١٠)، وهو يذكره فى كتاب «عنقاء مغرب» على الوجه التالى: «كنا قد
ألفنا كتابا روحانيا، وإنشاء ربانيا، سميناه بالتدبيرات الإلهية فى إصلاح المملكة
الإنسانية. تكلمنا فيه على أن الإنسان عالم صغير مسلخ من العالم الكبير، فكل

(٩) القاهرة: ١٢٨٤/ ١٩٦٥.

(١٠) حققه الأستاذ نيجرج مع كتابى «عقلة المستوفز وإنشاء الدوائر»، ليدن ١٢٣٩ هجرية.

ما ظهر فى الكون الأكبر فهو فى العين الأصغر. ولم أتكلم فى تلك الأوراق على مضاهاة الإنسان بالعالم إلى الإطلاق، ولكن على ما يقابله به من جهة الخلائق والتدبير، وبينت منه ما هو الكاتب والوزير والقاضى العادل والأمناء والعاملون على الصدقات والسفر، والسبب الذى جعل الحرب بين العقل والهوى، ورتبت فيه مقابلة الأعداء ومتى يكون اللقاء ونصرته نصرا مؤزرا، وكونته أميرا مدبرا، وأنشأت الملك وأقمت ببعض عالمة الحياة وبيعضهم الهلك. وكمل الغرض وآمن من فى قلبه مرض»^(١١).

إذا كان كتاب التدبيرات قد ركز على مضاهاة الإنسان بالكون فقط- المقارنة بينهما باعتبار الإنسان كونا صغيرا، والكون إنسانا كبيرا- فإن كتاب «عنقاء مغرب فى ختم الأولياء وشمس المغرب»، الذى كتبه المؤلف أيضا عام ٥٩٥ وفى شهر ربيع الأول على وجه التحديد «شهر ميلاد النبی محمد عليه السلام» حسب كلام الشيخ نفسه،^(١٢) مُخصَّص للموازاة الأهم بين «الإنسان» والملا الأعلى. الفارق بين الكتابين يكمن فى أن كتاب «عنقاء مغرب» مخصص كلية لشرح الجانب الآخر الروحاني من المملكة الإنسانية، وهو الجانب المضمر فى كتاب «التدبيرات الإلهية». يقول الشيخ: «وكتبت نويت أن أجعل فيه (=يعنى كتاب «التدبيرات الإلهية») ما أوضحه تارة وأخفيه، أين يكون من هذه النسخة الإنسانية والنشأة الروحانية مقام الإمام المهدي المنسوب إلى بيت النبی المآء والطین، وأين يكون منها ختم الأولياء وطابع الأصفیاء، إذ الحاجة إلى معرفة هذين المقامين فى الإنسان أكد من كل مضاهاة أکوان الحدثان ... فجعلت هذا الكتاب (= يعنى كتاب عنقاء مغرب) لمعرفة هذين المقامين»^(١٣).

وهذا الكتاب الأخير - شأنه شأن كل الكتب التى أنتجها الشيخ - ليس من تأليفه هو، بل هو مما أوحى إليه فى مشاهدته ورؤاه الصوفية . يقول : «ولما دخل شهر ميلاد النبی محمد عليه السلام (شهر ربيع الأول من سنة ٥٩٥) بعث إلى

(١١) عنقاء مغرب فى ختم الأولياء وشمس المغرب، القاهرة ١٣٧٣/١٩٥٤، ص: ٥ - ٦.

(١٢) السابق، ص ١٥ - ١٧.

(١٣) السابق، ص: ٦.

سبحانه رسول الإلهام - وهو الوحي الذي أبقاه علينا والخطاب الذي جَعَلَ منه إلينا - ... يأمرنى فيها بوضع هذا الكتاب المكنون والسر المصون المخزون.» الغريب فى أمر هذا الكتاب هو اعتراض ابن عربى على العنوان المقترح للكتاب من جانب الرسول المُلهم وهو - أى عنوان الكتاب - «الكشف والكنم فى معرفة الخليفة والختم». يقول ابن عربى إنه راجع الملك فى هذا العنوان، فعاد «الملك» يقترح عنواناً آخر هو «سدرة المنتهى وسر الأنبياء فى معرفة الخليفة الختم وختم الأولياء»، لكن ابن عربى مرة أخرى لا يستريح لهذا العنوان: «فلما كان يوم الجمعة والخطيب على أعواده يدعو قلوب أولياء الله وعباده إذ وجدت بردَ كَفِّ الجَدْب من حضرة القُرْب فتلقيت فى الغفلة الكلمات، وتوفرت دواعى القلب لما يَرِد عليه من النِّسَمَات، فإذا الخطاب الأنفس من المقام الأقدس: هل تقنع أيها الخطيب المُعرب والمُنْتقد المُعْجَب بعنقا مُغرب فى معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب؟»^(١٤).

وفى شرح المقصود بـ «شمس المغرب» فى العنوان يقول الشيخ: «شمس المغرب ما طلع فى عالم غيبك من أقوال العلوم وتجلّى إلى قلبك من أسرار الخصوص والعموم». الفارق إذن بين هذا الكتاب وكتاب «التدبيرات الإلهية» أنه بينما يركز التدبيرات على مقارنة بنية الإنسان ببنية العالم، يركز «عنقاء مغرب» أساساً على العالم الباطنى للإنسان، أى يركز على النسخة الصغرى micro-Cosmo فقط دون النسخة الكبرى macro-Cosmo^(١٥) وهكذا فى إلى جانب الغموض الذى يلف لغة الكتاب ويحيط به إحاطة تامة، بدءاً من العنوان، فإن لمعات من الوضوح هنا وهناك تكشف قيام بنية الكتاب على جدلية الوضوح والغموض: «فأنا الآن أبْدَى وأُعَرِّض تارة وإياك أعنى واسمعى يا جارة. وكيف أبوح بسر، وأبْدَى مكنون أمر، وأنا الموصى به غيرى فى غير موضع من نظمى ونثرى! نبّه على السر ولا تفشه؛ فالبوح بالسر له مقت على الذى يبيديه»^(١٦).

(١٤) السابق، ص ١٧.

(١٥) السابق، ص: ١٧ - ١٨.

(١٦) السابق؛ ص: ١٩ - ٢٠.

من الواضح أن العام ٥٩٥ كان عام الإنتاج الوفير من المؤلفات، أو بالأحرى من الإلهامات الربانية، وذلك قبل انهماك سيول المعرفة على قلب الشيخ في مكة منذ عام ٥٩٨ لكننا نعلم أنه قبل ذلك بدأ كتابة كتاب «إنشاء الدوائر» في تونس سنة ٥٩٨ في مكة نظم الشيخ ديوان شعره المعروف باسم «ترجمان الأشواق»، عام ٥٩٨، وهو الديوان الذي اضطر لتصنيف شرح له باسم «ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق» سنة ١٢١٤/٦١٠ بسبب اعتراض بعض فقهاء حلب عليه في ذلك (١٧) ..

وفي سنة ٥٩٩ يكتب رسالة «روح القدس في محاسبة النفس» من مكة لصديقه في تونس «عبد العزيز المهدوي». وهي مكتوبة في قالب نثرى موقّع، هو بالشعر أشبه، وفيه يناجى صديقه ويبيته بعض الهموم، فينتقد فيه سلوك بعض الصوفية الذين التنى بهم ممن تشغلهم هموم الدنيا أكثر من انشغالهم بعمق تجاربهم، كما يحدث صديقه عن مشايخه في أسبانيا، وكأنه بهذا الحديث يستعيد بالتذكّر بعض ذكريات يخشى عليها من الفوات والانمحاء.

٢ - جدلية الغموض والوضوح، الفصوص والفتوحات:

إن أى مقارنة بين رسائل الشيخ وكتبه القصيرة - ومنها كتاب «فصوص الحكم» - وبين كتاب «الفتوحات المكية» من حيث الأسلوب تكشف عن تفاوت ملحوظ، فبينما تتميز لغة «الفتوحات» بالسهولة والإطناب تتميز لغة «فصوص الحكم» بالتركيز والتكثيف الذي يقربها من حد «الغموض». يقرر ذلك أبو العلا عفيفي حين يشرح تجربته حين بدأ بحثه بقراءة كتاب «الفصوص» وكيف استعصى عليه فهم محتواه استعصاء تاماً رغم الشروح التي استعان بها. لكن هذا الغموض زال حينما ترك «الفصوص» جانبا وقرأ كتب ابن عربي الأخرى ومنها «الفتوحات». فلما عاد لقراءة «الفصوص» انفتح ما كان مستغلقاً عليه من لغته. والسبب الذي جعل «عفيفي» يبدأ قراءته بكتاب «الفصوص» أنه كان الكتاب الذي اعتمدت عليه

(١٧) تحقيق وتعليق: محمد عبد الرحمن الكردى ط القاهرة ١٩٦٨، ص ٤ - ٥.

الدراسات الاستشراقية المبكرة عن ابن عربي. فهو الذي اعتمد عليه الأستاذ نيكلسون في دراسته عن التصوف الإسلامي Studies in Islamic Mysticism «وهم» بترجمته إلى الإنجليزية، ولكنه عدل عن فكرته قائلا: هذا كتاب يتعذر فهمه في لغته مع كثرة الشروح عليه، فكيف به إذا ترجم إلى لغة أخرى؟ ويعتقد أبو العلا عفيفي «أن هذا السبب عينه هو علة إحجام جمهرة من فضلاء المستشرقين - غير نيكلسون - عن دراسة الفصوص والانتفاع به فيما كتبوه من بحوث قيمة عن ابن عربي، وهي غير قليلة. فالأستاذ لويس ما سينيون الذي جرؤ على معالجة كتاب الطواسين للحلاج وحل رموزها لا يكاد يذكر الفصوص أو يشير إليه في دراساته الواسعة القيمة في التصوف. وأسين بلاسيوس، وهو من أكثر المستشرقين دراسة لابن عربي، يقتصر على الفتوحات وغيره في كل ما يقول عنه؛ أما الفصوص فلا يدخل له في حساب. ونبيرغ، الذي كتب مقدمته البارعة في صدر نشرته لكتب ابن عربي الصغيرة، لا يكاد يذكره. وفون كريمير الذي خطط معالم التصوف تخطيطا مفيدا وختم كتابه بفصل خاص عن ابن عربي، اعتمد فيما كتبه على الفتوحات وكتب الشَّعراني وأغفل الفصوص»^(١٨)

وعن تجربته هو يقول عفيفي: «قبلت دعوة الأستاذ نيكلسون (= لدراسة فكر ابن عربي موضوعا للدكتوراه بجامعة كمبردج سنة ١٩٢٧) وأقبلت على قراءة كتب ابن عربي مبتدئا بالفصوص فقرأته مع شرح القاشاني عليه عدة مرات، ولكن الله لم يفتح عليَّ بشيء! فالكتاب عربي مبين، وكل لفظ فيه إذا أخذته بمفرده مفهوم المعنى، ولكن المعنى الإجمالي لكل جملة، وكثير من الجمل، أُلغز وأحاج لا تزداد مع الشرح إلا تعقيدا وإمعانا في الغموض. وذهبت إلى الأستاذ أشكو

(١٨) التصدير، ص ٢٠ - ٢١. هذا الكلام كتبه أبو العلا عفيفي عام ١٩٤٦، أما الآن فقد حظى كتاب «الفصوص» بترجمات جزئية وأخرى كاملة. انظر - Journal of the Muhyiddin Ibn `Arabi So- ciety, vol. iii, 1984, pp. 59. ولكن على الباحث أن يذكر أن ترجمة «الفصوص» ما زال أمرا صعبا، وهو ما يفسر كثرة الترجمات بالإنجليزية مثلا، الأمر الذي يعكس أن المترجمين والمهتمين بفكر ابن عربي عموما ما زالوا بعيدين عن الرضا عن ترجمة بعينها. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يكن ممكنا الانخراط في محاولات الترجمة إلا بعد أن كثرت الدراسات وتعددت المداخل والمناهج بعد الدراسات الأولى التي يشير إليها عفيفي، ومنها دون شك دراسته الرائدة The Mystical Philosophy of Muhyid-Din Ibnul `Arabi, Cambridge University

حالي، وأذكره بأن هذه أول مرة استعصى على فهم كتاب باللغة العربية إنى هذا الحد. فنصحني بترك الفصوص والإقبال على كتب ابن عربي الأخرى، فقرأت منها نيذا وعشرين كتابا ما بين مطبوع ومخطوط، منها الفتوحات المكية. وهنا بدأت تتكشف لى معانى الشيخ ومراميه بعد ما أصبحت على إلف باصطلاحاته وأساليبه. فلما عدت إلى الفصوص وجدته مع صغر حجمه خلاصة مركزة لأمهاات تلك المعانى، ووضح لأول مرة ما كان منه مستغلقا، وأصبح يسيرا على فهم ما ألفيته بالأمس عسيرا. (١٩).

والحقيقة أن كتاب «الفتوحات» يتضمن - فما يتضمن من معرفة موسوعية تكاد تشمل كل فروع الثقافة الإسلامية- توضيحا لكثير من جوانب الغموض التى نلمسها فى كتب ابن عربي المبكرة. لعلنا نشير هنا إلى أن الغموض الذى أشرنا إليه بخصوص كتاب «عناء مُغرب» يجد شرحا له فى الباب ٣٦٦ من الفتوحات، وعلى هذا الباب اعتمدنا فى تحليلنا فى الفصل الثانى لمفهوم «المهدى المنتظر». لكن الجدير بالالتفات أن يكتب ابن عربي «الفصوص» فى لغة غامضة بعد أن شرح فلسفته كاملة فى «الفتوحات» فهل لهذا علاقة بما نسميه هنا «جدلية الغموض والوضوح»؟ لنبدأ بتأمل بنية الكتابين:

يعد كتاب «الفتوحات المكية فى معرفة الأسرار المالكية والمُلكية» من أنضج كتابات الشيخ وأكثرها استيعابا لفلسفته بعد أن نضجت واستقرت مقولاتها فى نسق موحد. وقد بدأ بتدوينه فى أوائل إقامته بمكة سنة ٥٩٨ هـ وأتم النسخة الأولى منه بدمشق فى ٦٢٩ أما النسخة الثانية والتى تشتمل على إضافات عديدة فقد أتمها قبل سنتين من وفاته سنة ٦٣٦-، والمخطوطة الكاملة بخط ابن عربي نفسه توجد فى متحف الأوقاف الإسلامية فى اسطنبول فى ٣٧ مجلدا (الأرقام من ١٨٤٥-١٨٨١)، وهى النسخة التى طبعت عدة طبعات، ثم بدأ «عثمان يحيى» محاولة نشر طبعة منقحة مصححة فى ٣٧ مجلدا، لم يصدر منها منذ ١٩٧٢ سوى ١٤ مجلدا، ورحل إلى جوار ربه -رحمه الله- قبل أن يتمها.

(١٩) السابق، ص : ٢١.

يتكون كتاب «الفتوحات المكية»، بالإضافة إلى «الافتتاحية» و«الخطبة»، من ستة فصول يحتوى كل منها عددا من الأبواب :

الفصل الأول «فى المعارف» ويضم الأبواب من ١ - ٧٣،

أما الفصل الثانى فهو بعنوان «فى المقابلات» ويضم الأبواب من ٧٤ - ١٨٨

الفصل الثالث عنوانه «الأحوال» وأبوابه من ١٨٩-٢٦٩،

والرابع «فى المنازل» يضم الأبواب من ٢٧٠-٣٨٣،

والفصل الخامس عنوانه «فى المنازلات» ويحتوى الأبواب من ٣٨٤-٤٦١،

وينتهى الكتاب بالفصل السادس «فى المقامات» ويضم الأبواب من ٤٦٢-٥٦٠

وينتهى الكتاب بقول المؤلف : «انتهى بحمد الله بانتهاى الكتاب على أمكن ما يكون من الإيجاز والاختصار على يدى منشئه .وهو النسخة الثانية من الكتاب بخط يدى، وكان الفراغ من هذا الباب الذى هو خاتمة الكتاب بكرة يوم الأربعاء ٢٤ من ربيع الأول سنة ٣٦٣ وكتب منشئه بخطه محمد بن على بن محمد ابن العربى الطائى الحاتمى وفقه الله :هذه النسخة ٣٧ مجلدا، وفيها زيادات على النسخة الأولى التى وقفتها على ولدى محمد الكبير، الذى أمه فاطمة بنت يونس بن يوسف أمير الحرمين وفقه الله وعلى عقبه وعلى المسلمين شرقا وغربا وبرا وبحرا» .

أما كتاب «فصوص الحكم»، الذى كتبه فى دمشق عام ٦٢٧، فينفرد من بين كتب الشيخ بأنه أكمل صورة؛ لأنه - فيما يقول «أبو العلا عفيفى» - جمع فيه بين «قضايا العقل» وأحوال «الذوق والكشف» واستغلها إلى أبعد مدى فى تأييد مذهبه فى «وحدة الوجود»^(٢٠) ولأن الكتاب يمثل خلاصة مركزة لأمهات معانى وأفكار الشيخ فقد اشتدت الحاجة إلى شرح غوامضه وفك طلاسمه بالعودة إلى كتبه الأخرى . والكتاب يتكون من ٢٧ فصلا، كل فصل منهم مخصص لكلمة نبوية

(٢٠) ص: ١١ من التصدير.

- باسم الفصل - تتناول الدلالات الرمزية الصوفية للأنبياء من حيث اندراجهم في مفهوم «الكلمة الإلهية الجامعة» ومن حيث تعبير كل منهم عن وجه أو أكثر من أوجه تلك الكلمة.

ورغم الأسباب الكثيرة التي يذكرها أبو العلا عفيفي لصعوبة أسلوب ابن عربي في كتاباته، فإنه لم يطرح تساؤلاً ما عن سبب هذا التفاوت في الأسلوب بين «الغموض» و«الوضوح». فيما سبق لنا الاستشهاد به - خاصة من كتاب «عنقاء مغرب» - يفصح لنا ابن عربي عن أن أسلوبه يعتمد اعتماداً واضحاً على توظيف جدلية «الغموض» و«الوضوح»، أو «الإظهار والكتمان» و «التعريض والتصريح» معاً: «فأنا الآن أبدي وأعرض تارة وإياك أعنى واسمعى يا جارة. وكيف أبوح بسر، وأبدي مكنون أمر، وأنا الموصى به غيرى في غير موضع من نظمي ونثري! نبّه على السر ولا تفشّه؛ فالبوح بالسر له مقت على يديه» (ص: ١٩ - ٢٠).

لكن لماذا الصعوبة في الصياغة، والغموض والتعريض؟ هل هو الضن بالمعرفة أن تصل إلى عقل من لا يقدرها حق قدرها؛ فيتخذها ذريعة للتشويش على إيمان صاحبها عند «العامة»؟ ومن هؤلاء الذين يخشى منهم المتصوفة عموماً وابن عربي على وجه الخصوص؟ هل هم «الفقهاء» كما يقرر كثير من الباحثين؟ هل هو الخوف على العامة من «المعرفة»؟ ولماذا الكتابة إذن إذا كان القصد «الإخفاء» لا «الكشف والبيان»؟ لا جدال في أن منشأ الصعوبة والغموض يجد تفسيره الأساسي في طبيعة التجربة الصوفية. أما «تعمد» الغموض فيمكن أن نتلمس تفسيره في العنف المادي الذي عانى منه المتصوفة الأوائل، هذا فضلاً عن العنف المعنوي الذي ظل «الفقهاء» يمارسونه ضد الصوفية حتى عصر ابن عربي وبعده.

٣- مشكل التجربة أم مشكل اللغة، الخطاب الإلهي:

لأن التجربة الصوفية في جوهرها تجربة انفتاح الأنا على المعنى الباطني للوجود كله، وهذا الانفتاح مرهون بالقدرة على التواصل بين الأنا والكون الذي

هى جزء منه، فمن الطبيعى أن تمثل التجربة الصوفية تجربة موازية لتجربة «الوحى» النبوى. الفارق بين تجربة «النبى» وتجربة «الصوفى» أن التجربة الأولى تتضمن الإتيان بتشريع جديد، بينما يكون فهم الوحى النبوى بالاتصال بنفس المصدر هو مهمة «العارف» فى التجربة الصوفية. هذا التشابه والتوازي بين التجريبتين يؤسس تشابها لغويا. فكلام الله الموحى به إلى الرسل والأنبياء يكشف ويصرح من ناحية، ويخفى ويومئ من ناحية أخرى. إنه يكشف ويصرح بما هو خطاب للناس كافة؛ وذلك بحكم تفاوت مستويات عقول الناس وأفهامهم. لكنه يومئ ويعرض بما هو خطاب قابل دائما لانفتاح المعنى فى الزمان والمكان.

هذا التشابه بين التجريبتين الصوفية والنبوية أفضى إلى تشابه الخطاب الصوفى من حيث بنية لغته التعبيرية بالخطاب القرآنى. ويمثل التفسير الصوفى للقرآن الكريم مجال التقاء التجريبتين: فمهمة التفسير «كشف المعنى» الخفى، الذى تمت صياغته فى اللغة الإنسانية بكل ما تعانيه من قصور فى التعبير عن المطلق والمتعالى. وإذا كان «الوحى» يجسد التقاء المطلق بالنسبى فقد كان ذلك الالتقاء ممكنا من خلال وسيط اللغة. فى اللغة تنزل الإلهى للإنسانى، من هنا كان الوحى «تنزيلا»، وكان على اللغة الإنسانية أن تحتل ازدواج بنيتها الدلالية. يسعى الصوفى فى مجال تفسير القرآن إلى شرح الغامض و«إظهار» الباطن، فى حين يبدو فى تعبيره عن تجربته الصوفية ساعيا إلى «الستر» و«الإخفاء» و«الغموض».

من أجل هذا يميز المتصوفة بين مصطلحى «الإشارة» و«العبرة»، حيث الإشارة مجرد إحياء بالمعنى دون تعيين وتحديد، ومن شأن هذا الإحياء أن يجعل «المعنى» أفقا منفتحا دائما. أما العبرة فهى تحديد للمعنى يجعله مغلقا ونهائيا، الأمر الذى يتعارض مع حقيقة الكلام الإلهى الذى تتعدد مستويات الدلالة فيه تعددا لا نهائيا. هذا التمييز بين مصطلحى «الإشارة» و«العبرة»، يتأسس على التمييز الذى يؤكد المتصوفة بين «المعنى الظاهر» للخطاب الإلهى وبين دلالاته «الباطنة»؛ إذ «الظاهر» هو ما يدل عليه الخطاب بدلالة اللغة

الوضعية في بعدها الإنساني، في حين أن «الباطن» هو المستوى الأعظم، مستوى اللغة الإلهية، «المشار إليه» بطريقة لا تتكشف إلا لصاحب التجربة الصوفية. وإذا كان فهم الفقهاء - أهل الظاهر - للخطاب القرآني لا يتجاوز حدود الدلالة الوضعية للغة في بعدها الإنساني، فالعارفون وحدهم هم القادرون على النفاذ إلى ما يشير إليه الخطاب الإلهي من معان ودلالات إلهية عميقة (باطنة).

هكذا يطور المتصوفة مفهوم الكلام الإلهي عند «الأشاعرة»^(٢١)، الذين ميّزوا في بنية الخطاب الإلهي بين «الكلام الأزلي القديم» - أو «الكلام النفسى» - الذى هو صفة الذات الإلهية، وبين «التلاوة» الإنسانية، التى تتصف بالحدوث. يطور المتصوفة المفهوم المذكور؛ فيميزون بين البعد الإلهي للغة الخطاب الإلهي وبين بعدها الإنسانى^(٢٢) تتجلى اللغة الإلهية - عند المتصوفة - فى الوجود كله؛ فهى ليست محصورة فى إطار الخطاب القرآني. إنها تتجلى فى الوجود كله؛ لأن الوجود كلمات الله المسطورة فى «الآفاق»، والقرآن كلمات الله المسطورة فى

(٢١) الأشاعرة هم أتباع «أبو الحسن الأشعري» (ت: ٩٥٦/٣٢٤)، كان معتزليا ثم اختلف مع أساتذته فى بعض القضايا. القضية التى نشير إليها هنا - قضية طبيعة الكلام الإلهي - من القضايا الخلافية التى أثارت فى فترة مبكرة من التاريخ الإسلامى - الربع الأخير من القرن الأول الهجرى - وذلك بتأثير الجدل المسيحى الإسلامى حول طبيعة السيد المسيح، وبالتالى حول طبيعة الكلمة الإلهية: هل كانت موجودة منذ الأزل مع الله، فهى «قديمة»، أم أن صفة الأزل و«القدم» تختص بالوجود الإلهي وحده، ومن ثم لا يمكن وصف «الكلمة» الإلهية بالقدم والأزلية؟ كان موقف المعتزلة واضحا، وهو القول بأن الكلمة الإلهية - القرآن فى هذا السياق الإسلامى - محدثة مخلوقة ولا يمكن أن تكون أزلية قديمة. وكان موقف جمهرة العلماء هو الامتناع عن الخوض فى الموضوع أو الإدلاء برأى فيه، لكنهم فى نفس الوقت لم يتقبلوا القول الذى قاله المعتزلة. سبب هذا رأى شيئا شبيها بمحاكم التفتيش حين قرر الخليفة العباسى «المأمون» فرض رأى المعتزلة بقوة الدولة على العلماء، فيما عرف باسم «محنة خلق القرآن»، وهى محنة استمرت بعد وفاته حوالى ١٨ عاما (٨٢٣/٢١٨ - ٨٥٢/٢٣٧). كان موقف الأشاعرة من مشكلة طبيعة الكلام الإلهي - القرآن - التمييز بين الكلمة الإلهية المطلقة الموازية للعلم الإلهي، وبين ظهور الكلام الإلهي فى اللغة مقروءا على لسان البشر. وهذا هو التمييز الذى طوره المتصوفة. عن المحنة يمكن مراجعة «دائرة المعارف الإسلامية» المجلد السابع ص ٢: وما بعدها (٢٢) ناقشنا بالتفصيل الخلاف بين «المعتزلة» و«الأشاعرة» حول قضية «اللغة» عموما، ولغة الخطاب الإلهي على وجه الخصوص، فى الفصل الأول من دراستنا «الاتجاه العقلى فى التفسير» بعنوان «المعرفة والدلالة اللغوية»، ص ٤٣ - ٩٠.

المصحف . وكما أن كلمات الله الوجودية لا يمكن حصرها ولا تنفد،^(٢٣) فكلمات القرآن المعدودة المحصاة في ذاتها تشير إلى معان ودلالات وجودية لا تنفد. وهكذا تكون تأويلات المتصوفة للقرآن نابعة من فهمهم لـ «الإشارات» المدلول عليها في العبارات، وذلك لقدرتهم على النفاذ من «ظاهر» اللغة الوضعية إلى «باطن» اللغة الإلهية في بنية الخطاب. أما الفقهاء فيعجزون عن ذلك، بسبب عكوفهم على مستوى التجربة الدينية العادية، واستغراقهم في مستوى الدلالة الوضعية للغة الإنسانية، «ظاهر» الخطاب الإلهي.

ومن المهم هنا تأكيد أن المتصوفة لا يتصورون انفصالا تاما أو تعارضا بين «الظاهر والباطن» - أو بين «العبارة والإشارة» - في بنية الخطاب، بل التعارض وهم من أوهام أهل الظاهر والفقهاء. والحقيقة عند المتصوفة أن اللغة الإنسانية في بعدها الدلالي العرفي ليست إلا صدى للغة الإلهية، أو «مظهرا» ومجلى من مجالها. لقد كان من الضروري أن تنزل لغة الوحي في «ظاهر» اللغة الإلهية؛ أي تنزل بلغة البشر؛ لأن الوحي نزل هداية للناس كافة. هذا ما أقره «حي بن يقظان» بعد تجربته مع أهل جزيرة صديقه «أسال»، كما سبقت الإشارة، وهو نفس ما يقرره «محيي الدين بن عربي» في كتاب الفتوحات (٢/٨٦ ، ٢١٩ - ٢٢٠ ، ٥٣٠/٣)^(٢٤) لكن هذه اللغة الإنسانية في بعدها الوضعي العرفي تمثل مستوى المعنى الظاهر، وتشير في نفس الوقت إلى الدلالة الإلهية الباطنة، وهذا ما يفسر لنا إصرار المتصوفة على تأكيد أهمية البعد «الظاهر» - بل جوهرية - للنفاذ إلى المستوى «الباطن». إن «الظاهر» هو «الرمز» الذي بدونه يستحيل النفاذ إلى المرموز؛ وعلى ذلك فهجوم الفقهاء على تأويلات المتصوفة ناتج عن

(٢٣) يعتمد المتصوفة عامة، وابن عربي بصفة خاصة، في صياغة هذا المفهوم للغة الإلهية الكونية - الوجود كلمات الله - على ما ورد في القرآن الكريم: قوله تعالى: «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا» (سورة الكهف ١٨ - ١٠٩) وقوله تعالى: «ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله» (سورة لقمان ٢٧ - ٢١).

(٢٤) الإشارة في هذا الفصل بصفة خاصة وفي الفصل الذي يليه - الفصل الخامس - لكتاب الفتوحات المكية، سيكون لطبعة دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، واستخدام طبعات مختلفة لنفس الكتاب سببه كثرة الأسفار والانتقال، حيث لا تتوفر دائما نفس الطبعة من الكتاب.

جهل بنهجهم؛ إذ يتخيلون : «أنهم يرمون بالظواهر فينسبونهم إلى الباطنية، وحاشاهم من ذلك، بل هم القائلون بالطرفين». (٦٤٥/١) ومعنى ذلك أن استخدام مصطلح «الإشارة» في التفسير الصوفي للقرآن - كما في «نطائف الإشارات» للقسري (أبو القاسم بن عبد الكريم بن هوازن، ت: ٤٦٥هـ/١٠٧٢) - لا يقوم على افتراض تناقض بين «الظاهر» و«الباطن» كما يتوهم الفقهاء، بل يعنى استخدام مصطلح دال على البنية الرمزية للقرآن، كما أنه مصطلح يسعى إلى تحاشي هجوم الفقهاء على المتصوفة إن استخدموا مصطلح «تفسير».

أما البعد الثانى، الخاص بمشكلة «التعبير» عن التجربة الصوفية، فقد أفضى إلى تأكيد أهمية «الغموض» لستر المعرفة عمن ليس أهلًا لها. من هذه الزاوية يمكن النظر لهذا البعد بوصفه «محاكاة» للغة الوحي. إن الدلالة المزدوجة لبنية القرآن - دلالاته على الوجود من حيث لغته الإلهية، وعلى الشريعة الظاهرة من حيث مواضع اللغة الإنسانية وأعرافها - تكتسب وحدتها من خلال التجربة الصوفية، التى هى تجربة وجودية وعرفانية فى نفس الوقت. هى تجربة وجودية من حيث إن «معراج» الصوفى ليس إلا رحلة روحية يتخلص فيها تدريجياً من علائقه بعالم «الظواهر» نافذاً إلى «باطنها» الروحي. وإذا يرهف «السمع» لأرواح الموجودات فى معراجه يكتسب معارف تتزايد بدرجة رقيه فى المعراج، ومع التزايد الكمى فى المعرفة يحدث تحول كفى فى قدرته على السماع، حتى يصل إلى فك شفرة بعض أبعاد اللغة الإلهية (كلمات الله الكونية). فى هذه الرحلة تتطبع فى النفس - نفس الصوفى العارف - شفرة اللغة الوجودية، فيتمكن من النفاذ إلى الآفاق، فيرى «الآيات» فى الآفاق كما يراها فى نفسه. هذا هو المعنى الذى يفهمه المتصوفة من الآية القرآنية الكريمة «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» (سورة فصلت ٥٣/٤١) (٢٥).

إذا كان منهج التفسير الإشارى نابعا من تصور ثنائى لبنية الدلالة فى الخطاب الإلهي، فإن استخدام الإشارات فى تعبير المتصوفة - وابن عربى

(٢٥) انظر الشرح التفصيلي الذى يقدمه ابن عربى لرحلة الصوفى الوجودية، ولمراتب المقامات والأحوال فى بعدها العرفانى والوجودى، فى الفتوحات ١٣٩/٢ - ٣٧٥.

خاصة- عن تجاربهم ينطلق من نفس التصور. والباعث في الحالتين واحد هو محاولة تحاشي التعرض للعنف المادى واللغوى اللذين كانا أخطر أسلحة الفقهاء. ومن ورائهم السلطة السياسية أحيانا- فى اضطهاد التصوف. فى هذا البُعد يتخذ المتصوفة من مصطلح «الإشارة» دلالة على نهجهم فى «ستر» معارفهم عمن ليسوا أهلا لها. ورغم ما يبدو من تعارض فى توظيف المصطلح، مرة بمعنى «التفسير» والكشف وأخرى بمعنى «الستر» و«الإضمار»، فالحقيقة أن هذا التعارض شكلى خالص. فاللغة الإلهية ذاتها اتخذت منحى الستر فى الخطاب القرآنى، وهذا المستور هو الذى يحتاج للكشف عنه بفك شفرة «الإشارات». لكن التعبير عن هذا المستور الدلالى لو اتخذ منحى الوضوح التام لكان الصوفى يرتكب بذلك خطيئة عظمى؛ تلك هى خطيئة مخالفة الهدف من وراء الستر الإلهى. وبعبارة أخرى: إذا قام الصوفى بفك شفرة الخطاب الإلهى يكون قد قضى على «الحكمة» التى اقتضت هذه البنية الدلالية المزدوجة، وهى مناسبة الخطاب الإلهى للمستويات المختلفة من عقول البشر، بوصفه خطابا موجها للناس كافة.

ولما كان التعبير عن التجربة الصوفية هو فى الحقيقة كشف لمعنى الوجود ومعنى «الخطاب» الإلهى معا كان استخدام نهج «الستر» بتوظيف الإشارات استخداما منطقيا فى الحالتين. وبعبارة أخرى يصبح استخدام منهج «الستر» فى لغة الصوفى المعبرة عن تجربته الكشفية تقليدا للنهج الإلهى فى خطابه. ومن السهل أن يلاحظ القارئ لأى تفسير من تفاسير المتصوفة أن «الوضوح» ليس هدفا ولا غاية، بل الهدف والغاية حفز المتلقى على الدخول فى المغامرة يقول أبو حامد الغزالى (ت: ٥٠٥ هـ / ١١١١): المشهد هناك لمن يريد أن يراه. ويقول أيضا:

فكان ما كان مما لست أذكره فظنُّ خيرا ولا تسأل عن الخبر^(٢٦)

إن الضنَّ بالعلم على غير أهله لم يكن مسلك الصوفية وحدهم، فالفلاسفة أيضا حرّموا على العامة الاطلاع على كتب «البرهان» خشية أن تفسد عقائدهم.

(٢٦) انظر: مشكاة الأنوار، تحقيق: أبو العلا عفيفى، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٦.

لكن لهذا الحرص على الستر عند المتصوفة بعدا آخر يتمثل في عجز اللغة «العادية» عن الوفاء بحق التعبير عن مواجد الصوفية ومعارفهم. «كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة»، هكذا يقول «النُّفَرِيُّ» (محمد بن عبد الجبار بن الحسن، ت : ٣٦٦هـ / ٩٧٧م)، وابن عريى يؤكد أن : «قوالب ألفاظ الكلمات لا تحمل عبارة معانى الحالات»^(٢٧) ومع تعدد الأسباب الموجبة لتبنى منهج الستر والإشارة، والاقتصار على اللغة الرمزية، يبقى سبب «الحماية» ضد اضطهاد الفقهاء والسلطة السياسية هو العلة المركزية. يقول الشيخ الأكبر:

ولا أشد من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته، العارفين به من طريق الوهب الإلهي، الذين منحهم الله أسرارَه في خلقه، وفهمهم معاني كتابه وإشارات خطابه، فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسل عليهم السلام. ولما كان الأمر في الوجود والواقع على ما سبق به العلم القديم ... عدل أصحابنا إلى الإشارات، كما عدلت مريم عليها السلام، من أجل أهل الإفك والإلحاد، إلى الإشارة. فكلامهم رضى الله عنهم في شرح كتابه العزيز، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إشارات وإن كان ذلك حقيقة وتفسيرا لمعانيه النافعة. وردَّ (= الله) ذلك كله إلى نفوسهم، مع تقريرهم إياه في العموم، وفيما نزل فيه كما يعلمه أهل اللسان، الذين نزل الكتاب بلسانهم؛ فعمَّ به سبحانه عندهم الوجهين، كما قال تعالى: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم» يعنى الآيات المنزلة في الآفاق وفي أنفسهم؛ فكل آية لها وجهان: وجه يروونه في أنفسهم، ووجه يروونه فيما خرج عنهم، فيسمون ما يروونه في أنفسهم «إشارة» ليأنس الفقيه صاحب الرسوم إلى ذلك، ولا يقولون في ذلك إنه تفسير وقاية لشرهم وتشنيعهم في ذلك بالكفر عليه؛ وذلك لجهلهم بمواقع خطاب الحق. واقتدوا في ذلك بسنن الهدى؛ فإن الله كان قادرا على تنصيب (= التعبير عنه نصا؛ أى بلا

(٢٧) انظر للنفري : كتاب المواقف، تحقيق : آرثر جفرى، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٤، ص ٥١. وانظر لابن عريى : نزل الأملاك من عالم الأرواح إلى عالم الأفلاك، تحقيق : طه عبد الباقي سرور، و«زكى عطية»، دار الفكر العربى، بيروت ط١ ١٢٨٠هـ / ١٩٦١، ص: ١١٦.

حاجة إلى تفسير) ما تأوَّله أهل الله فى كتابه، ومع ذلك فما فعل، بل أدرج فى تلك الكلمات الإلهية، التى نزلت بلسان العامة، علوم معانى الاختصاص التى فهمها عباده حين فَتَحَ لهم فيها بعين الفهم الذى رزقهم.» (٢٧٩/١).

هكذا يصبح منهج الستر باستخدام اللغة الإشارية منهجا اتباعيا للمنهج الإلهي، الذى استخدم لغة الستر والإشارة فى خطابه. والباعث هنا كما هو الباعث فى لغة الخطاب الإلهي هو التلاؤم مع مستويات العقول. ويبقى مع ذلك فارقان يجب التنبيه إليهما: الفارق الأول أن للنهج الستر عند المتصوفة هدفا وقائيا ضد هجوم علماء الرسوم وأهل الظاهر. الفارق الثانى أن نهج الستر عندهم يرتد إلى مأزق «ضيق اللغة»، وهو مأزق لا وجود له فى الخطاب الإلهي، إذ لو شاء الله أن يعبر عن كل الحقائق بأسلوب مفهوم لكل أحدٍ لَفَعَلَ، ولكنه شاء ألا يفعل. مأزق الصوفى أن معرفته أوسع من لغته من جهة، وأنه من جهة أخرى لا يريد أن يصطدم بالعالم، الذى ليس على استعداد بعد لفهم الحقائق التى يعرفها هو. هذا المأزق الأخير، أو شبيه به، ينسبه المتصوفة إلى النبى (صلعم) وإلى الأفراد المعدودين من جيل الصحابة، الذين كتموا معارفهم عن العامة رحمة بهم:

«ولما كان الأمر عند الخلق بهذه النسبة، وحُجِّبوا عن ماله عند الله من عظيم النسيبة، أخفيناه عنهم رحمة بهم، وجرينا على مذهبهم. فما أظهرت النبوة للجمهور إلا قدر حمل عقولهم خوفا من نفورهم عنه وذهولهم؛ فيقعوا فى تكذيب الخبر الصادق فتحل بهم لذلك العوايق. ثم جرى على هذا المهيع السلفُ الصالح من الصحابة، ونزلوا من مقام الهيبة إلى مقام المزاح والدعابة ... وتسترُّوا بالمعاملات فى الظواهر، وتكتموا بما حصل لهم من العلم المصون فى السرائر، وإن كانوا قد نبَّهوا رضوان الله عليهم على أمور ليست عند الجمهور، وخاطبوا بها من وراء الستور. قال أبو هريرة: «لو بَنَيْتُهُ لَقُطِعَ مِنِّي هذا البلعوم»، وقال ابن عباس: «لو فُسِّرَتْهُ لَكُنْتُ فيكم الكافر المرجوم». لما رأوا أن حقائق الغيوب فوق

مراتب بعض القلوب أخذوا الأمر من فوق معرفة مشاهدة وذوق، ورثا نبوياً محفوظاً، ومقاماً علوياً ملحوظاً. (٢٨).

وينسب مثل هذا النهج في الستر أيضاً إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه، وإلى كل من أئمة الشيعة «جعفر الصادق» و «علي زين العابدين».

«وكما قال علي رضى الله عنه، حين علم النقلة: «إن هاهنا - وضرب على صدره بيده- لعلوما جمّة، لو وجدت لها حملة»، وكما قال ابنه الذكي الحبر السنّي:

يا ربُّ جوهر علمٍ لو أبوح به لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسناً» (٢٩)

٤ - البنية القرآنية ومؤلفات الشيخ:

لعل من أهم الأبعاد الجديرة بالالتفات في أسلوب ابن عربي بُعداً كنت قد تنبّهت إليه بعد عشر سنوات من إنجاز دراستي الأولى عنه في سنة ١٩٨١. كنت بصدد المشاركة في ندوة في «إشبيلية» بإسبانيا بعنوان «الأندلس ملتقى ثلاث عوالم» سنة ١٩٩٢، واخترت أن تكون مساهمتي في الندوة بحثاً عن دور الأندلس في تشكيل الصيغة الفكرية لفلسفة «ابن عربي» الصوفية. وفي إنشاء إعدادي لهذا البحث تنبّهت إلى سيطرة البنية «القرآنية» - كنموذج ونمط سردي متميز - على بنية كتاب «الفتوحات المكية». لا أقصد بهذا مجرد الحضور الطاغى للاستشهادات القرآنية المباشرة، أو غير المباشرة، وهي أكثر من أن تحصى. بل أعني ما هو أكثر من الحضور. أعني تعمّد «ابن عربي» الانتقال من موضوع إلى موضوع آخر تقليداً للبنية القرآنية التي يتحرر فيها السرد من وحدة الموضوع تحرراً تاماً.

(٢٨) عنقاء مُغْرَب في ختم الأولياء وشمس المغرب، سبق ذكره، ص ٢٠ - ٢١.

(٢٩) تنزيل الأملاك، سبق ذكره، ص: ٣٦. وانظر أيضاً: الفتوحات ١٩٩/١ - ٢٠٠.

ونحن معشر الدارسين نعرف أن الترتيب الآتى للقرآن فى المصحف لا يتمثل مع ترتيب نزول الوحي بـ «الآيات» و«السور» على النبى عليه السلام. ولا نزال لا ندرى على وجه اليقين حتى الآن لماذا اتخذ الترتيب النهائى -الحالى- شكلا مخالفا لترتيب النزول، وإن كنا نعلم أن الترتيب الحالى للقرآن جعل الموضوعات مفرقة. فإذا احتاج باحث لدراسة موضوع بعينه فى القرآن فإن عليه أن يجمع الآيات التى تتناول هذا الموضوع من مختلف سور القرآن، ثم يضمها إلى بعضها البعض، قبل أن يجرى عليها التحليل والفحص. وقد كان من أهم آثار هذا الاختلاف بن «ترتيب النزول» و«ترتيب التلاوة» أن أصبح هناك نمطان من «التفسير» : نمط يتتبع السور والآيات حسب ترتيب المصحف، وهذا هو النمط السائد، والنمط الثانى من التفسير هو ما أصبح معروفا باسم «التفسير الموضوعى» وهو الذى يجمع من الآيات ما يتصل بموضوع بعينه ويضمها إلى بعضها البعض كما سبق القول .

ولأن «ابن عربى» يصر على أن كتبه ومؤلفاته ليست من نمط الكتابات والتأليف العادية، بل هى إلهامات ورؤى تلقاها من الله وأمر بإبلاغها للناس، فمن الطبيعى إلا تخضع فى ترتيب فصولها وأبوابها لقواعد التأليف المعتادة. إنها فى الحقيقة تتبع نهج الترتيب القرآنى. بعبارة أخرى يصر «الشيخ الأكبر» على أن يقنع قارئه بأنه ليس مسئولا عن هذا الترتيب للكتاب؛ لأنه ببساطة لم يؤلفه من فكره الخاص. إن اسم الكتاب «الفتوحات المكية» يشير فقط إلى «المكان» الذى تنزلت فيه على الشيخ ملائكة «الإلهام» بالأفكار التى ليس له فيها إلا فضل صياغتها، أى إعطائها الغطاء اللغوى . يقول عن كتاب «الفتوحات» فى المقدمة:

«الأغلب فيما أودعته هذه الرسالة ما فتح الله به علىّ عند طوافى بيته المكرم، أو قعودى مراقبا له بحرمة المُشْرِفِ المُعْظَم، وجعلتها أبوابا شريفة، وأودعتها معانى لطيفة». ويذكر فى المجلد الثانى أن كتابه لا يخضع فى ترتيب فصوله وأبوابه لما ينبغى أن تكون عليه الكتب من ترتيب منطقى وانتظام فكرى يبدأ بالمقدمات وينتهى بالنتائج، ويعلل ذلك بأمرين: الأمر الأول أن الترتيب والتبويب ليس من صنعه هو؛ فهو مجرد «متلق» لما يتجلى على قلبه من معارف.

الأمر الثانى أن ترتيب كتابه يمكن أن يقارن بترتيب سور القرآن الكريم وآياته، وهو ترتيب له منطقته الخاص. وفى هذين الاعتبارين الأول والثانى يكاد الشيخ الأكبر أن يقول إن مؤلفاته تخضع فى بنائها وأسلوبها السردى لنفس القوانين التى تتبنى عليها الكتب المقدسة عامة والقرآن الكريم بصفة خاصة .

يقول الشيخ عن ترتيب كتاب الفتوحات فى المجلد الثانى وهو بصدد الحديث عن «علم الأصول» أو «أصول الأحكام» أن حق هذا الموضوع أن يوضع فى الباب السادس والستين من المجلد الأول «فى معرفة سر الشريعة ظاهرا وباطنا وأى اسم إلهى أوجدها»، لأنه يتصل به، «لكن» - يستدرك الشيخ - «هكذا وقع فإننا ما قصدنا هذا الترتيب عن اختيار . ولو كان عن نظر فكرى لم يكن هذا موضعه فى ترتيب الحكمة، فأشبهه آية قوله تعالى: «حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى» بين آيات طلاق ونكاح وعدة ووفاة تتقدمها وتتأخر عليها. فيعطى الظاهر أن ذلك ليس موضعها، وقد جعل الله ذلك موضعها لعلمه بما ينبغى فى الأشياء، فإن الحكيم من يعمل ما ينبغى لما ينبغى وإن جهلنا نحن صورة ما ينبغى فى ذلك. فإله رتب على يدنا هذا الترتيب فتركناه ولم ندخل فيه برأينا ولا بعقولنا فإله يُملى على القلوب بالإلهام جميع ما يسطره العالم فى الوجود؛ فإن العالم كتاب مسطور إلهى» (١٨١/٢).

إن ابن عربى ينظر إلى كتبه بوصفها تنزيلا إلهيا لا يخضع ترتيبها لعقل الكاتب ولا لنظر المؤلف، بل يتبع نظام ترتيبها نسق الكلام الإلهى المنزل. والمثال الواضح لذلك هو مثال الآية التى تأمر المسلمين بالمحافظة على الصلوات وتخص بالذكر «الصلوة الوسطى»، والسياق الذى وردت فيه فى القرآن هو سياق الزواج والطلاق وموقف الزوجة فى حالة وفاة الزوج الخ. إن الله الحكيم يعلم مواضع الكلم، وعلمنا لا يرقى إلى إدراك حكمة هذا الترتيب. ولأن مؤلفات ابن عربى ليست من وضعه فهى تخضع فى ترتيبها لحكمة الواضع الذى أنزلها على قلبه. ليس هذا فحسب، فكل كلام مسطور فى العالم ليس فى الحقيقة إلا وضعاً إلهياً، وإن كان لا يعلم ذلك إلا العلماء. أليس الكون كله من أعلاه إلى أدناه هو كلام الله المسطور فى الوجود، كما أن «القرآن» الكريم هو كلامه المسطور فى المصحف.

نفس الأمر ينطبق على كتابه «فصوص الحكم»، فالكتاب ليس من تأليفه، بل تلقاه من يدى النبى - محمد صلى الله عليه وسلم- فى رؤيا . يقول الشيخ فى مفتتح «الفصوص»: «فإنى رأيت رسول الله فى مبشرة أريتها فى العشر الأواخر من «محرم» سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق، ويده صلى الله عليه وسلم كتاب فقال لى «هذا كتاب فصوص الحكم» خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به، فقلت: السمع والطاعة لله ولرسوله وأولى الأمر منا كما أمرنا. فحققت الأمنية وأخلصت النية وجردت القصد والهمة إلى إبراز هذا الكتاب كما حده لى رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير زيادة ولا نقصان ... فما ألقى إلا ما يُلقى إلى، ولا أنزل فى هذا المسطور إلا ما يُنزلُ به على. ولست بنبى ولا رسول، ولكنى وارث لآخرتى حارث»^(٢٠) وفى نهاية الفصل الأول يعود الشيخ ليؤكد للقارئ أنه لم يتجاوز ما سرده فى الكتاب الحدود التى حدّها له الرسول عليه السلام فى الرؤيا، وهو يعنى بذلك أن ما يعرفه - أو ما عرفه- كشفًا غير مسموح له التصريح به كله. ومعنى ذلك أن الكتاب مسطور فى الحدود التى سمحت بها الحضرة النبوية الشريفة. فى تمييز واضح بين ما يرويه عن «الرسول» - وهو الكتاب كله - وبين ما يقوله هو بلسانه الشخصى. يقول: «ولما أطلعنى الله سبحانه وتعالى فى سرى على ما أودع فى هذا الإمام الوالد الأكبر - يعنى آدم الإنسان الكامل المعبر عن «الحكمة الإلهية» موضوع الفصل- جعلت فى هذا الكتاب ما حدّ لى لا ما وقفت عليه، فإن ذلك لا يسعه كتاب ولا العالم الموجود الآن. فمما شهدته ما نودعه فى هذا الكتاب كما حدّ له رسول الله صلى الله عليه وسلم»^(٢١).

هذا التمييز بين «المعروف» بالكشف والإلهام وبين «المسموح» بالبوح به فقط تمييز هام فى الفكر الصوفى منذ تعرض الصوفية للمحاكمات والقتل بسبب بوحهم بالأسرار الإلهية التى لا تطيقها ولا تتحملها لا عقول العامة فقط، بل لا تطيقها بالأساس المؤسسات الدينية الرسمية. من هنا ليس مستغريا أن يفتح

(٢٠) فصوص الحكم، ص: ٤٧ - ٤٨.

(٢١) السابق، ص: ٥٦.

ابن عربى فتوحاته . بعد «الخطبة» التى سنناقش مغزاها ودلالاتها فى فقرة مستقلة- بأن يورد أقوالا مثل ما ينسب إلى الصحابى «أبى هريرة» الذى قال: «حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين من علم، أما أحدهما فقد بثثته فيكم وأما الآخر فلو بثثته لقطعت منى هذا الحلقوم». وهذا القول يحرص ابن عربى على ذكر أسماء شيوخ الصوفية الذين تداولوه ورووه بعضهم عن بعض، كما يؤكد وروده فى «البخارى - كتاب العلم» عن الصحابى «أبى ذر الغفارى» (٣٤/١). وكذلك يورد ما يروى عن «ابن عباس» حين سئل عن تفسير قول الله فى القرآن: «الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما» لو ذكرت تفسيره لرجعتمونى، أو لقلتم إنى كافر». وهو يستند إلى استشهاد «أبو حامد الغزالى» فى كتاباته الصوفية بمثل تلك المرويات. وبالمثل يورد الشعر الذى يُنسب إلى «الرّضى» حفيد «على بن أبى طالب».

يا رَبِّ جـوهر علم لو أبوح به لقيل لى أنت ممن يعبد الوثن
ولا استحِلّ رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا

هذا بالإضافة إلى شاهد قرآنى شديد الأهمية عند الصوفية : قصة «موسى» النبى مع «العبد الصالح» الذى أوتى علما من عند الله لم يؤت «موسى»، وهى القصة التى وردت فى سورة «الكهف» وحللناها فى الفصل السابق .

لكن علاقة الشيخ بالقرآن لا يمكن اختصارها فى أسلوب ترتيب كتبه أو فى لغة عرضها، فضلا عن مستويات «التصريح» و«الإخفاء» التى تتماثل وتتوازى مع ثنائية «المحكم والمتشابه» فى القرآن الكريم، بكل ما تمثله من دلالات «الوضوح والغموض» أو «الإثبات والنفى».. الخ. إن تجربة الشيخ الروحية فى عمقها تجربة قرآنية؛ فأول رؤيا يمكن اعتبارها بداية «التحول» فى حياته كانت -كما حللنا فى الفصل الأول - تجسد «سورة ياسين» له فى إغماء مرضية فى صورة رجل قوى البنية جميل الطلعة طيب الرائحة يدفع عنه مخلوقات قبيحة شائهة تريد إيذاءه.

فلما أفاق من إغماءة المرض وجد أباه يرتل سورة ياسين (٢٥٢/٤) . وهذه السورة يقول عنها في كتاب ألفه سنة ٥٩٥ أنها «قلب كتاب الله».(٢٢)

وفى مقدمة كتاب الفتوحات لا نعجب إن كان الشيخ الأكبر يقول عن نفسه أنه هو «القرآن» وهو «السبع المثاني» :

أنا القرآن والسبع المثاني	وروح الروح لا روح الأواني
فؤادي عند معلومي مقيم	يناجيه وعندكمو لسانى
فلا تنظر بطرفك نحو جسمى	وعدّ عن التنعم بالمفانى
وغص فى بحر ذات الذات تبصر	عجائب ما تبدّت للعيان
وأسرار تراعى مبهمات	مسترة بأرواح المعانى(٢٣)

(٢٢) عنقاء مغرب : ص ١٣

(٢٣) الفتوحات، ٩/١، وقد أشرنا فى نهاية الفصل الأول إلى بعض نماذج من التجارب القرآنية ودورها فى وصول الشيخ إلى المستوى الذى وصل إليه من الولاية، ختم الولاية المحمدية . وهنا نضيف بعض النماذج الإضافية :ففى سنة ١٢٢٥/٥٨٦ مثلاً يقول أنه قرأ الآية القرآنية «قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فترىصوا حتى يأتى الله بامرء، والله لا يهدى القوم الفاسقين» (سورة التوبة ٢٤/٩)، كان ذلك يوم جمعة بعد الصلاة فى المقابر بإشبيلية سنة ٥٨٦ فبقيت فيها سكران ما لى تلاوة فى صلاة ولا يقظة ولا نوم إلا بها ثلاث سنين متوالية .أجد لها حلاوة ولذة لا يقدر قدرها .وهى من الأذكار المفردة بين الله وبين الخلق تفرق تمييز، فهو تفرق فى جمع وفرقان فى قرآن! فيجمع بهذا الذكر الفرقان والقرآن .فكل من له عليك ولادة من أى نوع، وفى أى صورة كان من ظاهر وباطن، وسم إلهى وكيانى، فهو أبوك، وكل من لك عليه ولادة من أى نوع كان، وفى أية صورة كان، من ظاهر وباطن، واسم إلهى وكيانى، فهذا ابنك .فقد يكون ابنك فى هذا الذكر عين أبيك، فيكون له عليك ولادة، ولك عليه ولادة، وهو المقام الذى أشار إليه الحلاج بقوله:

ولدت أمى أباهـا
إن ذا من عجباتىـ

(الفتوحات ١٧١/٤)

وعن المنزلة التى يمكن استنباطها بطريق الكشف والإلهام من «الذكر» المتضمن فى الآية القرآنية :«إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون(الأنعام ٣٦/٦) : يقول : «اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن هذا الذكر لما وفقنا الله تعالى لاستعماله بإشبيلية

٥. الغموض المتعمد:

يبدو في خطاب «ابن عربي» أحيانا أن الصعوبة في التعبير منشؤها «غموض» الأفكار أن تتسع لها مواضع اللغة المتداولة. ولكن يبدو أحيانا أخرى أنه يعتمد «الغموض». وفي كتابه الموسوعي «الفتوحات المكية» يستهل خطابه بتأكيد هذه النقطة؛ إذ يبدأ الكتاب بتقرير عقيدة العامة من المسلمين، ثم يتلوها بعقيدة «خواص أهل الله»، ثم يحدثنا عن اضطرابه لبعثرة عقيدة «خلاصة الخاصة» في ثنايا الكتاب، بحيث يصعب العثور عليها بشكل منتظم:

«فهذه عقيدة العوام من أهل الإسلام، أهل التقليد وأهل النظر ملخصة مختصرة ... ثم أتلوها بعقيدة خواص أهل الله من أهل الطريق المحققين أهل الكشف والوجود ... وأما التصريح بعقيدة الخلاصة فما أفردتها على التعيين لما فيها من الغموض، لكن جئت بها مبددة في أبواب هذا الكتاب مستوفاة مبينة لكنها كما ذكرنا متفرقة. فمن رزقه الله الفهم فيها يعرف قدرها ويميزها من غيرها؛ فإنه العلم الحق والقول الصدق. وليس وراءها مرمى، ويستوى فيها الأعمى والبصير، تلحق الأبعاد بالأداني وتلحم الأسافل بالأعالي» (٣٨/١، ٤١) وهذا يجعلنا نتفق تماما مع «عفيفى» حين يقارن بين بنية خطاب «ابن عربي» وبين فنان ألف لحنا موسيقيا عظيما، ثم بدا له أن يخفيه عن الناس فمزقه وبعثر نعماته بين نغمات ألحان أخرى. فاللحن الموسيقى العظيم هنالك لمن أراد أن يتكبد مؤونة استخلاصه وجمعه من جديد^(٣٤).

صحيح أن «ابن عربي» يبعثر فلسفته عامدا متعمدا في ثنايا كتبه، حتى أن محاولة تقديم عرض متناسق لأفكار الشيخ تضطر الباحث إلى الدوران حول

من بلاد = الأندلس سنة ٥٨٦ بقينا فيه ثلاثة أيام فرأينا بركة في تلك الأيام. وكنا به ثلاثة: أنا وعبد الله التزهوني قاضى شرف، وكان عبدا صالحا ضابطا فقيها وشخصا ثالثا من أهل البلد، فجعل علة الإجابة السماع، لا من قال إنه سمع وهو لم يسمع، كما قال تعالى ينهانا أن نكون مثل هؤلاء فقال: «ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون» (الأنفال ٢١/٨) فالسمع في هذا الذكر هو عين العقل لما أدركته الأذن بسمعها من الذى جاء به المترجم عن الله تعالى وهو الرسول صلى الله عليه وسلم الذى لا ينطق عن الهوى» (الفتوحات ١٧٨/٤).

(٣٤) قصص الحكم، التصدير، ص: ١١.

نفسه مع أطروحات «ابن عربي» عدة مرات قبل أن يستطيع حسم «نقطة البداية» لعرضه. وأياً كانت «نقطة البداية» التي يبدأ منها الباحث- أى باحث- عرضه لفكر الشيخ، فإن النقطة الأولى تحيله إلى نقطة تليها؛ فالتى تليها، ثم التى تليها، وهكذا حتى يجد الباحث نفسه فى النهاية عائداً لنقطة البداية بعد أن يتم دورة كاملة فى استعراض فكر الشيخ. يمكن القول أن الباحث يستطيع دائماً أن يعثر بسهولة على نقطة بداية، وليس من السهل بأى شكل الوصول إلى نقطة «النهاية»، بل الأمر من أصعب الصعوبات. إن فكر «ابن عربي» صيرورة تبدأ ولا تنتهى؛ فمثله فى بنائه الدائرى اللانهائى مثل التجليات الإلهية التى لا أول لها ولا آخر، لا بداية لها ولا نهاية .

لكن إذا كان «الغموض» حالة محايدة للتجربة ذاتها فلماذا إصرار ابن عربي على «السرد» رغم الصعوبة التى لا يكف عن الشكوى منها؟ لا شك أن الإجابة يمكن أن نجدها فيما سبق أن حاولنا شرحه لجديلية الغموض والوضوح، بأبعادها المركبة إن فى بنية الوجود أو فى بنية التجربة أو فى بنية اللغة .

سبق أن أشرنا إلى ما يقرره الشيخ فى مفتتح الفتوحات من أن عقيدته هى بذاتها عقيدة أهل السنة من الأشاعرة، ويُشَهد القارئ على ذلك. ولكنه يقرر، من ناحية أخرى، أن هذه العقيدة هى عقيدة العوام، التى تختلف عن عقيدة الخاصة، والتى تختلف بدورها عن عقيدة «خاصة الخاصة» من أهل التحقيق. فكأن ابن عربي يحاول لا أن يميز بين عقائد ثلاث متغايرة بقدر ما يحاول التمييز والفصل بين مستويات من الفهم والإدراك لنفس الأصول العقيدية. ولا يتركنا الشيخ بعد هذه المقدمة دون أن يتلوها بخطبة تشبه «فاتحة الكتاب»، القرآن الكريم، من حيث تضمنها بطريق التركيز والاختصار لمجمل ما هو مفصل فى القرآن كله. وهى تستحق من هذه الزاوية تحليلاً خاصاً؛ لأنها تمثل عصارة الكتاب فى أسلوب سردي لرؤيا رآها الشيخ.

تتضمن الخطبة من حيث بنيتها السردية ومحتواها الفكرى ثلاثة جوانب على الأقل على درجة عالية من الأهمية بالنسبة لخطاب الشيخ الأكبر ونسقه الفكرى الروحى الفلسفى: الجانب الأول أنها تقدم تلخيصاً وافياً لأهم المعارى الكبرى

فى فلسفته، وهى بذلك أشبه بفاتحة الكتاب فى القرآن الكريم (سورة الفاتحة، وهى السورة رقم واحد بحسب ترتيب المصحف)، التى تتضمن فى نظر الصوفية إشارات واضحة للمضمون الكلى لموضوعات القرآن. إنها بحسب ما ذهب إليه أبو حامد الغزالى (١٠٥٨ - ١١١١) تتضمن بطريق الإشارة التوحيد، توحيد الذات الإلهية والصفات والأفعال الإلهية، ثم الثواب والعقاب، والقصص إلى جانب «الأحكام»، وهذه هى الموضوعات المفصلة فى القرآن كله.^(٢٥) من هنا يطلق العلماء عليها اسم «السبع المثاني»؛ بسبب احتوائها على سبع آيات، وهى بذلك توازى القرآن كله. إذا كانت بنية القرآن تعتمد على «مقدمة» أو «فاتحة» تشير بطريقة ضمنية إلى مضمون القرآن كله؛ فابن عربى، محاولاً أن يقلد النسق القرآنى فى تأليفه، يُضمّن خطبة كتابه ومقدمته مجمل أفكاره التى سيفصلها فى فصول الكتاب وأبوابه.

الجانب الثانى أن الخطبة من حيث بنيتها السردية «رؤيا»، وأهمية ذلك أن «الرؤى» تمثل فى الخطاب الصوفى عامة، وفى خطاب الشيخ الأكبر بصفة خاصة، أداة هامة من أدوات التعبير ووسائله؛ لأنها أداة قادرة على «تشخيص» الرمزي، و«تجسيد» المجرد. إنها قادرة على أن تقول ما لا يمكن قوله بلغة السرد الواقعى العادى. وليس الأمر عند «ابن عربى» بصفة خاصة مجرد تفضيل أسلوب سردي على آخر، بل إن «الرؤيا» هى الأداة الوحيدة الممكنة للجمع بين الحقائق، بوصفها أداة «التخييل» الذى تقوم عليه بنية الوجود من أعلاه إلى أدناه. وإذا كانت «الحيرة» هى الصفة المعرفية التى تعكس «الحقيقة» - حقيقة العالم الذى يمكن أن ننظر إليه فنراه «خلقاً»، ويمكن أن نراه فى نفس الوقت «حقاً»، أو بعبارة أخرى، نراه إلهاً وإنساناً فى نفس الوقت، ومكلّفاً (اسم فاعل) ومكلّفاً (اسم مفعول) فى آن واحد - فلفة «الرؤيا» والحلم هى اللغة الوحيدة الممكنة للتعبير. وكما أن «الوجود» فى حقيقته «رؤيا» تحتاج للتأويل، فرؤى «ابن العربى» يمكن أن تمثل لقارئه مدخلاً لفهم عالمه وتحليل خطابه. يقدم «ابن عربى» بين يدي خطبة الكتاب مفهومه للوجود - وللحيرة المعرفية فى إدراك حقيقته - على النحو التالى:

(٢٥) انظر: جواهر القرآن: القاهرة، بدون تاريخ، ص ٣٩ - ٤٢.

الرب حق والعبد حق يا ليت شعري من المكلف
إن قلت عبدُ فذاك ميتٌ أو قلت ربُّ أننى يكلف

(ف : ٢/١)

فليس إلا أشباح خالية على عروشها خاوية. وفي ترجيع الصدى سرٌّ ما أشرنا إليه لمن اهتدى.

(ف : ٣/١)

الأمر الثالث الذى تمثله أهمية «الخطبة» أنها تلخص الكتاب كله بلغتها الرمزية ذات البعدين: الكاشفة والمُلفزة فى نفس الوقت. إنها تلخيص للخطوط العامة والأعمدة الأساسية التى تجد شرحها وتفصيلها داخل الكتاب بأبوابه الخمسمائة وستين، وفصوله الستة، ومجلداته الأربع المطبوعة. وهى، من حيث البعد الكاشف للغة الرمزية، تمثل حافزا ذهنيا للقارئ المهتم ليستعد للقيام برحلته. رحلة القراءة. بين ضفاف الكتاب. لكنها بالنسبة للقارئ غير المؤهل للسياحة الفكرية تمثل، من حيث البعد الآخر الملفز للغة الرمزية، «عائقا» مثبطا وسدا مانعا. وقد سبق أن ذكرت أننى فى بداية تعاملى مع ابن عربى من خلال كتاب «الفتوحات». وكان ذلك عام ١٩٧٧. توقفت طويلا أمام «لغز» الخطبة، وظللت عاما كاملا لا أكاد أتخطى الصفحات الثلاثين الأولى من المجلد الأول. فى كل مرة كنت أبدأ القراءة وأتوقف عند الصفحة الثالثة والثلاثين، ثم كنت حين أعاد القراءة فى اليوم الثانى أعود دائما للخطبة مجددا، وأتوقف دائما عند نفس الصفحة. كان سحر «الخطبة» يجذبنى للعودة إليها محاولا فك طلاسمها الرمزية، دون أن أدرك آنذاك أنها شفرة لا يمكن حلها إلا بالسياحة الكاملة. هكذا كانت الخطبة بالنسبة لى حافز لإثارة الاهتمام كما كانت لفترة ما عائقا يثبط همتى عن مواصلة القراءة. إنها فى النهاية أسلوب لاختبار استعدادات ومؤهلات القارئ واكتشاف لإمكانياته. إنه أسلوب فى التأليف. أو لنقل أسلوب فى التدوين. لا بديل له عند «الصوفية» بصفة عامة، وعند «ابن عربى» على وجه الخصوص.

إن كتاب «الفتوحات» ليس تأليفاً، هكذا يؤكد الشيخ كما سبقت الإشارة، بل هو فتوحات وإلهامات ورؤى قلبية. إنها تنزيلات إلهية، وتعبير عن اللقاء بين السماوى والأرضى، أو بين المقدس والدنيوى. أو لنقل بلغة ابن عزى بين «الحق» و«الخلق». فى حضرة «الخيال»، الذى تنتمى إليه «الخطبة» ببنيتها السردية الرمزية الكاشفة والملغزة فى نفس الوقت. ثم إن هذه الفتوحات القلبية والإلهامات الإلهية تنتمى مكانياً إلى الحرم المقدس فى أم القرى «مكة»، حيث «الكعبة»، أول بيت وُضع للناس على ظهر الأرض للعبادة، البيت الذى رفع «إبراهيم» و«إسماعيل» قواعده بعد أن أوشكت على الاندثار، وهو البيت الذى أمر «إبراهيم» أن يؤذن للناس بالحج ليعمروا حوله، وذلك استعداداً لهيوط الوحى على «محمد»، وهو نفس الوحى الذى تنزل بالفتوحات على قلب «محمد ابن العربى» فى نفس المكان، وأثناء طوافه حول البيت.

فى العالم السردى للخطبة إحياء بكل تلك المعانى والدلالات. إنها تبدأ بتسبيح الله وتمجيده، ثم تُنتهى بالصلاة على النبى محمد مبرزة الصفات والخصائص التالية فى شخصيته:

والصلاة والسلام على «سرِّ العالم ونكتته»^(٣٦)

وهى عبارة تلخّص باختصار شديد التمييز الذى يحرص الشيخ على إبرازه بوصفه أحد المكونات الأساسية لفلسفته من الجانبين الوجودى والمعرفى (أنطولوجيا وإبستمولوجيا) Ontological and Epistemological على السواء. فمن الوجهة الوجودية تعد «الحقيقة المحمدية» أو بالأحرى «الكلمة المحمدية» هى «سر» إيجاد العالم فى هذا التصور يعتمد ابن عربى على حديث منسوب إلى النبى «محمد» يقول فيه «كنت نبياً وأدم بين الماء والطين» أى قبل أن يكتمل خلق «آدم» ويستوى كائناً بشرياً. ولا يفهم ابن عربى الحديث على وجهه الظاهر، باعتبار أن «نبوة» محمد كانت أمراً مقرراً فى الخطة الإلهية قبل اكتمال خلق

(٣٦) سنكتب الجزء الذى نحلله من الخطبة ببند ثقيل، للتمييز بين كلام ابن عربى وتحليلنا.

آدم، بل إنه يفهم «النبوة» هنا فهما فلسفيا يقترب من مفهوم «الكلمة» Logos .
التي عنها وبها أوجد الله العالم. ولكن من الهام هنا أن نقرر أن مفهوم «الكلمة»
فى فلسفة ابن عربى يتخذ تعبيراً إسلامياً وقرآنياً واضحاً .

الكلمة المحمدية - أو الحقيقة المحمدية - ليست هى شخصية محمد
التاريخية، أى ليست «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد
مناف» الذى ولد بمكة حوالى سنة ٥٧٠ ميلادية، بل هى «سر العالم ونكتته»،
وليس محمد التاريخى إلا أحد تعبيراتها أو تجلياتها التاريخية فى العالم. هذه
«الحقيقة/ الكلمة» وجدت قبل آدم، بل آدم المخلوق من الطين والماء هو أحد
تجلياتها التاريخية كذلك. هذا من الوجهة الوجودية، أى أنطولوجيا.

أما من الناحية المعرفية - إبستمولوجيا - فابن عربى يضيف فى سياق الصلاة
على محمد إلى قوله السابق أن محمداً هو

«مطلب العلو ونُغَيْتَه» :

تشير كلمة «العلو» هنا إلى مطلب الصوفى فى الارتقاء المعرفى، وهو «الطريق»
الذى مهده محمد بتجربة «معراج» إلى السماوات العلى، وهى التجربة التى
يصفها ابن عربى فى هذه الخطبة على النحو التالى واصفاً محمداً بأنه :

«السيد الصادق. المُدْجَجُ إلى ربه الطارق. المُخْتَرَقُ به السبع الطرائق. ليريه
من أسرى به إليه ما أودع من الآيات والحقائق، فيما أبدع من الخلائق» .

ومن الممكن للقارئ أن يتساءل: إلى أى حد تعتبر صياغة ابن عربى لمفهوم
«الحقيقة المحمدية» - أو «الكلمة المحمدية» نوعاً من الأسلمة لمفهوم «الكلمة»
فى اللاهوت المسيحى - وللسؤال مشروعته من منظور تصورنا لمجمل مشروع
ابن عربى بأنه فى جوهره محاولة لصياغة مفهوم للدين جامع لكل المعتقدات
سواء منها الكتابية أو غير الكتابية.

ليس من قبيل المبالغة أن يتصور الدارس أن الصياغة اللاهوتية المسيحية
لمفهوم «الكلمة» كما صاغها لأول مرة «يوحنا» فى مفتتح «إنجيله» وجدت صدًى

لها في القرآن الكريم، الذي وصف «عيسى» بأنه «روح الله» و«كلمة» منه ألقاها إلى «مريم». لكن القرآن الكريم لم يَخُصَّ عيسى وحده بهذه الصفة - صفة الكلمة - فكلما الله لا نهاية لها، ولا يمكن الإحاطة بها علما أو تدوينا، حتى لو كانت كل البحور والمحيطات حبرا، ولو كانت كل أشجار العالم أقلاما. وكل شيء في هذا العالم كبيرا كان أو صغيرا أوجده الله بالكلمة «كن»؛ وبهذا المعنى يصبح الكون كله من أعلا مراتبه إلى أدناها «كلمات». من هذا الكنز القرآني يغترف ابن عربي فيجعل من «الكلمة المحمدية» الأصل والعلة والغاية، وبهذا يؤسس لاهوتا إسلاميا لا يمثل بديلا لللاهوت الكلمة المسيحية بقدر ما يستوعبه داخل بنيته. والدليل على تلك الطبيعة الاستيعابية المكانة التي تحتلها الكلمة العيسوية، لا فقط بصفاتها النبوية الرسولية، بل أيضا بصفاتها العرفانية: مفهوم «عيسى» خاتم الولاية العامة كما سيتضح من الخطبة كذلك.

بعد هذه السطور المثقلة بالرموز و المحملة بالايحاءات والإحالات عن «الحقيقة المحمدية» ومكانتها وجوديا ومعرفيا، يواصل ابن عربي خطبته كاشفا لنا عن مكانته من تلك الحقيقة يحكى لنا ابن عربي أنه قد شاهد محمدا خلال كتابته خطبة كتاب الفتوحات

«في عالم حقائق المثال، في حضرة الجلال، مكاشفة قلبية في حضرة غيبية» وهذه «الحضرة» التي يشير إليها باسم «عالم الحقائق والمثال» هي «حضرة الخيال»، التي تعد مكونا أساسيا في بناء نسقه الفكري الصوفي الفلسفي. إنها - كما شرحنا في الفصل السابق - حضرة التقاء العوالم، حيث يتجسد المجرد ويتشخص الروحاني، بل هي الحضرة الجامعة للإلهية والإنسانية، والعالم المشترك بين الله والعالم. عالم فسيح فيه أوجد «الله» العالم، فهو «العالم»، ومن خلاله يدرك «الإنسان» المطلق والمجرد. أنها - مثلها مثل «الحقيقة المحمدية» تجمع أيضا بين جانبي «الوجود» و«المعرفة»، وفي هذه «الحضرة» يمكن لابن عربي - ولغيره - أن يلتقي بمحمد فيتلقى منه، من حيث هو «كلمة». في هذه «الحضرة» شهد ابن عربي محمدا محاطا بالرسل والملائكة جميعا في وسط

«أمته». لكن ابن عريى يكتفى بوصف المشهد من «قرب» بعد أن أعطانا صورة «المشهد» عن بعد . لكن بين اللقطتين فى المشهد : لقطة البعد ولقطة القرب closeup يوجد ابن عريى، ويمثل حضوره أهمية لافتة على النحو التالى:

المشهد من بعيد:

وجميع الرسل بين يديه مصطفون، وأمته . التى هى خير أمة أخرجت . عليه ملتفون، والملائكة . المولدة عن الأعمال . بين يديه صافون،

المشهد القريب:

والصديق عن يمينه الأنفس

والفاروق عن يساره الأقدس

والختم بين يديه قد جثى، يخبره بحديث الأثنى

وعلى - صلى الله عليه وسلم- يترجم عن الختم بلسانه

وذو النورين مشتمل برداء حيائه مقبل على شانه.

والمشهدان معا يحتلان على مستوى البنية السردية واللغوية جزءا من جملة شرطية، هذا نصها :

ولما شهدته صلى الله عليه وسلم فى ذلك العالم سيدا معصوم المقاصد، محفوظ المشاهد، منصورا مؤيدا (المشهد البعيد) ... (المشهد القريب) فالتفت السيد الأعلى، والمورد العذب الأحلى، والنور الأكشف الأجلى، فرأى وراء الختم؛ لاشتراك بينى وبينه فى الحكم.

ومعنى تداخل المشهدين -البعيد والقريب- أن ابن عريى فى رؤياه القلبية يستوعب الوجود التاريخى للأمة المحمدية بمعناها الواسع الشامل، وذلك حين يرى «محمدا» عليه السلام وأمامه الرسل والأنبياء جميعا مصطفون (مفهوم الأمة الواسع) ومحاطا بأمته (بالمفهوم التاريخى) فى نفس الوقت . أما المشهد

القريب فيجسد بدوره أيضا الالتقاء بين «الزمانى» - وجود الخلفاء الأربعة محيطين بمحمد من الجهتين - «واللازمانى»، الذى يتمثل فى جثو عيسى بين يدى محمد يحدثه. يضع ابن عربى نفسه داخل المشهد القريب الجامع للخلفاء الراشدين الأربعة يتوسطهم النبى محمد : يقف «أبو بكر الصديق»، الخليفة الأول، عن يمينه، ويقف «عمر بن الخطاب»، الخليفة الثانى عن يساره، بينما لا نعرف على الوجه التحديد موقع الخليفين: الثالث «عثمان بن عفان» والرابع «على بن أبى طالب». وجدير بالالتفات أن الخليفة الثالث «عثمان بن عفان» يبدو فى المشهد مشغولا بشأنه لا علاقة له بما يجرى حوله، فى حين أن الخليفة الرابع «على بن أبى طالب» مشغول بترجمة ما يقوله «الختم» الواقف خلف محمد. الختم هو «عيسى بن مريم»، فهو وفقا لتصور ابن عربى للولاية - أو «النبوة المكتسبة» - خاتم الولاية العامة. لكن ما هو «حديث الأنثى» الذى يُفصى به الختم إلى محمد، وما الحاجة للترجمة؟ هل يتحدث «عيسى» فى هذا المشهد بلغته الأم الآرامية أو العبرية؟ ولماذا يكون «على» هو المترجم؟ لا جواب عن مثل هذه الأسئلة، ولعل الأمر هنا يتعلق بالأسرار التى لم يُسمح لابن عربى بالإفصاح عنها.

نعود إلى الجملة السردية المتضمنة للمشهادين، وهى الجملة الشرطية التى تبدأ بمشاهدة ابن عربى للنبى، الذى التفت بدوره فرأى ابن عربى يقف فى المشهد القريب وراء «عيسى» أو «الختم». وهنا يشرح لنا ابن عربى أنه استحق هذا الموقع - خلف الختم - فى هذا المشهد لوجود «حكم مشترك» يجمع بينهما. وقد سبق أن بينا أن ابن عربى يذكر فى «الفتوحات» فقط، كما يذكر فى «الفصوص» أنه هو لا غيره «خاتم الولاية المحمدية»، وهنا وجه الشبه والاشتراك فى الحكم بينه وبين «عيسى» الذى يمثل «خاتم الولاية العامة». عند هذا الالتفات تبدأ المحاوراة بين النبى وابن عربى، يقول النبى أولا مخاطبا «الختم»، فيما يسرد لنا ابن عربى :

فقال له السيد : هذا عبدك، وابنك وخليك

انصب له منبر الطرفاء بين يديّ

ثم أشار إلى أن قم يا محمد فائن على من أرسلنى وعلى

فإن فيك شعرة منى، لا صبر لها عنى

هى السلطان فى ذاتيتك

فلا ترجع إلى إلا بكليتك

ولا بد لها من الرجوع إلى اللقاء؛ فإنها ليست من عالم الشقاء

فما كان منى بعد مبعثى شىء فى شىء إلا سعد

وكان ممن شكر فى الملاء الأعلى وحمد

هذه شهادة النبى لابن عربى بالقربة التى تربطهما، وهى ليست القربة العصبية، وهى موجودة فابن عربى ينتسب فى نسبه البعيد إلى قبيلة «طى» فهو من نسل «حاتم الطائى»، وليس مجرد التشابه فى الاسم - وكلاهما «محمد» - بل هى قرابة «ذاتية»؛ ففى ابن عربى شعرة من محمد النبى، وهى أنه «ختم ولايته» على الأرض.

لننتقل الآن إلى مشهد «المنبر» الذى طلب النبى محمد من عيسى «الختم» أن ينصبه لمحمد «ابن عربى». فى وصف هذا المنبر يؤكد ابن عربى أن ولايته وختمه للولاية المحمدية لا تعنى أنه أكثر من «وارث» للعلم النبوى، وأن مكانته - ومكانة أى ولى مهما بلغت - لا ترقى أبداً إلى مرقى «ختم النبوة» محمد. إن هذا «المنبر»، الذى نصبه «الختم» عيسى ليرقى فيه ابن عربى تنفيذا لطلب «محمد»، هو «منبر المقام المحمدى»، الذى يؤهل من يرقى فيه لورثة العلم النبوى. لكن الورثة هنا ليست وراثة مباشرة؛ فالأنبياء جميعا والرسل منذ «آدم» حتى «عيسى» آخر الرسل قبل «محمد» هم الورثة المباشرون للمقام المحمدى؛ أى لتحقيق محمد، أو للكلمة المحمدية. أما الأولياء فيرثون العلم النبوى المحمدى وراثة غير مباشرة، أى عن قلوب الأنبياء الآخرين. ومحمد بن عربى يريد أن يبرز ويؤكد - من خلال رمز المنبر الذى نصبه له الختم - أن وراثته للكلمة مستمدة من روح «عيسى»، خاتم الولاية العامة من جهة، وآخر الرسل قبل محمد من جهة

أخرى. هذا يعنى أن نصب «المنبر» كان عن أمر محمد لعيسى؛ فعيسى هو
الناصب للمنبر ومحمد هو الأمر له .

فنصب الختم المنبر، فى ذلك المشهد الأخطر

وعلى جبهة المنبر مكتوب بالنور الأزهر

هذا هو المقام المحمدى الأظهر

من رقى فيه فقد ورثه

وأرسله الحق فى العالم حافظا لحرمة الشريعة وبعثه

ووهبت فى ذلك الوقت مواهب الحكيم

حتى كانى أوتيت جوامع الكلم

فشكرت الله عز وجل

وصعدت أعلاه

وحصلت فى موضع وقوفه صلى الله عليه وسلم ومستواه

تتأكد دلالة الميراث غير المباشر من خلال بيان ابن عربى لقارئه أنه لا يضع

قدمه فوق أثر القدم النبوى فى ارتقائه للمنبر، بل يجعل بين قدمه هو وبين

درجات المنبر «حجابا»، حتى لا يقع القدم على القدم:

ويُسبَط لى على الدرجة التى أنا فيها كم قميص أبيض فوقفت عليه

حتى لا أباشر الموضع الذى باشره صلى الله عليه وسلم بقدميه

تنزيها له وتشريفا، وتنبيها لنا وتعريفا

أن المقام الذى شاهده من ربه

لا يشاهده الورثة إلا من وراء ثوبه

ولولا ذلك لكشفنا ما كشف، وعرفنا ما عرف

ألا ترى من تقفوا أثره؛ لتعرف خبره، لا تشاهد من طريق سلوكه ما شهد منه،
ولا تعرف كيف تخبر بسلب الأوصاف عنه.

فإنه شاهد مثلاً تراباً مستويًا لا صفة له فمشى عليه

وانت على أثره لا تشاهد إلا أثر قدميه

وهنا سر خفى إن بحثت عليه وصلت إليه

وهو من أجل أنه إمام قد حصل له الأمام، لا يشاهد أثراً ولا يعرفه؛ فقد كشف
ما لا تكشفه.

وهذا المقام قد ظهر في إنكار موسى صلى الله عليه وسلم على الخضر.
(ف: ٣/١).

الإشارة السريعة في السطر الأخير لإنكار «موسى» على الخضر تحيل إلى
الدليل النصي من القرآن الذي يبنى على أساسه المتصوفة عموماً، وابن عريى
على وجه الخصوص، التمييز بين علم «النبوة» وعلم «الولاية»، وقد تعرضنا
لتحليل القصة القرآنية في الفصل الأول.

كانت تلك مقدمة «الخطبة» التي سُمح للشيخ أن يلقيها في حضرة النبي
والمصحابة والختم؛ فأفاض فيها في ذكر نشأة العالم ومنتهاه حتى وصل إلى
ختامها بمخاطبة الجمع قائلاً:

فانظروا رحمكم الله -وأشرت إلى آدم- في الزمرّة البيضاء قد أودعها
الرحمن في أول الآباء.

وانظروا إلى النور المبين، وأشرت إلى الأب الثالث الذي سماه المسلمون (=)
إبراهيم).

وانظروا إلى اللجين الأخلص، وأشرت إلى من أبرأ الأكمه والأبرص، بإذن الله
كما جاء به النص (= عيسى).

وانظروا إلى جمال حمرة ياقوتة النفس، وأشرت إلى من بيع بثمن بخس (=)
يوسف).

وانظروا إلى حمرة الإبريز، وأشارت إلى الخليفة العزيز (= داود).
وانظروا إلى نور الياقوتة الصفراء في الظلام، وأشارت إلى من فضّل بالكلام (= موسى).
بهذا تستعيد الخطبة المشهد - حضور الرسل والأنبياء- البعيد فتجعله قريباً،
لكن ابن عريى يكتفى بالإشارة إلى ستة فقط منهم، على الترتيب التالى:

١ - آدم: أول الآباء والزمردة البيضاء

٢ - إبراهيم: الأب الثالث والنور المبين

٣ - عيسى: اللجين الأخلص

٤ - يوسف: ياقوتة النفس الحمراء

٥ - داود: الإبريز الأحمر

٦ - موسى: الياقوتة الصفراء

من المهم هنا ملاحظة أن وصف الأنبياء يجمع بين درجات من النور ومستويات من الجواهر تعكس كل منها درجة النور، فأدم هو «الزمردة البيضاء» وإبراهيم هو «النور المبين»، يتلوّه عيسى «اللجين»، فيوسف «الياقوتة الحمراء» وداود «الإبريز الأحمر»، وأخيراً موسى «الياقوتة الصفراء». هذه الأنوار كلها على تفاوت مستوياتها تستمد من مشكاة النور الإلهية، أو بالأحرى من «مشكاة الأنوار»، النظرية التى صاغها أبو حامد الغزالي فى رسالته المشهورة بهذا الاسم. وابن عريى يتوسع فى شرح درجات الأنبياء بوصفهم «فصوص الحكم» فى كتابه المعنون بهذا الاسم. لكن ثمة ملاحظة أخرى لا يمكن تجاهلها تتعلق بتقديم «عيسى» فى المشهد على كل أنبياء بنى إسرائيل مثل يوسف وداود وموسى رغم أنه من الوجهة التاريخية آخر أنبيائهم. وربما يمكن تفسير هذا الترتيب بأنه يعتمد على مستويات «الولاية» لا على مراتب الرسالة، وطبقاً لهذا التصنيف يمكن أن يتقدم عيسى بوصفه خاتم الولاية العامة على كل الأولياء/ الأنبياء باستثناء الآباء الثلاثة، الذين ذكر منهم ابن عريى هنا الأول والثالث فقط. أما الثانى فقد ذكره فى فص الحكمة الشيثية فى كتاب «الفصوص».

يواصل ابن عربى:

فمن سعى إلى هذه الأنوار، حتى وصل إلى ما يكشف طريقها من الأسرار،
فقد عرف المرتبة التى لها وُجِد، وصح له المقام الأعلى وله سُجِد، فهو الرب
والمريوب، والمحب والمحبيب.

انظر إلى بدء الوجود وكن به	فطنا تر الجود القديم المحدثا
والشئ مثل الشئ إلا أنه	أبداه فى عين العوالم محدثا
إن أقسم الرأى بأن وجوده	أزلا فبِرُصادق لن يحنثا
أو أقسم الرأى بأن وجوده	عن فقده أجرى وكان مُثَلثا

ثم أظهرت أسراراً، وقصصت أخباراً، لا يسع الوقت إيرادها، ولا يعرف أكثر
الخلق إيجادها. فتركته موقوفة على رأس منبعها، خوفاً من وضع الحكمة فى
غير موضعها.

ثم رُدِّت من ذلك المشهد النوى العلى إلى العالم السفلى، فجعلت ذلك
الحمد المقدس خطبة الكتاب. (ف ٦/١).

إذا كانت الخطبة تمثل الجملة الافتتاحية فى اللحن، أو تمثل فاتحة الكتاب
كما قلنا، فكيف يمكن الإمام وصفيًا بكهن اللحن الذى كانت تلك جملته
الافتتاحية. ومن الصعب - إن لم يكن من المستحيل - ادعاء أن أى كتاب قادر على
الكشف عن البناء الشاهق لفكر ابن عربى. لم يبق بعد ما عرضناه مبدأ فى
الفصول السابقة إلا أن نحاول فى الفصل القادم تقديم الخطوط العامة
الفلسفية لهذا البناء.

الفصل الخامس

نشأة الوجود ومراتب الموجودات

١ - مقدمة :

يتميز فكر ابن عربي في بنيته بخاصية نادرة جدا لا أعلم لها نظيرا في فكر مفكر آخر. تتمثل تلك الخاصية في أن أي نقطة بداية يختارها الباحث للإبحار في فكر ابن عربي تحيل إلى نظامه الفكري كله، إنه فكر يقوم على بنية دائرية مماثلة لبنية الوجود التي سنشير إليها من بعد. وككل بنية دائرية ثمة مركز وثمره محيط، وأي نقطة على المحيط يمكن أن تكون هي نقطة البداية، وتكون في نفس الوقت هي نقطة النهاية. ليس مهما في نسق ابن عربي الفكري المتميز من أين تبدأ، لأن أي نقطة ستقودك إلى التجوال في محيط دائري ينتهي بك إلى حيث بدأت. من هنا لا بد من الإشارة مقدما إلى أن نظرية الوجود ونشأته ومراتبه ليست إلا نسيجاً مركباً من عناصر ومكونات شتى تشكلت في نظرية يصعب الإلمام بها دون فك شفراتها الأساسية .

هناك ثلاث عناصر على الأقل في تفسير نشأة الوجود وفي تحليل مراتبه في خطاب ابن عربي: العنصر الأول هو مفهوم «التجلى الأسمائي»، والعنصر الثاني مفهوم «التجلى في النفس الإلهي»، وهو العنصر الذي يمثل محور نظرية «الكلمة»

عند الشيخ الأكبر. أما العنصر الثالث فهو مفهوم «النكاح» . وسنبداً عرضنا بشرح مفهوم «التجلى الأسمائي» وتلخيصه أن «الأسماء الإلهية» تمثل الوسيط العازل بين «الذات الإلهية» وبين «العالم» . من خلال الأسماء تَبْطُنُ «الذات» عن أن يلحقها وصف أو تتعلق بها معرفة أيا كانت سوى معرفة «وجودها» . لكن هذه الأسماء ذاتها هي التي تتجلى في العالم، أي تمنحه صفة «الوجود» . ومن هذه الزاوية فهي تظهر فعالية الذات -المحتجبة فيها- في العالم . وهنا نتفهم قول ابن عربي: «الحق بين الخلق وبين ذاته الموصوفة بالفنى عن العالمين . فالألوهية في الجبروت البرزخي؛ فتقابل الخلق بذاتها، وتقابل الحق بذاتها . ولهذا لها التجلى في الصور الكثيرة والتحول فيها والتبدل؛ فلها إلى الخلق وجه به يتجلى في صور الخلق، ولها إلى الذات وجه به تظهر للذات . فلا يعلم المخلوق الذات إلا من وراء هذا البرزخ وهو الألوهية . فتحققناها فما وجدنا سوى ما ندعوه بها من الأسماء الحسنى؛ فليس للذات جبر في العالم إلا بهذه الأسماء الإلهية . ولا يُعَرَّفُ من الحق غير هذه الأسماء الإلهية، وهى أعيان هذه الحضرات» . (٢٠٨/٤) - ٢٠٩ ، وأيضاً ٢٠٣/٢ ، ٣٧٩ . ٣٥٨/٣ .

ونظرية التجلى الأسمائي هذه أفادها ابن عربي دون شك من التراث الصوفى السابق عليه . ويكفى هنا الإشارة إلى كتاب «خلق النعلين» . الذى نعلم من ابن عربي اطلاعه عليه كما سبق لنا الإشارة فى الفصل الأول - للصوفى الأندلسى «أبو القاسم بن قسى»^(١) وقد وضع ابن قسى الأسماء الإلهية فى مكانة متميزة

(١) هو الشيخ أبو القاسم بن قسى شيخ طائفة المريدين فى الأندلس . مات مقتولا سنة ٥٤٦ هـ كان معاصراً لاثنتين من كبار التصوف فى الأندلس وهما: أبو العباس بن العريف وأبو الحكم بن برّجان اللذان اتهما بالزندقة فدعاهما صاحب شمال إفريقية على بن يوسف إلى مراكش وحبسهما حتى ماتا فى السجن . من ذلك الوقت استقل ابن قسى بزعامة الصوفية فى الأندلس، وأطلق على أتباعه اسم المريدين فألف منهم جيشاً قوياً كان له خطره فى الشؤون السياسية فى الأندلس وإفريقية على السواء وقد خاض بهذا الجيش مواقع كثيرة فى الثورة المعروفة بثورة المريدين، واختلقت عليه الحظوظ فانتصر فى بعضها وهزم فى البعض الآخر . ثم انتهى به الأمر إلى أن قتل فى ساحة القتال نتيجة لعقد تحالف بينه وبين نصارى البرتغال سنة ٥٤٥ هـ . أما قتله فكان فى سنة ٥٤٦ هـ وكان بنفس الرماح التى أمد بها هؤلاء النصارى . وليس هناك من شك فى أن ابن قسى كانت له آمال سياسية واسعة واستغل مريديه لتحقيقها، ولكنه فى الوقت نفسه من

إلى جانب الذات الإلهية - أو الأحدية - ووصف الأسماء الإلهية بأنها الماسكة للوجود، والقائمة عليه، والمتجلية فيه. فهي الموجدة للمظاهر الوجودية^(٢) وهذه الأسماء في نظر محيي الدين بن عربي هي البرزخ بين الذات الإلهية والعالم، ولذلك تعددت حقائقها بتعدد سرياتها وانبثاقها في الوجود. فهي «أصل العالم، وأصل الجوهر الفرد، وفلك الحياة، والحق المخلوق به». وهي «حقيقة الحقائق، أو جنس الأجناس العالية»^(٣).

إن ابن عربي على خلاف الفلسفة الإشراقية المتأثرة بالأفلاطونية المحدثة - لا يرى الوجود بنية خطية هابطة من «الواحد» أو «الأول»، ولكن الوجود عنده دائرة ذات مركز ومحيط. يمثل المحيط دائرة الموجودات الممكنة، بينما يكون المركز هو «الله» الاسم الجامع للأسماء الإلهية والمعبر في نفس الوقت عن ظاهر «الذات». ابن عربي هنا مخلص أشد الإخلاص للمعاني والدلالات القرآنية، كما أنه مخلص بنفس القدر للتمييز الحاد الذي لا تنازل عنه بين «الذات» الإلهية وبين أسمائها وصفاتها التي يعبر عنها جميعا الاسم الجامع «الله».

من مركز الدائرة - دائرة الوجود - وهو الاسم «الله» تمتد خطوط لكل نقطة من المحيط، وهي الأسماء الإلهية التي لا يحصرها عدد ولا يحيط بها إحصاء. لكن داخل الدائرة دوائر أصغر بعضها يصور الأسماء الفاعلة في إظهار الممكن الأول، وبعضها يمثل الأصول الطبيعية الأربعة - الماء والهواء والتراب والنار - التي منها يتكون العالم الطبيعي. «كل خط يخرج من النقطة إلى المحيط مساو

أكبر رجال الصوفية الذين عرفتهم الأندلس، وأنه كان ينحو في تصوفه منحى أهل المشرق. كان من أكبر المعجبين بالإمام الغزالي فكان يقرأ كتبه ويشرحها علانية في مجالسه متحديا في ذلك عرف أهل وطنه الذين كانوا ينقمون كل النعمة على الغزالي وكتبه. وكل إشارات ابن عربي لابن قسي تدور معظمها حول مسألة الأسماء الإلهية». انظر تعليقات أبو العلا عفيفي على فصوص الحكم: ٢٥٥/٢.

(٢) خلع التعلين واقتباس النور من موضع القدمين، تحقيق محمد الأمراني، آصفى ١٩٩٧، ص ٣١، نقلا عن عبد الرحيم حميد: التصوف اليهودي (القَبَال) والتصوف الإسلامي، دراسة مقارنة لنظريات الوجود والمعرفة في فكر موسى الليوني ومحيي الدين ابن عربي، رسالة دكتوراه مخطوطة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير بالمغرب، ٢٠٠٠ - ٢٠٠١.

(٣) إنشاء الدوائر ص: ١٦ - ١٩.

لصاحبه، وينتهى إلى نقطة من المحيط .والنقطة فى ذاتها ما تعددت ولا تزيدت مع كثرة الخطوط الخارجة منها إلى المحيط .وهى تقابل كل نقطة من المحيط بذاتها، إذ لو كان ما يقابل به نقطة يقابل به نقطة أخرى لانقسمت ولم يصح أن تكون واحدة، وهى واحدة، فما قابلت النقط كلها - على كثرتها - إلا بذاتها .فقد ظهرت الكثرة عن الواحد العين، ولم يتكثر هو فى ذاته، فبطل قول من قال لا يصدر عن الواحد إلا واحد (=إشارة واضحة للفلاسفة الإشراقيين وأتباع أفلوطين من أصحاب الفيض والصدور). فذلك الخط الخارج من النقطة إلى النقطة الواحدة من المحيط هو الوجه الحاصل لكل موجود من خالقه، وهو قوله:

إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون

فالإرادة هنا هى ذلك الخط الذى فرضناه خارجا من نقطة الدائرة إلى المحيط، وهو التوجه الإلهى إلى عين تلك النقطة فى المحيط بالإيجاد، لأن ذلك (= المحيط) هو عين دائرة الممكنات .والنقطة التى فى الوسط المَعِينَةُ لنقطة الدائرة المحيطة هى الواجب الوجود لنفسه .وتلك الدائرة المفروضة دائرة أجناس الممكنات، وهى محصورة فى :جوهر متحيز، وجوهر غير متحيز، وأكوان، وألوان. «والذى لا ينحصر وجود الأنواع والأشخاص، وهو ما يحدث من كل نقطة من كل دائرة من الدوائر التى يحدث فيها دوائر الأنواع .وعن دوائر الأنواع دوائر أنواع وأشخاص، فاعلم ذلك .والأصل فى النقطة الأولى لهذا كله. وذلك الخط المتصل من النقطة إلى النقطة المعينة من محيطها يمتد منها إلى ما يتولد عنها من النقطة فى نصف الدائرة الخارجة عنها، وعن ذلك النصف تخرج دوائر كاملة .وعلة ذلك الامتياز بين «الواجب الوجود لنفسه» وبين «الممكن»؛ فلا يتمكّن أن يظهر عن «الممكن»، الذى هو دائرة الأجناس، دائرة كاملة؛ فإنها كانت تدخل بالمشاركة فيما وقع به الامتياز .وذلك محال، ليتبين نقص «الممكن» عن كمال «الواجب الوجود لنفسه». (٢٨٩/١ - ٢٩٠).

هذا التصور الدائرى للوجود هو ما يميز تصور ابن عربى عن غيره من التصورات فى التراث الإسلامى، وهو تصور يجعل من صدور «الكثرة» عن «الواحد» أمرا مقبولا دون تعارض منطقى .ومن المهم الإشارة إلى أن ابن عربى

يقرن كلامه بالرسم، وله رسالة بعنوان «إنشاء الدوائر» يفصل فيها نظريته التي تُبْقَى على المفهوم الدينى للخلق من خلال تأويله بمفهوم دينى آخر هو «التجلى». هكذا تكون التوجهات الإلهية حاضرة فى العالم، وتكون بنية العالم بنية روحية فى حقيقتها وجوهرها. ويصبح من الطبيعى أن تتعدد الظواهر المرئية المشاهدة رغم الرابطة الروحية الجامعة لأشتاتها، وهى الرابطة التى لا يدركها إلا العالمون.

إن هذا التصور الدائرى إلى جانب قدرته على تجسيد التصور الروحى للعالم والوجود، أعنى بوصف الوجود بنية روحية، يضمن التقاء البداية - بداية الوجود - بالنهاية؛ الأمر الذى يُسقط مفهوم «الزمن» الخطى لصالح مفهوم «الزمن» الكونى، أو الزمن الإلهى. فى هذا الزمن الإلهى الباطن الذى يعد الزمن الخطى الظاهر تعبيرا - مجرد تعبير سطحي - عنه، توجد الموجودات كلها، وفيه تتحرك حركتها الدائرية التى تربط البداية بالنهاية.

«اعلم إن العالم لما كان كُرَى الشكل لهذا حن الإنسان فى نهايته إلى بدايته، فكان خروجنا من العدم إلى الوجود به سبحانه وإليه نرجع كما قال عز وجل: وإليه يرجع الأمر كله وقال: وإليه المصير وقال: وإلى الله عاقبة الأمور. ألا تراك إذا بدأت وضع دائرة فإنك عندما تبتدئ بها لا تزال تديرها إلى أن تنتهى إلى أولها، وحينئذ تكون دائرة. ولو لم يكن الأمر كذلك لكننا إذا خرجنا من عنده خطأ مستقيما لم نرجع إليه، ولم يكن يصدق قوله، وهو الصادق: وإليه تُرْجَعُونَ. فكل أمر وكل موجود هو دائرة تعود إلى ما كان منه بدؤها، وأن الله تعالى قد عَيَّن لكل موجود مرتبة فى علمه (٢٨٤/١).

٢ - الأسماء الإلهية والممكنات:

هكذا نرى أن تصور ابن عربى لمفاهيم مثل «الألوهة» و«الوجود» و«العدم» و«الإيجاد» و«الخلق» الخ، ليست هى بالضبط المفاهيم المستقرة فى الوعى اللاهوتى أو فى الوعى العام المتأثر به. ومن الصعب تتبع «ال جذور» المتشعبة، والعناصر التكوينية الكثيرة، التى يصوغ منها الشيخ مفاهيمه الخاصة بطريقة المزج والتركيب والتأويل، وهو ما حاوله بنجاح ملموس «أبو العلا عفيفى» فى

دراسته الرائدة فى نهاية الثلاثينات من القرن الماضى.^(٤) ودون الدخول فى تفاصيل فلسفية يكفى الإشارة هنا إلى كيفية استخدام ابن عربى للمفهوم الذى صاغه «المعتزلة»، وهو مفهوم «الأعيان الثابتة فى العدم» عن طريق توظيفه فى سياق فلسفى مغاير لنسق الفكر الاعتزالى. والمعتزلة فى تاريخ الفكر الإسلامى هم مؤسسو العقلانية الدينية، أى العقلانية التى لا تتعارض مع الوحى. وفى حالة التعارض يمكن تأويل الوحى لغوياً، أى وفق قوانين اللغة وبلاغتها، ومن أهمها قانون «المجاز» بكل فروع التصويرية والأسلوبية^(٥) فى محاولة المعتزلة تفسير معنى كلمة «شئ» فى العبارة القرآنية «إنما أمرنا إذا أردنا شيئاً إن نقول له كن فيكون». كان على المعتزلة أن يجيبوا على السؤال التالى: إلى أى حد يمكن أن يُطلق اسم «الشئ» على ما لم يوجد بعد، أى على المعدوم؟ وقد جعلتهم محاولة الإجابة يفترضون وجوداً ما فى حالة «العدم» يمكن أن يطلق عليه اسم «شئ»، وهو افتراض يقوم على مبدأ «عدم الاستحالة» من جهة، ويقوم من جهة «اللغة» على وجود عبارات من أمثال «ما عندى شئ» أو «لا أملك من أمر نفسى شيئاً»، وهى عبارات نافية للشيئية الأمر الذى يفترض «وجوداً» ما يطلق عليه اسم الشيئية. يؤكد الافتراض ويرسخه الآيات القرآنية مثل: «وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم» «كل شئ هالك إلا وجهه» «ليس كمثله شئ»، وأمثلة ذلك من العبارات القرآنية الكثيرة.

يستخدم ابن عربى مفهوم «الأعيان الثابتة» ويوظفه فى نسق تصوره العام للوجود ولنشأته. فهذه «الأعيان الثابتة» فى العدم - يقول ابن عربى - لا تمتلك من خصائص الوجود شيئاً سوى القابلية لسماع الأمر الإلهى والاستجابة له: «ولم يكن للأعيان فى حال عدمها شئ من النسب إلا السَّمْع، فكانت الأعيان مستعدة فى ذواتها فى حال عدمها لقبول الأمر الإلهى إذا ورد عليها بالوجود. فلما أراد لها الوجود قال لها «كن» فتكونت وظهرت فى أعيانها فكان الكلام الإلهى أول

(4) The Mystical Philosophy of Muhyid Din-Ibnul `Arabi, Cambridge University Press, 1939.

(٥) كان هذا الموضوع محور دراستنا «الاتجاه العقلى فى التفسير: دراسة فى قضية المجاز فى القرآن عند المعتزلة سبق ذكره.

شئ أدركته من الله تعالى بالكلام الذى يليق به سبحانه». (ف/١٨٧) وهذا الفهم متسق تماما مع النسق القرآنى حيث قال الله تعالى للسماء والأرض «أتينا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طائعين» فالطاعة هنا هى سرعة الاستجابة للأمر الإلهى بالتكوين .

ينبنى الوجود إذن وفقا لنظرية «التجلى الأسمائى» على جدلية يكون فيها الإيجاد بمعنى «الإظهار» من حالة العدم، أى النقل من حالة إلى حالة أخرى. فوجود الذات الإلهية وجود فى مرتبة «الوجود لا بشرط شئ»، هو الوجود الذى لا تقييد فيه من أى نوع؛ هو وجود بذاته ومن ذاته ولذاته، حيث لا يعقل بتاتا تصور أى ثنائية أو كثرة فى صعيد هذا الوجود. تتجلى الذات الإلهية لذاتها بذاتها - التجلى الأقدس - فتُظهر أسماءها إلى مرتبة «الوجود بشرط لا شئ». وهذا الوجود لثانى هو الوجود المطلق، ومعنى أنه مطلق أنه وجود غير مشروط بأى شرط؛ إذ الإطلاق ليس شرطا . والفارق بين مرتبة الوجود الثانى هذه وبين مرتبة الوجود الأول هو وجود صفة «الإطلاق» فى الثانى دون الأول^(٦)

إذا كان ظهور «الذات الإلهية» بأسمائها يمثل «التجلى الأقدس»، فإن تجلى الأسماء بإظهار العالم هو «التجلى المقدس». ولأنه إظهار وليس إيجادا من عدم، فإن دور «الأعيان الثابتة» لا يقل حيوية عن دور الأسماء الإلهية. ولنبدأ مع ابن عربى لنرى تصويره لنشأة الوجود. فى أسلوب سردي مُشوّق بقدر ما هو مُغرّ لمن يشاء بتكفير الشيخ،^(٧) يصور ابن عربى كيف توجهت الأسماء الإلهية على إيجاد أعيان الممكنات بإظهارها. فى قراءتنا لسردية ابن عربى التصويرية علينا إذن أن نحذر من القراءة الحرفية ونظل دائما على وعى وبصيرة بطبيعة اللغة التمثيلية «الأليجورية»: يقول ابن عربى أن الأصل هو أن «الممكنات» فى حالة العدم سألت الأسماء الإلهية أن تمنحها الوجود. كيف؟ يصف ابن عربى سؤال الممكنات بأنه كان سؤال افتقار وذلة؛ فقالت:

(٦) انظر: عثمان يحيى: نصوص تاريخية خاصة بنظرية التوحيد فى التفكير الإسلامى، ضمن كتاب «الكتاب التذكارى لمحيى الدين ابن عربى»، سبق ذكره، ص 238. وانظر أيضا: عبد الرزاق القاشانى: شرح فصوص الحكم، مصطفى البابى الحلبي، القاهرة ط٢ ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م، ص: ٤ - ٥.

(٧) كما حدث فى البرلمان المصرى عام ١٩٧٩ حيث طالب بعض الأعضاء بمصادرة كتب الشيخ، وبألغ آخرون فطالبوا بحرقها.

«الممكنات: إن العدم قد أعمانا عن إدراك بعضنا بعضا، وعن معرفة ما يجب لكم من الحق علينا. فلو أنكم أظهرتم أعياننا وكسوتهمونا حلّة الوجود أنعمتم علينا وقمنا لكم بما ينبغي لكم من الإجلال والتعظيم. وأنتم أيضا كانت السلطنة تصح لكم في ظهورنا بالفعل، واليوم أنتم علينا سلاطين بالقوة والصلاحية؛ فهذا الذى نطلبه منكم هو فى حَقكم أكثر منه فى حقنا.

أدركت الأسماء الإلهية - مثل الخالق الذى هو المُقدّر، والعالم، والمدير، والمُفَصِّل، والبارى، والمصور، والرازق، والشكور، وجميع الأسماء الإلهية- أن هذا الذى ذكرته الممكنات صحيح لأنهم حين نظروا فى ذواتهم لم يجدوا مرجعية لهم تبرز فاعليتهم، فأين «المخلوق» و«المعلوم» والمُدَبِّر الخ؟ الممكنات إذن على حق فى قولهم أن الأسماء تظل مثلهم مجرد ممكنات (بالقوة والصلاحية لا بالفعل والتحقق) ما لم توجد الممكنات نفسها فتمنح الأسماء صلاحيتها الفعلية.

المفهوم الجدير بالإبراز هنا أن ابن عربى يجعل الوجود علاقة مشاركة بين «الأسماء الإلهية» و«العالم» إذ بدون ظهور أعيان الممكنات من حالة العدم لا تتحقق للأسماء الإلهية فعاليتها، فتظل مجرد إمكانيات باطنة فى الذات الإلهية. ومن جهة أخرى فإن ظهور الممكنات من حالة العدم إلى حالة الوجود أمر مستحيل دون ممارسة الأسماء الإلهية لفعاليتها. نحن إذن إزاء مرتبتين، أو لنقل كينونتين، تتضمن إحداهما الأخرى تضمنا ضروريا: هما «الألوهية» و«العالم»، وكلتاهما بالنسبة للذات الإلهية - الواجب الوجود بالذات - ممكنات وجودية .

من هنا يجب أن تفهم لماذا حرص ابن عربى فى عرضه التصويرى أن يبين كيف اعتمدت الممكنات فى تحريضها للأسماء على المسارعة فى إظهار أعيانها إلى تأكيد حاجتهن - حاجة الممكنات - أولا إلى الظهور، ثم ثانيا بيان احتياج الأسماء لهذا الظهور من أجل أن تبرز فعاليتها. والحال كذلك، فمن الفاعل ومن المنفعل؟ هل الأسماء الإلهية هى التى أظهرت الممكنات، أم الممكنات هى التى أظهرت الأسماء؟ سؤال محير، لكن «الحيرة» فى نظر ابن عربى هى قمة المعرفة الحقيقية. من هنا نفهم تساؤله البلاغى الشعري:

العبيد رب والرب عبيد يا ليت شعري من المكلّف
إن قيل عبيد فذاك رب أو قيل رب أنى يكلف

ولأن طلب الممكنات كان مقنعا للأسماء من زاوية حاجتها هي لإظهار سلطان فعاليتها، فقد اجتمعت - كما يقص ابن عري - وتشاورت وقررت التوجه للاسم الإلهي «الباري» طالبة منه أن يُظهر أعيان الممكنات. لكن الاسم «الباري» يحتاج إلى الاسم «القادر» ليتمكن من القيام بمهمته؛ فيحيل الاسم «الباري» الأسماء الإلهية لتطلب من الاسم «القادر» إظهار فعاليتها التي تمنح الاسم «الباري» القدرة لإظهار فعاليتها بإظهار أعيان الممكنات .

لكن الاسم «القادر» بدوره اسم يدل على مطلق القدرة - إن الله على كل شيء قدير - فهو يحتاج من ثم للمُرجَّع والمُخصَّص الذي يحدد له مجال ممارسة فعالية فعله - «القدرة» - على التحديد . وهذا الترجيح والتخصيص من وظائف ومهام الاسم الإلهي «المريد»، وهكذا يحيل الاسم «القادر» الأسماء الإلهية الأخرى، لكي تتوجه بطلبها إلى الاسم الإلهي «المريد». يقوم الاسم الإلهي «المريد» بدوره بإحالة الأسماء الإلهية لتتوجه للاسم الإلهي «العالم»، الذي يطلب بدوره من الأسماء الإلهية أن تستأذن الاسم الجامع «الله». ورغم أن الاسم الله يمثل الجمعية - جمعية الأسماء الإلهية - فهو محكوم بسلطة «الذات» الإلهية؛ فيحتاج من ثم إلى الدخول على مدلول «الذات» طلبا للإذن بالفعل .

لا يسرد لنا ابن عري ما قاله الاسم «الله» للذات الإلهية. أكثر من ذلك لا ينص ابن عري صراحة، أي لا يصرح تصريحاً مباشراً بدخول «الله» على الذات، ويكتفى بالقول إنه دخل على «مدلول» الذات. وهي عبارة تعكس حرصاً بالغاً من جانب ابن عري على عدم إعطاء أي وصف لغوي - فلسفي أو لاهوتي أو حتى سردي - للذات الإلهية. إنها خارج العالم وفوق أي معرفة، ولا تطولها العبارة سلباً أو إيجاباً. إن وسيلتنا لمقاربة وجودها - مجرد وجودها بلا زيادة ولا نقصان - هو معرفة «الأسماء» الإلهية. ومعرفة «العالم» هي وسيلتنا الوحيدة الممكنة لمعرفة

«الأسماء» الإلهية. وإذا كنا نحن العارفين جزءا من العالم، الجزء الذى يمثل الكل فالعالم «إنسان كبير» والإنسان «عالم صغير»، فإن معرفتنا بذواتنا هى معرفة بالعالم ومعرفة بالأسماء الإلهية. أليس «من عرف نفسه فقد عرف ربه»؟

ليس ثمة وسيلة إذن لمعرفة ما جرى حين دخل الاسم الجامع «الله» على مدلول الذات الإلهية. وينتهى التصوير السردى لقصة الخلق، أو بالأحرى لقصة ظهور العالم من حالة العدم، بقول ابن عربى: «فخرج الاسم «الله» ومعه الاسم «المتكلم» يترجم عنه للمكنات والأسماء (الإلهية)، فذكر لهم (الاسم الله) ما ذكره المُسمَّى (=أى الذات)؛ فتعلق (الاسم الإلهى) «العالم» و (الاسم الإلهى) «المريد» و (الاسم الإلهى) «القائل» و (الاسم الإلهى) «القادر» فظهر الممكن الأول من الممكنات بتخصيص (الاسم الإلهى) «المريد» وحكم (الاسم الإلهى) «العالم» (ف/١/٣٦٠).

جدير بالإشارة هنا أن الشيخ يعطى دورا متميزا لاسمين إلهيين متشابهين، هما الاسم «المتكلم» والاسم «القائل»، فما هو الفارق بينهما؟ لاحظنا أن دور الاسم الإلهى «المتكلم» فى التصوير السردى هو «الترجمة» عن الاسم «الله» فيما ينقله هذا الأخير عن «الذات»، بينما يكون دور الاسم الإلهى «القائل» متعلقا بإظهار أعيان الممكنات.

هذا التمييز بين صفة «الكلام» وصفة «القول» ليس مجرد تمييز شكلى أو إجرائى، فالكلام صفة محايثة للذات، أى من الصفات الذاتية، بينما تنتمى صفة «القول» لصفات «الأفعال». وابن عربى فى هذا التمييز بين «المتكلم» و«القائل» يستند بلا شك للمعطيات القرآنية المباشرة، حيث يتعلق «القول» بفعل «الإيجاد» متمثلا فى الأمر الإلهى «كن» تعبيرا عن «الإرادة»، بينما تتعلق صفة «الكلام» بسياقات أخرى: الكلام مع الملائكة، الكلام مع موسى ... الخ. وهنا يبدو ابن عربى حريصا على عدم مخالفة ظاهر القرآن بالتأويل على طريقة المعتزلة خصوصا والفلاسفة والمتكلمين على وجه العموم. لكنه فى نفس الوقت لا يتردد فى استعارة بعض مفاهيمهم بقدر ما تتلاءم مع نسقه المعرفى وتخدم فلسفته.

من الضروري أيضا أن نلاحظ أن الشيخ في هذا التصوير السردى لا يتحدث عن إبراز الممكنات كلها، فهذا لا يتسق مع مفهومه للخلق المتجدد والتجليات الدائمة استنادا إلى العبارة القرآنية: «بل هم في لبس من خلق جديد» بقدر ما يتحدث عن ظهور الممكن «الأول» من الممكنات في إشارة واضحة «للعقل الأول» عند الفلاسفة الإشرافيين، أو «للقلم» في القرآن، أو «الحقيقة المحمدية» عند الصوفية، أو «حقيقة الحقائق الكلية» عند المشائين من أتباع «أرسطو». عن هذا الموجود الأول انبثقت الموجودات الكلية من خلال عمليات تفاعل كونية تتحكم فيه وتوجهها «التجليات الإلهية» الدائمة.

٣ - مراتب التجليات الوجودية في النفس الإلهي:

وفقا لمفهوم التجلي في «النفس الإلهي» يرى ابن عربي أن الوجود قد نشأ حروفا في «النفس» الإلهي حين أرادت «الذات» الإلهية أن ترى نفسها في صورة غير ذاتها. وفي تعبير آخر أن الذات الإلهية أرادت أن تُعرَف خارج إطار ذاتيتها. يعتمد ابن عربي في هذا التصور على تأويل خاص للحديث القدسي الرائج في دوائر التصوف فقط: «كنتُ كنزا مخفيا فأحببتُ أن أُعرَفَ؛ فخلقتُ الخلقَ فبى عرفوني» فيقرر أن «الواحد» أحب أن يرى نفسه في صورة غيرية، يتجلى فيها ويرى نفسه من خلالها. ويتمسك ابن عربي في تأويله للحديث القدسي بالمعنى الحرفي لكلمة «أحببتُ» ويفسرها بالعشق الذي يسبب ضيقا في النفس؛ فيحاول العاشق «التنفيس» عن ضيقه بإخراج ما في صدره عن طريق «التنفيس» العميق .

وهكذا يكون التجلي الإلهي الذاتي من مرتبة الوجود «لا بشرط شيء» إلى مرتبة «الوجود بشرط لا شيء» تفريجا عن «كرب» الوحدة، وعن «حب» الواحد أن يرى ذاته ماثلة في صورة غيرية. في هذا المستوى المعبر عن «نفس» الذات بدأ الوجود رحلة تجلياته، التي هي صورة الذات منعكسة في الخارج. (٣١٠/٢) ، (٤٢٠).

ومن المهم هنا التوقف عند مدلول «الحب» في الحديث لارتباطه بمفهوم الرحمة؛ فالذات التي «أحبت» أن ترى نفسها في صورة أخرى غير ذاتها سبب

لها «الحب» غير المتحقق ضيقاً في النَّفس، فكان «التَّنَفُّس» هو الوسيلة المثلى للتفريج عن هذا الضيق. وعن هذا التنفس -الذي هو العماء- تتكون حروف الوجود حرفاً حرفاً. أو لنقل مرتبة مرتبة -حتى استوت مراتب الوجود الأساسية كما تنتظم حروف اللغة في النَّفس الإنساني. فإذا استوت الحروف أمكن تكوين الكلمات، وإذا استوت بالمثل مراتب الوجود الأساسية أمكن ظهور الموجودات. أليست الموجودات في النهاية هي كلمات الله؟ الوجود إذن ينبع من بعدين ونشأ على أساسين: الحب من جهة والرحمة من جهة أخرى. وهذا هو الذي يبرر لابن عريى أن يكون مآل الوجود إلى الرحمة التي منها بدأ.

هذا النفس الإلهي هو البرزخ، وهو الوسيط الجامع الذي ينتظم الكون كله، يقسمه ابن عريى إلى أربع مستويات، يتفرع كل مستوى منها إلى أربع مستويات فرعية متداخلة في بعضها البعض، بحيث يظل هناك دائماً بين كل مستوى والذي يليه مجال مشترك يكون عادة هو «الرابع» في المستوى الأعلى، وهو هو بذاته «الأول» في المستوى التالي. وبعبارة أخرى، إذا كان الوجود كله من أعلاه إلى أدناه برزخاً فاصلاً وجامعاً، فإن هذا البرزخ الجامع ينقسم إلى ما لا نهاية له من البرازخ. من الضروري الإشارة هنا إلى أن ابن عريى حين يسهب في شرح مراتب الوجود ومستوياته يحذر قارئه دائماً من تصور أى نوع من التوالى الزماني؛ فالزمان لا مدخل له في التجليات الإلهية لأنه مفهوم نسبي يحدث مخلوق (٢٩١/١).

بالجمع بين مفهوم «التجليات الأسمائية» ومفهوم «تجلى النَّفس» معاً يمكن موازنة مراتب الوجود الأساسية بحروف اللغة. وباستثناء المستوى الأول من البرزخ، مستوى «البرزخ الأعلى» أو «برزخ البرازخ» تتضمن المستويات الثلاثة التي تليه مجتمعة مراتب وجودية يصل عددها إلى ثمانية وعشرين مرتبة أساسية، توازي كل مرتبة منها حرفاً من حروف اللغة العربية الصوامت consonants. أما الحركات vowels فابن عريى يوازي بينها وبين مراتب المستوى الأول، البرزخ الأعلى كما سنرى.

ومن الهام هنا أيضا تأكيد أن العلاقة بين المستويات البرزخية هي علاقة «الباطن» و «الظاهر»؛ بمعنى أن المستوى الأول - البرزخ الأعلى - يمثل المستوى «الظاهر» مقارنة بمستوى الذات الإلهية في وحدتها المطلقة، ولكنه بالنسبة للمستوى الثاني - عالم العقول - يعد «باطنا». وبعد المستوى الثاني، من جهة أخرى، «ظاهرا» بالنسبة للمستوى الأول، لكنه «باطن» بالنسبة للمستوى الثالث، وهكذا. نفس العلاقة - علاقة «الباطن» و «الظاهر» تتمثل في العلاقة بين المراتب في كل مستوى على حدة؛ فالمرتبة الأولى في كل مستوى تمثل «ظاهر» المرتبة الأخيرة في المستوى السابق، وهي «باطن» بالنسبة للمرتبة التالية لها داخل نفس المستوى، وهكذا .

١ - مستوى «البرزخ الأعلى» أو «الخيال المطلق» أو «برزخ البرازخ أو العماء المطلق».

يقع هذا المستوى خارج نطاق المعرفة، إلا من خلال تجلياته - وجوديا ومعرفيا - في المستويات التي تليه. وليس هذا المستوى إلا تعبيرا أنطولوجيا/ معرفيا عن مستوى الذات في وحدتها المطلقة وغيبها الأزلي. ويتضمن هذا المستوى أربع مراتب من «الوسائط» أو «البرازخ» هي بمثابة «العلل» الكلية للوجود عند الفلاسفة:

(أ) المرتبة الأولى هي مرتبة «الألوهة»، وهي مجموع الأسماء الإلهية الفاعلة في العالم. وهي تمثل الوسيط الذي تجتمع فيه «الذات الإلهية» و «العالم»، ومن خلال هذه المرتبة يتمكّن ابن عربي من حل معضلة ثنائية «الذات والصفات»، وهي معضلة أساسية في «علم الكلام». وهذه المرتبة تقابل مفهوم «العلة الفاعلة» عند الفلاسفة. في هذا الفلك الأعلى تنظم حقائق «الألوهة» وهي النسب والإضافات التي تتطلب وجود العالم كما يتطلبها بنفس الدرجة. إنها «الحضرة الجبروتية» التي تفصل بين «الحق» و «الخلق» من جهة، وتقابلهما وتصل بينهما من جهة أخرى.

(ب) المرتبة الثانية هي مرتبة «العماء أو الأعيان الثابتة في العدم»، وهو تمثل وسيطا من نوع آخر بين «الوجود المطلق الكلي» و «العدم المطلق». إنه

وسيط عالم «الإمكان» الذى توجد فيه أعيان الموجودات وجودا بالقوة لا بالفعل . وهذه المرتبة تقابل مفهوم «العلة الهيولانية» عند الفلاسفة .

(ج) المرتبة الثالثة هى مرتبة «حقيقة الحقائق الكلية»، وهى الوسيط العلمى / المعرفى الكلى؛ أى الحقائق الكلية المعقولة التى تشبه إلى حد كبير «المقولات الكلية». وهذه المرتبة تقابل مفهوم «العلة الصورية» عند الفلاسفة .

(د) المرتبة الرابعة هى مرتبة «الحقيقة المحمدية أو الإنسان الكامل»، وهى تمثل الوسيط بين «الذات الإلهية» و «الإنسان»، وهى تقابل مفهوم «العلة الغائية» عند الفلاسفة . ولهذه «الحقيقة المحمدية» جانبان بوصفها برزخ فى ذاتها : من حيث الجانب الذى تنتمى به إلى «البرزخ» الأعلى هى الحقيقة المحمدية السارية فى الكون والإنسان والنبوة، هى العلة الغائية . ومن حيث الوجه الذى تنظر به إلى المستوى التالى، عالم الأمر، هى «العقل الأول» و «القلم الأعلى» .

٢ - مستوى عالم الأمر» أو «العقول الكلية» :

بدءا من هذا المستوى الثانى من مستويات البرزخ نلاحظ حضورا لمفهوم النكاح والتوالد؛ حيث كان انبعثت النفس الكلية (= اللوح فى القرآن) عن العقل الأول وهو «القلم» فى القرآن، «كانبعث حواء من آدم فى عالم الأجرام» (الفتوحات، ١/ ١٣٩) . ثم بالتوالد والنكاح بين العقل / مذكر والنفس / مؤنث تولدت الطبيعة والهباء «توأمين» . هكذا يكون «القلم» الأب الأول، ويكون اللوح بالنسبة للقلم (النفس الكلية بالنسبة للعقل) بمثابة الأم . لكن اللوح / النفس الكلية بالقياس إلى ما يليه - الطبيعة والهباء - يعد أبا ثانيا . «وبعد أن عرفت الأب الثانى من الممكنات وأنه أم ثانية للقلم الأعلى، فكان مما ألقى إليها من الإلقاء الأقدس الروحانى الطبيعة والهباء، فكان أول أم ولدت توأمين : فكان أول ما ألفت الطبيعة ثم تبعتهما بالهباء؛ فالطبيعة والهباء أخ وأخت فكان الطبيعة الأب فإن لها الأثر، وكان الهباء الأم فإن فيها ظهر الأثر، وكانت النتيجة الجسم، ثم نزل التوالد فى العالم إلى التراب على ترتيب مخصوص» (الفتوحات ١/ ١٤٠) .

هذه المستوى - مستوى عالم الأمر أو العقول الكلية- يحتل بدوره موقعا وسطا بين مستوى «الخيال المطلق» السابق ومستوى «عالم الخلق» الذى يليه. وبدءا من هذا المستوى تتجلى فعالية الأسماء الإلهية فى توجهها على إيجاد أعيان مراتب الوجود التى تتعلق بها المعرفة (كما شرح ابن عربى أليجوريا فى الفقرة السابقة). وبدءا من هذا المستوى أيضا ترتبط كل مرتبة وجودية بمرتبة معرفية يعبر عنها برمزية حرف من حروف اللغة. وينبع هذا الربط بين مراتب الوجود الكلية وبين حروف اللغة عند ابن عربى من موازاته للمستوى السابق بمفهوم «النفس الإلهي» كما سبقت الإشارة. وكما تتشكل حروف اللغة نطقا فى النفس الإنسانى باعتماد أعضاء النطق على أماكن معينة فى جهاز النطق، كذلك تتشكل مراتب الوجود الكلية فى مستوى العماء، وتظهر بالتجليات المختلفة والدائمة لحقائق الألوهة. ومن الضرورى التنبيه هنا إلى أن هذا المستوى من الوجود وجود «عقلى» لا وجود «عينى» (١/٦٧٥).

(أ) يعد «العقل الأول أو القلم الأعلى» أول مُبَدَّع فى العماء: فهو ينتمى من حيث بعده الباطن إلى مستوى «الخيال المطلق» فى مرتبته الرابعة «الحقيقة المحمدية»، بينما ينتمى ظاهره إلى أولى مراتب مستوى «عالم الأمر». ومعنى ذلك أنه يقوم بدور «همزة الوصل» بين المستويين الأول والثانى. والاسم الإلهي الذى توجه على إيجاد «العقل الأول أو القلم» هو «البديع»، ويوازيه من حروف اللغة حرف «الهمزة» على المستوى الوجودى/ المعرفى^(٨) (فتوحات ٢/٤٢٠، ٤٢٧).

(ب) المرتبة الثانية هى «النفس الكلية أو اللوح المحفوظ»، أول منبعث عن مرتبة «العقل أو القلم». ويمثلها على مستوى اللغة حرف الهاء، وتوجه على إيجادها الاسم الإلهي «الباعث» (٢/٥٦٨، ٣/٢٩٦، ٤٢٠)^(٩) والفارق بين العقل

(٨) تصور العلماء العرب أن «الهمزة» تمثل صوتيا أقصى المخارج، وليس الأمر بالطبع كذلك، وربما كانت الألف - حركة المد الطويلة- وليس «الهمزة» هى المقصودة. وليس موضوعنا هنا مناقشة هذا الالتباس بقدر ما نحاول بيان هذا التوازي بين حروف اللغة -مرتبة حسب مخارجها فى النفس الإنسانى- وبين مراتب الوجود حسب ترتيبها فى النفس الإلهي.

(٩) وانظر أيضا: كتاب اصطلاح الصوفية، ضمن «رسائل ابن العربي»، سبق ذكره، ص ١٢ - ١٤.

الأول واللوح المحفوظ فارق كمى لا كيفى، بمعنى أن كلا منهما يمثل تجليا مختلفا فى مستوى العماء، يتماثل مع الفارق بين «الهمزة» - الملتبسة فى وصف اللغويين العرب بألف المد، والتي يكون هواء النفس حالة النطق بها فى حالة تحرر كامل- وبين حرف الهاء التى تمثل مرحلة أدنى من تحرر الهواء على المستوى الصوتى؛ بسبب ما فى نطقها من الاحتكاك نتيجة ضيق مخرج الهواء حالة النطق بها .

(ج) المرتبة الثالثة هى «الطبيعة الكلية أو الهباء»، وهى ثمرة التلاحق بين «القلم» أو «العقل» / مذكر وبين «النفس الكلية» / مؤنث . وتمثل هذه المرتبة من حروف اللغة حرف العين، ومن الأسماء الإلهية الاسم الباطن .

(د) المرتبة الرابعة مرتبة يسميها ابن عربى «الهيولى الكل» أحيانا، ويشير إليها أحيانا أخرى باسم «الجوهر الهبائى». هذه المرتبة توجه على إيجادها الاسم الإلهى «الأخر»، ويوازيها حرف الحاء من حروف اللغة . ويُدمج ابن عربى داخل هذه المرتبة مرتبة أخرى ، هى مرتبة «الجسم الكل». هذه المرتبة الأخيرة تمثل مرتبة وسطى بين آخر «المعقولات» وبين أول الموجودات فى المستوى الثالث، مستوى «عالم الخلق»، وهو العرش . وعلى إيجاد تلك المرتبة الوسطى المُدمجة توجه الاسم الإلهى «الظاهر» ، ويوازيها من حروف اللغة حرف «الغين» (٤٣٠ / ٢ ، ٤٣١ ، ٤٣٢) . ويتداخل أيضا مع تلك المرتبة مرتبة «الشكل»، التى تبدو مرتبة أكثر تجريدية لمفهوم «الجسم الكل»؛ ذلك لأن الاسم الإلهى المتوجه على إيجاد هذه المرتبة هو الاسم «الحكيم»، وحرف اللغة الذى يوازيها هو حرف «الخاء» .

وللأسماء الإلهية هنا دلالتها؛ فالطبيعة تمثل باطن النفس الكلية (= اللوح المحفوظ)، والجسم الكل يمثل مجلى «الظهور» الأول فى «الجوهر الهبائى» أو «الهيولى الكل»، الذى يمثل بدوره آخر المراتب المعقولة . ويجب الإشارة هنا إلى أن التمييز بين هذه المراتب يتسم ببعض الغموض عند ابن عربى . ولكن مثل هذا الغموض يزول إذا وضعنا فى اعتبارنا تأكيد ابن عربى الدائم أن هذه المراتب ليست مراتب وجودية عينية، بل هى مراتب معقولة تمثل وسائط ذهنية . والواقع أن ترتيب تلك المراتب، وما يرتبط بإيجادها من أسماء إلهية، وكذلك ما يوازيها من حروف اللغة، إنما هو ترتيب لا يعكس تتاليا بأى معنى من المعانى . إنها كلها

فى حقيقتها تعبيرات مختلفة عن حقيقة واحدة هى الحقيقة الإلهية على مستوى الأسماء، وحقيقة «العماء» أو «النفس الإلهى» على مستوى حروف اللغة. والترتيب مجرد تصور ذهنى عقلى، فالأمر فى حقيقته دائرة يتصل أولها بآخرها كما سبقت الإشارة.

٣- مستوى عالم الخلق:

وهو يتكون كذلك من أربع مراتب:

(أ) المرتبة الأولى: «الجسم الكلى أو العرش»، وهو يمثل من حيث باطنه آخر مستويات مرتبة «عالم الأمر»، ويمثل من حيث ظاهره أول مستويات المرتبة الثالثة. ولأنه أول عالم الوجود الروحى، الذى يحيط بجميع الموجودات؛ فقد توجه على إيجاده الاسم الإلهى «المحيط»، ويوازيه من حروف اللغة حرف القاف.

(ب) المرتبة الثانية مرتبة «الكرسى» الذى يمثل بداية عالم «التعدد» فى عالم الروحانيات، لكنه تعدد فى مستوى «الإثينية»، التى تتحول إلى «كثرة» فى المرتبة التالية. والإثينية التى يمثلها الكرسى منشؤها أنه موضع «القدمين»، أى انقسام الأمر الإلهى إلى «خبر وحكم»، وانقسام الحكم إلى «أمر ونهى»، ثم انقسام الأمر إلى «وجوب وندب وإباحة»، فى حين انقسم النهى إلى «حظر وكراهة». هذا تأويل ابن عربى لثائية «القدمين»، التى يمثلها «الكرسى» إذا قورنت مرتبته بمرتبة العرش السابقة. ويوازي الكرسى حرف الكاف من حروف اللغة، والاسم الإلهى الذى توجه على إيجاده هو «الشكور».

(ج) المرتبة الثالثة هى «الفلك الأطلس» أو فلك «البروج»، الذى تتحول ثائية المرتبة السابقة فيه إلى كثرة تمثلها البروج الإثا عشر. وهذا الفلك يُعدُّ بحكم تمثيله للكثرة. علّة لكل التغيرات التى تحدث فى عالم «الكون والاستحالة» (=التبدل والتغير) على المستويين الطبيعى والروحى. يوازي هذه المرتبة من حروف اللغة حرف الجيم، وتوجه على إيجاده الاسم الإلهى «الغنى».

(د) المرتبة الرابعة هي مرتبة «فلك الكواكب الثابتة» أو «كوكب المنازل»، وله من الحروف حرف الشين، وتوجه على إيجاده الاسم «المقدر». وللإلهي هنا دلالة؛ لأن الأمور يتم تقديرها تقديرًا فعليًا عبر هذا الفلك. أما دلالة حرف الشين فنابعة من خصائصه الصوتية، حيث يمثل «تنشياً» واضحاً للهواء حال النطق به، رمى حالة توازي تحول «المضممر» إلى «معلن» في الأمر الإلهي من حيث صلته بعالم الكون والاستحالة.

٤ - مستوى عالم الشهادة (الكون والاستحالة) :

وهو يتضمن - أولاً - الأفلاك السبعة المتحركة، والتي تسبب حركتها التغيُّر والتحوُّل في العالم المشهود لنا. هذه الأفلاك السبعة يتوسطها فلك «الشمس». يعلوها ثلاثة أفلاك وتعلو هي ثلاثة أخرى. وهذه الأفلاك كلها مقدرة في فلك المنازل، الذي هو بدوره في باطن الفلك الأطلس. وليس هذا الأخير إلا دائرة أضيق داخل دائرة «الكرسي»، الذي هو بالنسبة للعرش كالحلقة الملقاة في فلاة. وكل فلك من الأفلاك السبعة المتحركة توجه على إيجاده اسم إلهي، ويوازيه حرف من حروف اللغة كما هو مبين في الشكل. لكن الجدير بالالتفات هنا هو ظهور أرواح بعض «الأنبياء» في كل فلك من تلك الأفلاك، تمثل كل واحدة منها «الروح» الموكلة بحفظ الفلك. هذا إلى جانب أن ابن عربي يحدد اسم اليوم الذي تم فيه إيجاد كل فلك منه، الأمر الذي يكشف عن معنى الكون والاستحالة. وآخر هذه المرتبة هو فلك «القمر» الذي يليه عالم الكون والاستحالة الفعلي:

(ب) المرتبة الثانية في هذا المستوى هي الدوائر التي تمثل العناصر الطبيعية الأربعة: «النار» و«الهواء» و«الماء» و«التراب». وكل منها فلك توجه على إيجاده اسم إلهي، كما يوازيه حرف من حروف اللغة. ومرة أخرى يحرص ابن عربي على تأكيد أنه يتحدث عن مراتب روحية كلية، لا عن درجات يعلوا بعضها فوق بعض أو يسبق بعضها البعض في الوجود. فالعناصر الأربعة هي الطبائع الأصلية التي منها تشكَّلت أجسام الكواكب السابق الإشارة إليها، أي من حيث الوجود المادي.

(ج) المرتبة الثالثة تتضمن مراتب الموجودات الأصلية، وهى ثلاثة: مرتبة «المعدن»، ومرتبة «النبات»، ثم مرتبة «الحيوان»، والمقصود بها مرتبة «الحياة» بإطلاق .

(د) ومن هلك «الحيوان/ الحياة» تنبثق المرتبة الرابعة التى تتضمن مراتب كل الكائنات الحية من «ملك» و«جن» و«إنسان». وتختتم مراتب الوجود بمرتبة «المرتبة»، وهى المرتبة الأساسية التى على أساسها ترتبت المراتب كلها(١٠).

جدول مراتب الوجود وما يوازيها من الأسماء الإلهية ومن حروف اللغة

اسم المرتبة/ الوجودية	الإسم الإلهى	الحرف اللغوى
١ - العقل الأول / القلم	البديع	الهمزة (الألف الممدودة؟)
٢ - النفس الكلية/ اللوح المحفوظ	الباعث	الهاء
٣ - الطبيعة الكلية	الباطن	العين
٤ - الهيولى الكل/ الجواهر الهائى	الآخر	الحاء
٥ - الجسم الكل	الظاهر	الغين
٦ - الشكل	الحكيم	الخاء
٧ - العرش	المحيط	القاف
٨ - الكرسي	الشكور	الكاف
٩ - الفلك الأطلس / فلك البروج	الغنى	الجيم
١٠ - فلك الكواكب	المقدر	الشين
الثابتة/ كوكب المنازل	الإسم الإلهى : الرب	الياء
١١ - كوكب زحل/ السماء الأولى / كيوان	النبي: إبراهيم	
	اليوم : السبت	
١٢ - كوكب المشتري/ السماء الثانية	الإسم الإلهى: العليم	الضاد
	النبي : موسى	
	اليوم: الخميس	

(١٠) انظر تصويرا دائريا للمراتب والأسماء الإلهية والحروف المرتبطة بها، ولأسماء أرواح الأنبياء التى تسكن الأفلاك السبعة المتحركة فى:

Titus Burckhardt, Mystical Astrology According to Ibn `Arabi, trans. Bulent Rauf, Gloucestershire-England 1977, p. 32-33.

اسم المرتبة/ الوجودية	الإسم الإلهي	الحرف اللغوي
١٣ - كوكب المريخ / السماء الثالثة	الإسم الإلهي: القاهر النبي: هارون اليوم: الثلاثاء	اللام
١٤ - كوكب الشمس / السماء الرابعة	الإسم الإلهي: النور النبي: إدريس اليوم: الأحد	النون
١٥ - الزهرة / السماء الخامسة	الإسم الإلهي: المصور النبي: يوسف اليوم: الجمعة	الراء
١٦ - عطارد / الكاتب / السماء السادسة	الإسم الإلهي: المحصى النبي: عيسى اليوم: الأربعاء	الطاء
١٧ - القمر / السماء السابعة، أو السماء الدنيا	الإسم الإلهي: المبين النبي: آدم اليوم: الاثنين	الدال
١٨ - كرة النار	القابض	التاء
١٩ - كرة الهواء	الحي	الزاي
٢٠ - كرة الماء	المحيي	السين
٢١ - كرة التراب	المميت	الصاد
٢٢ - المعدن	العزیز	الظاء
٢٣ - النباتات	الرازق	الثاء
٢٤ - الحيوان	المُذِل	الذال
٢٥ - الملك	القوى	الفاء
٢٦ - الجن	اللطيف	الباء
٢٧ - البشر	الجامع	الميم
٢٨ - المرتبة	الرفيع الدرجات	الواو

٤ - الموجودات كلام الله:

تتكون الموجودات العينية من تآلف بعض مراتب الوجود السالف ذكرها، والتي تكونت بدورها في «العماء» (=النفس الإلهي). من هنا تتوازي الموجودات العينية مع كلمات اللغة، التي تتكون بدورها من تآلف الحروف، التي توازي مراتب الوجود. وعلى ذلك فالموجودات هي كلمات الله، التي توازيها كلمات اللغة. وإذا كانت مراتب الوجود البسيطة ٢٨ مرتبة مثل عدد حروف اللغة، فإن الكلمات التي تتألف من الحروف، بالمعنى الوجودي واللفوي على السواء، لا حصر لها. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن «الصوامت» تحتاج للحركات من أجل تكوين الكلمات، فلا وجود لكلمة واحدة في اللغة تتكون من صامتين متتاليتين. وهنا يأتي دور المستوى الأول من مستويات الوجود «البرزخ الأعلى أو برزخ البرازخ»؛ إذ لا يوازيه أي من حروف اللغة الصوامت، بل توازيه الحركات، التي لا تتصف بالدخول في هذا العالم ولا بالخروج عنه (١/٢٥٨/٣٩٥. ٤٢١ - ٤٦٩). من تآلف الصوامت والحركات تتألف الكلمات التي تند عن الحصر، إن في الوجود وإن في اللغة: «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا» (سورة الكهف ١٨ : ١٠٩)، «ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله» (سورة لقمان ٢٧: ٣١).

«اعلم أن الممكنات هي كلمات الله التي لا تنفد وبها يظهر سلطانها الذي لا يبعد. وهي مركبات؛ لأنها أتت للإفادة فصدرت عن تركيب يعبر عنه باللسان العربي بلفظة «كن»، فلا يتكون عنها إلا مركب من روح وصورة، فتلتحم الصور بعضها ببعض لما بينها من المناسبات ... والمادة التي ظهرت فيها كلمات الله التي هي العالم هي نفس الرحمن، ولهذا عبّر عنه بالكلمات.» (٤/٦٥، ١٠٤ - ١٠٥، ١٦٦ - ١٦٧؛ ١/١٦٨ - ١٦٩؛ ٣/٢٨٣). وإذا كانت مراتب الوجود وجدت عن «النفس» الإلهي، فإن الموجودات المركبة وجدت عن كلمة إلهية مركبة هل الأمر «كن».

إن تحليل ابن عربى لمستويات تركيب الفعل «كن» المتكرر وروده فى القرآن الكريم بوصفه الأمر الإلهى للأشياء بالظهور^(١١) يكشف عن إحدى وسائله التأويلية من جهة، ويكشف عن بعد آخر لدلالة الحروف من جهة ثانية، ويكشف من جهة ثالثة عن تصويره للبعد الدلالى للغة. ووصف اللغويين لأصل الفعل «كن» أنه صيغة فعل الأمر المشتقة من الفعل الثلاثى «كان» الأجوف، أى الذى تتوسط حروفه حرف علة ضعيف. يقول اللغويون إن أصل الفعل «كن» هو «كون» ولكن تم حذف الواو لتحاشى التقاء حرفين ساكنين فى الكلمة. من هذا الشرح يبدأ ابن عربى تأويله - الوجودى المعرفى - لدلالة الكلمة الإلهية «كن» بوصفها تتضمن من الأسرار ما يتفق مع طبيعتها وأثرها .

تتكون الكلمة «كن» - فى تحليل ابن عربى - من جانبين: ظاهر هو تكونها من حرفين هما الكاف والنون، وباطن وهو تكونها من ثلاثة حروف هى الكاف والواو والنون، لأن أصل بنائها الصرفى «كُون»، فحذفت «الواو» لتحاشى وجود حركتين متماثلتين إحداهما قصيرة - وهى حركة «الضم» على «الكاف» - والثانية طويلة - وهى «الواو» - فصارت «كُنْ». ومعنى أن للكلمة «ظاهرا» و«باطنا» أنها توازى بباطنها عالم «الغيب والملكوت» وتوازى بظاهرها «عالم الملك والشهادة». وإذا كان عالم «الملك والشهادة» نفسه له ظاهر وباطن، فإن ظاهر كلمة «كن» يعكس - طبقا لابن عربى واستنادا للتحليل الصوتى لحرفيها - هذين البعدين تمثل الكاف من حيث مخرجها البعد الباطن؛ لأنها من حروف أقصى الحنك؛ أى توازى باطن عالم الشهادة. ومخرج «النون» من التقاء اللسان مع أصول الثنايا العليا؛ فهى تمثل البعد الظاهر من حيث مخرجها. والنون تمثل - من جهة أخرى من حيث شكلها الكتابى النصف دائرى - شطر الوجود الظاهر، حيث تحيل «النقطة» التى فوق نصف الدائرة إلى النصف الباطن الغائب^(١٢).

(١١) سورة البقرة (٢): ١١٧؛ آل عمران (٣): ٤٧، ٥٩؛ الأنعام (٦): ٧٣؛ النحل (١٦): ١٤٠؛ مريم

(١٩): ٣٥؛ يس (٣٦): ٨٢؛ غافر (٤٠): ٦٨.

(١٢) فى تحليل دلالة الشكل الكتابى لحرف النون، انظر: الفتوحات ٥٣/١.

ويكتسب حذف «الواو» عند ابن عربى دلالات وجودية، فهي رابطة «باطنة» - غير ظاهرة - بين الكاف والنون، وهى تماثل من هذه الزاوية التوجه الإلهى الباطن فى إيجاد عين كل شىء، سواء تم هذا التوجه باسم إلهى، كما فى حالة إيجاد مراقب الوجود الأصلية، أو تم التوجه بالقول .. (٣٣١/٢ - ٣٣٢) هذا الوضع الباطنى للواو يتماثل مع تصور ابن عربى لوجود وجهين لكل موجود: وجه إلى علته وسببه المباشر، وهذا هو وجهه الظاهر، ووجه إلى موجدته الفعلية، وهو الله، وذلك هو وجهه الباطن .

ولا تتوقف دلالة الكلمة الإلهية «كن» عند هذا المستوى من التحليل؛ لأنها على مستوى آخر من مستواها الظاهر تتماثل مع الأفلاك التسعة (الفلك الأطلس وفلك الكواكب الثابتة بالإضافة إلى الأفلاك السبعة المتحركة) التى ينتج عنها كل ما يحدث فى الدنيا والآخرة من كون واستحالة. توازى كلمة «كن» هذه الأفلاك التسعة لأن حروفها الظاهرة والباطنة عددها ثلاثة، يمكن أن تتحل إلى تسعة؛ فالكاف - حين تُنطق منفردة - ثلاثة حروف هى «الكاف» و«الألف» و«الفاء»، وكذلك الواو ثلاثة - «واو» و«ألف» و«واو» - والنون أيضا هى «نون» و«واو» و«نون». ومن جهة أخرى توازى «الكاف» من «كن» الفلك الأطلس؛ لأنه باطنٌ بالنسبة لفلك البروج الذى يليه. و«النون» توازى فلك البروج، الذى يضم فى باطنه الأفلاك السبعة المتحركة. أما الواو الباطنة فى «كن» فتمثل حركة توجه الفلكين الثابتين على الأفلاك السبعة المتحركة. (١٦٩/١).

إن دلالة الكلمة هنا لا تنفصل عن دلالة حروفها، بل يمكن القول إن دلالة الكلمة ليست سوى محصلة لمجموع دلالة حروفها الظاهرة والباطنة على السواء. مثل هذا التصور لدلالة الكلمات من شأنه أن يثير أسئلة لا تخطر على ذهن مفسر غير متصوف، مثل السؤال الذى يثيره ابن عربى مثلاً عن دلالة حذف الألف فى رسم المصحف من كلمة «بسم» فى «البسملة» ووجودها فى نفس الكلمة فى غير البسملة مثل (اقرأ باسم ربك) و (باسم الله مجراها). ويشرح ابن عربى مسألة غياب «الألف» من كلمة «بسم» فى البسملة بأن «الألف»

تدل على الألوهية. والباء -أو بالأحرى النقطة التي تحت الباء تدل على الإنسان، فيمتنع ظهورهما معا، خاصة مع كثرة استعمال البسمة في القرآن وفي التداول اللغوى (١٠٢/١) ما وجودها في غير البسمة -مع وجود الباء أيضا- فهو للدلالة عليها، ولتأكيد أن وجود العبد هو مجرد وجود ظاهر، وأن الله هو الفاعل على الحقيقة من خلف حجاب الصور الكثيرة ومنها الإنسان :

«فلو لم تظهر في (باسم) السفينة ما جرت السفينة، ولو لم تظهر في (اقرأ باسم ربك) ما علم المثل (= الإنسان) حقيقته؛ فتتقَطَّ من سَنَةِ الغفلة وانتبه. فلما كثر استعمالها في أوائل السور حُدِّثَتْ لوجود المثل (= الإنسان) مقامه في الخطاب وهو الباء، فصار المثل مرآة للسين، فصارت السين مثالا، وعلى هذا الترتيب نظام التركيب». (السابق نفسه).

وهكذا نجد أن دلالة الكلمة لا تنفصل عن دلالة حروفها المنطوقة والمكتوبة، الظاهرة والباطنة. ولا تنفصل دلالة الكلمات الملفوظة والمرقومة عن دلالة الكلمات الوجودية، التي هي الموجودات المركبة. لقد سبق أن نوقشت قضية الدلالة اللغوية في التراث الدينى من خلال الخلاف المعروف حول «قِدَم» القرآن و«حدوثه»، وهو خلاف يعكس خلافا أعمق حول العلاقة بين الذات الإلهية وصفاتها: هل الذات عين الصفات أم هي غيرها؟ وهناك من ذهب في قضية الدلالة إلى أنها وضعية اصطلاحية، ومن ذهب إلى أنها علاقة ذاتية. هذا بالإضافة إلى خلافهم حول أصل المواضعة، هل هي من الله بدأت أم بدأها الإنسان؟ (١٣).

أما منظور ابن عربى لقضية الدلالة فينطلق من منظوره للإلوهة - وهى مجموع الأسماء والصفات الإلهية- بأنها مجمل العلاقات الوسيطة بين الذات الإلهية والعالم من جهة، وبينها وبين الإنسان من جهة أخرى. من خلال هذا

(١٣) ناقشنا هذه القضية تفصيلا في الفصل المشار إليه سابقا من كتابنا «الاتجاه العقلى فى التفسير»، سبق ذكره.

المنظور تختفى ثنائية الذات والصفات، كما تختفى بالمثل كل الثنائيات الأخرى مثل «القدم والحدوث». وبناء على موازنة ابن عربى بين اللغة والوجود من جهة، وبين مراتب الوجود والأسماء الإلهية من جهة أخرى، تنتفى ثنائية القدم والحدثة على مستوى الدلالة فى القرآن؛ الذى يتسم بصفة الإحاطة فيجمع بين صفتي القدم والحدوث. (ف ٤/٤٠٢).

إذا كانت الموجودات كلمات الله، وكلام الله قديم محدث معا؛ فالموجودات/الكلمات لها وجه إلى القدم من حيث وجودها فى علم الله القديم الأولى الأزل، كما لها وجه إلى الحدث من حيث الظهور فى صور أعيان الموجودات. ولما كانت اللغة الإنسانية تمثل «ظاهر» اللغة الإلهية، فإن اصطلاحية الدلالة وعرفيتها فى اللغة الإنسانية تصبح مسألة اعتبارية فقط. وإذا كانت دلالة اللغة الإنسانية - ظاهر اللغة الإلهية - كذلك، فإن دلالة الكلمات الإلهية - باطن اللغة الإنسانية - لا تقوم على الوضع والاتفاق، بل تستند إلى أعيانها ومعانيها الثابتة فى علم الله القديم. ولأن الإنسانى يمثل «ظاهر» الإلهى، الذى يمثل الباطن الحقيقى والفعلى فإن اللغة الإنسانية تبدو على مستوى الوعى الظاهرى وكأنها «تُحدث المعانى فىنا بحدوث تأليفها الوضعى»، وليس الأمر كذلك، لأن هذه اللغة تدل على الموجودات وتشير إليها، وهذه الموجودات/الكلمات «ما وقع فيها الوضع فى الصور المخصوصة إلا لذاتها، لا بحكم الاتفاق، ولا بحكم الاختيار؛ لأنها بأعيانها أعطت العلم الذى لا يتحول والقول الذى لا يتبدل». (= السابق نفسه، ص ٦٥).

لكن قضية الدلالة فى اللغة لا تتضح فى فكر ابن عربى دون تبيان موقع «الإنسان» الوجودى والمعرفى. وأهمية تبيان هذا الموقع يستند إلى حقيقة أن «مرتبة الإنسان» هى المرتبة الأخيرة، حيث لا تليها سوى مرتبة «المرتبة». ولكن هذه الأخيرة لا تعنى التأخر الزمانى، كما أنها لا تعنى انفصالا عن المراتب السابقة، خاصة مرتبة الألوهة. والإنسان فى النهاية «كلمة» من كلمات الله الوجودية، بل هو «الكلمة» المقصودة من التجليات الإلهية؛ فهو الذى يحقق غايتها الأساسية.

٥ - الإنسان كلمة الله :

إذا كانت مرتبة الإنسان هي آخر مراتب الوجود، فالإنسان نفسه هو أرقى الموجودات وأعلاها من حيث إنه مجلى كل حقائق الوجود ومراتبه من جهة، وهو مجلى الحقيقة الإلهية من جهة أخرى. ويطول بنا المقام لو أردنا أن نتبع الموازنة التفصيلية الدقيقة التي يقيمها ابن عربي بين حقيقة الإنسان وحقائق الوجود^(١٤) من هذه الزاوية فقط، يعتبر الإنسان آخر الموجودات. وعلى العكس من ذلك يكون الإنسان «أول» الموجودات من حيث القصد الإلهي. من هذه الزاوية الثانية يمكن لابن عربي أن يصف الإنسان بأنه «الأول والآخر». (٣/٣٤٢) بل يمكن له كذلك أن يصفه بأنه «الظاهر والباطن»، إذ يستمد باطنيته من حقيقة أن الأسماء الإلهية مجتمعة - ممثلة في الألوهة إحدى مراتب المستوى الأول - توجهت على إيجادها. (٢/٤٦٨) من خلال هذه الأوصاف يؤكد ابن عربي أوجه التشابه بين «الله» و «الإنسان»؛ فآله «هو الأول والآخر والظاهر الباطن» (سورة الحديد ٥٧، الآية ٣). وبعبارة أخرى يمكن القول إن للإنسان - كلمة الله - جانبين: ظاهر يجمع كل مراتب الوجود من أرقاها - القلم أو العقل الأول - إلى أدناها - الحيوانية، وجانب باطن، هو حقيقته الروحية المستمدة من عالم الألوهة في مستوى برزخ البرازخ. من هنا يصح الوصف بأن الإنسان عالم صغير، وأن العالم ليس إلا إنسانا كبيرا. وإذا كان كل من الإنسان والعالم يمثلان ظاهرا «الألوهة»، فالعالم يمثلها من حيث كثرة الأسماء والصفات، في حين يمثل الإنسان الألوهة من حيث جمعيتها، وكما تتمثل في الاسم الإلهي «الله». إن العالم في كثرته لا يمكن الإحاطة به، كما أن الأسماء الإلهية في كثرتها تند عن الحصر والإحاطة، أما الإنسان فيمكن الإحاطة به نظرا وإدراكا. إنه «الجسم الصغير» الذي تجلى فيه «العالم الأكبر».

(١٤) يمكن الرجوع لهذه الموازنة في الفتوحات: ١/١٢٠ - ١٢١، ٤٤٦٧/٤٤٧. وانظر أيضا: إنشاء الدوائر، سبق ذكره، ص ٢١ - ٢٢، وعقلة المستوفز، ص ٣٢ - ٣٣، والتدبيرات الإلهية، ص ١٠٨ - وما بعدها. والكتابان ضمن «إنشاء الدوائر»، سبق ذكره

يقول ابن عربي: «العالم ما فى قوة إنسان حصره فى الإدراك لكِبَرِهِ وَعِظَمِهِ، والإنسان صغير الحجم يحيط به الإدراك من حيث صورته وتشريحه، وبما يحمله من القوى الروحانية. فرتب الله فيه جميع ما سوى الله؛ فارتبطت بكل جزء منه حقيقة الاسم الإلهى الذى أبرزته (= هذا الجزء) وظهر عنها؛ فارتبطت به الأسماء الإلهية كلها لم يشذ عنه منها شئ، فخرج آدم على صورة الاسم الله؛ إذ كان هذا الاسم يتضمن جميع الأسماء الإلهية. كذلك الإنسان، وإن صَغُرَ جَرْمُهُ، فإنه يتضمن جميع المعانى.» (١٢٤/٢) (١٥).

تلك الموازنة بين الإنسان والعالم لا تتفى كونه جزءا من العالم، فهو جزء أصيل يمثل الروح بالنسبة للجسد؛ ذلك لأن وجود العالم قبل إيجاد الإنسان -مع الحذر دائما من تصور وجود «قبلية»، أو بَعْدِيَّة، زمانية- كان «وجود شبح لا روح فيه، فكان كمرآة غير مَجْلُوءة ... فاقترضى الأمر جلاء تلك المرأة، فكان آدم جلاء تلك المرأة، وروح تلك الصورة.»^(١٦) وعلينا هنا أن نتأمل صورة «المرأة» ونستعيد ما قاله ابن عربي عن «حُبِّ» الذات الإلهية أن ترى نفسها فى صورة غيرية، أى غير رؤيتها لذاتها بذاتها. وعلينا أن نستعيد تأويل ابن عربي للحديث القدسي «كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فى عرْفوني» فهذا الحب هو الذى نتج عنه العماء (= النفس الإلهية) الذى تشكَّلت فيه مراتب الوجود. العالم إذن هو المرأة، لكنه بدون الإنسان مرآة غير مجلوة، ولا يجلوها إلا وجود الإنسان. وبعبارة أخرى لا يكون العالم ممثلا للوجود الإلهي إلا بوجود الإنسان؛ لأنه بالنسبة للعالم بمثابة «الروح» بالنسبة للجسد. إن «الإنسان» هو روح العالم الذى بدونه لا يكون العالم موازيا لحقائق الألوهة؛ فالإنسان مواز للإلوهة أو هو على صورة الله.^(١٧) ولا يكون العالم موازيا للإلوهة أو على صورة

(١٥) وانظر أيضا: عقلة المستوفز، ص ٤٥ - ٤٧، وعنقاء مُغْرِب، ص ٢٨. وقد سبق ذكرهما.

(١٦) فصوص الحكم، تحقيق: أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربى، بيروت ١٩٤٦، ص: ٤٩٠. وانظر أيضا: الفتوحات ٤٣٩/١.

(١٧) إن الله خلق الإنسان على صورته: حديث ينسب للنبي ورد فى صحيح البخارى، باب الاستئذان، رقم ١، وفى مسند ابن حنبل، المجلد الثانى، أرقام ٢٤٤، ٢٥١، ٣١٥، ٣٢٣ ... الخ. وانظر كيف ينطلق ابن عربي من هذا الحديث ليستنبط حقيقة الإنسان وتمثله للصورة الإلهية فى الفتوحات ٤٦٨/٢.

الله إلا بالإنسان :فالعالم بالإنسان على صورة الحق. (ف/٣٤٣) والإنسان دون
العالم على صورة الحق .والعالم دون الإنسان ليس على الكمال فى صورة الحق.»
وهذه المعادلة الوجودية يمكن تلخيصها كما يلى:

باطن الإنسان//.....الله.

ظاهر الإنسان//.....العالم.

العالم (بدون الإنسان = (جسد بلا روح) مرآة صدئة غير مجلوة.

العالم...+...الإنسان...//..الله

الله // الإنسان //

وهنا نصل إلى مفهوم الإنسان بوصفه «برزخا جامعا للطرفين»^(١٨) ، وهو
المفهوم الذى يبرز أفضلية الإنسان على الموجودات كلها؛ لأنه متميز عنها
بكماله الذاتى وعدم مماثلته لأى جزء من مفردات الموجودات، وذلك رغم
استمداده وجوده منها جميعها : «فجميع العالم برز من عدم إلى وجود إلا الإنسان
وحده؛ فإنه ظهر من وجود إلى وجود :من وجود فَرَّق إلى وجود جمع، فتغير
الحال عليه من افتراق إلى اجتماع، والعالم تغير عليه الحال من عدم إلى وجود،
فبين الإنسان والعالم ما بين الوجود والعدم، ولهذا ليس كمثال الإنسان شىء.»
(٣/٣٩٠) لابد أن نلاحظ هنا كيف يقيم ابن عربى التماثل بين حقيقة الإنسان
وبين الاسم الله من خلال الاستشهاد بعبارات قرآنية إن الإنسان الذى ينطبق
عليه الوصف «الأول والآخر والظاهر والباطن»، ينطبق عليه كذلك وصف «ليس
كمثله شىء» (سورة الشورى ٤٢، الآية ١١)

لكن علينا أيضا أن نؤكد أن ابن عربى يتحدث هنا عن تشابه وتماثل لا عن
تطابق؛ فالعالم والإنسان صور ومرايا لحقيقة واحدة. وأيا كانت الصورة فهى
تعكس الأصل بحسب طبيعتها، وليست هى الأصل .وعلى ذلك فالإنسان ليس هو

(١٨) عقلة المستوفز، ص ٤٢.

الله وإن جمع فى ذاته بين الصورتين الإلهية والكونية. (٣/٣٤٣ - ٢/٤٦٨) فالإنسان مماثل لله ومماثل للعالم، لكن هذه المماثلة لا تتفى التباين بين الله والإنسان من جهة، وبين الله والعالم من جهة أخرى، فضلا عن التباين بين الإنسان والعالم. ومن الواجب علينا حين يوازي ابن عربى بين حقائق الألوهة وحقائق العالم أن نفهم أن «العالم» فى هذه الموازنة يتضمن الإنسان. وعلينا أيضا أن نلاحظ أن الإنسان الذى يوازي ابن عربى بينه وبين العالم من جهة وبينه وبين حقائق الألوهة من جهة أخرى هو الإنسان العارف الذى وصل إلى معرفة حقيقة نفسه. إنه الإنسان الكامل الذى يُعد آدم المجلّى الأول له، كما يعد الرسل والأنبياء والعارفون الوارثون تجليات مختلفة لحقيقته الروحية.

وهنا لابد من التعرض للجانب المعرفى فى مسألة التجليات الإلهية، التى هى علة ظهور أعيان الموجودات؛ لأنها هى بذاتها علة المعرفة التى يقذفها الله فى قلب المؤمن بعد أن يُجلى مرآة قلبه بالانصراف عن كل ما سوى الله وتوجيه الهمّة إليه وحده. ولا يمكن لقلب العارف أن يمتلئ بالمعرفة الكاملة إلا بعد رحلته المعرفية التى ينفذ من خلالها من ظاهره/ظواهر الوجود إلى باطنه، الذى هو أيضا باطن الوجود. هناك إذن نمطان من التجلى الإلهى: التجلى الوجودى للظهور فى أعيان صور الممكنات، والتى أكملها صورة «الإنسان»، والنمط الثانى هو التجلى الإلهى المعرفى على قلوب العباد. وشرط وقوع هذا التجلى أن ينهض العبد بواجبه فى الرحيل القصدى خارج العالم والولوج إلى حضرة الحق؛ فيتجلى الله على قلبه، أو لنقل تتكشف له الحقيقة من باطنه فيصبح قادرا على «التأويل» - تأويل الكلام الوجودى- وصولا لدلالته العميقة. والرحيل فى معراج الصعود عبر مراتب الوجود أمر ضرورى؛ لأن ظهور صور أعيان الموجودات يمثل حُجبا كثيفة متراكمة تحجب الحقيقة، والتجلى الإلهى على قلب المؤمن لا يتم إلا بعد ارتفاع تلك الحجب عن صورة العارف. وفى هذا السياق يحتفى المتصوفة بالحديث القدسى: «ما وسعنى أرضى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن»^(١٩)

(١٩) عن القلب وموقعه من الملكات الإنسانية، ودوره العرفانى انظر: الفتوحات ٩٠/١، والتدبيرات الإلهية، ص: ١٢٢، وأخيرا مواقع النجوم ومطالعة أهلة الأسرار والنجوم، ص: ١٢١.

هكذا يبدأ التجلى المعرفى بمبادرة إنسانية فى اتجاه معاكس لاتجاه التجلى الوجودى، بحيث يمكن القول إن التجلى الوجودى يبدأ أولاً فى عالم «برزخ البرازخ» ليصل إلى عالم الكون والاستحالة، فى حين أن التجلى المعرفى يبدأ من عالم الكون والاستحالة مع بدايات معراج الصوفى فى رحلته. وإذا كان التجلى الوجودى فى أعيان الموجودات يجعل لها ظاهراً وباطناً، فقد يكون التجلى المعرفى على ظاهر الإنسان؛ فيدرك ظواهر أعيان الموجودات، وقد يكون تجلياً على باطن الإنسان - القلب - فيدرك علوماً من علوم الأسرار. وإذا كانت علوم معرفة الظواهر تحتل الخطأ وتحتاج تأويلاً، فإن علوم الأسرار ليست كذلك؛ لأنها أشبه بـ «النصوص» التى لا إشكال فيها. وهذه العلوم هى التى تمكن العارف من القدرة على فهم حقيقة أعيان الموجودات، والنفاد إلى أسرارها الباطنة. وتزداد العلوم التى تتكشف لقلب العارف مع رقيه فى المعراج. وكلما رقى درجة زاد التجلى فى باطنه بقدر ما ينقص الوعى بظاهره، حتى يصل إلى حالة الفناء، أو المشاهدة التامة، فيغمر التجلى باطن العارف وظاهره، أو بالأحرى تنقل تنتقى الثنائية التى مردها إلى عالم الكون والاستحالة. هذا الاستغراق إلى حد «الفناء» يمثل نوعاً من الموت «الاختيارى» تنقش فيه الحجب، ويصبح البصر بصيرة، وهى الحالة التى لا تحدث للإنسان العادى إلا بالموت، حين يصبح البصر حديداً، فيقال له: «لقد كنت فى غفلة عن هذا فرفعنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» (سورة ق ٥٠، الآية ٢٢).

إن حالة «الفناء» تلك ليست إلا يقظة من «الغفلة» التى يعيشها الإنسان العادى وتستغفره. هى يقظة من الحياة فى عالم الصور، التى هى أشبه بالصور التى تتراءى للنائم؛ فيظننها حقيقة ثم يستيقظ فيكتشف أنها كانت أوهاماً. وليس الوجود فى نظر ابن عربى فى حقيقته إلا خيالاً يماثل الصور التى تتراءى للنائم فى أحلامه. والمرتب المختلفة والمتعددة للوجود من أولها إلى آخرها - وهو الوجود الإنسانى - تخضع جميعها لهذا التصور. الصوفى وحده هو الذى يدرك تلك الحقيقة؛ «إذا ترقى الإنسان فى درج المعرفة علم أنه نائم فى حال اليقظة المعهودة وأن الأمر الذى هو فيه رؤيا إيماناً وكشفاً. ولهذا ذكر الله أموراً واقعة

فى ظاهر الحس وقال «فاعتبروا» ، وقال: «إن فى ذلك لعبرة»، أى جوزوا واعبروا مما ظهر لكم من ذلك إلى علم ما بطن منه» (٢٧٩/٢) هكذا تمثل مراتب الوجود حجابا على الحقيقة، كما تمثل الصورة فى «الرؤيا» غطاء على المعنى، وتصبح رمزا يحتاج إلى تأويل. يحتاج الوجود إلى تأويل معناه ودلالته بما هو صور وكلمات دالة على مدلول كامن خلف رمزيته. وليس هذا التأويل لكلمات الله الوجودية أمر متاحا لكل البشر، بل هو هبة إلهية يختص بها من البشر من تحقق بحقيقته الكونية والإلهية معا، أى بحقيقته من حيث كونه «كلمة» أيضا. والعارف وإن عاد من حالة الفناء يظل فى حالة «اليقظة»، أى لا يعود أبدا لحالة «النوم» التى يحياها غير العارفين. وبذلك يظل الحق معه؛ فيراه فى كل شىء مهما اختلفت التجليات وتعددت الصور، لأنه فى كل مجلى يعرفه ولا ينكره. (٢٣٤/٣ - ٢٣٥).

٦ - تأويل القرآن: كلام الله فى الوجود:

يتمثل تصور ابن عربى للنص الدينى مع تصورات الوجودية والمعرفية، فهو الوجود المتجلى من خلال اللغة. إنه «جوامع الكلم» - كما قال الرسول (صلعم) (٢٠) التى توازى الوجود وترمز إلى حقائقه، كما توازى الإنسان وترمز إلى حقائقه. وإذا كان الإنسان هو البرزخ الجامع بين الحق والخلق، أو بين باطن الوجود وظاهره، كما سبقت الإشارة، فالقرآن يمثل «البرزخ» بين الحق والإنسان، وبهذا المعنى هو برزخ الكلمة الجامعة. يتأمل ابن عربى الآيات الأولى من سورة «الرحمن»، وكيف جمعت بين «تعليم القرآن» و«خلق الإنسان» ثم تعليمه «البيان» على هذا الترتيب: «فقلوه: «الرحمن علم القرآن» نَصَبَ القرآن، ثم قال: «خلق الإنسان علمه البيان»؛ فيُنزَّلُ عليه القرآن ليترجم منه بما علمه الحق من البيان، الذى لم يقبله إلا هذا الإنسان. فكان القرآن علم التمييز، فعلم أين محله الذى ينزل عليه من العالم؛ فنزل على قلب محمد -صلى الله عليه وسلم- نزل به

(٢٠) وهو حديث أورده البخارى فى صحيحه، كتاب تعبير الرؤيا، رقم ١١، وأورده مسلم فى صحيحه أيضا، كتاب المساجد، أرقام ٥ - ٨.

الروح الأمين. ثم لا يزال ينزل على قلوب أمته إلى يوم القيامة، فنزوله في القلوب جديد لا يبلى، فهو الوحي الدائم. فالرسول -صلوات الله وسلامه عليه- الأولية في ذلك والتبليغ إلى الأسماع من البشر. والابتداء من البشر؛ فصار القرآن برزخا بين الحق والإنسان، وظهر في قلبه على صورة لم يظهر بها في لسانه؛ فإن الله جعل لكل موطن حكما لا يكون لغيره. وظهر في القلب إحدى العين؛ فجسده الخيال وقسمه، فأخذ اللسان فصيره ذا حرف وصوت، وقيد به سمع الأذان وأبان أنه مترجم عن الله لا عن الرحمن لما فيه من الرحمة والقهر والسلطان ... فالكلام لله بلا شك، والترجمة للمتكلم به كان من كان؛ فلا يزال كلام الله من حين نزوله يتلى حروفا وأصواتا إلى أن يُرفع من الصدور ويُحَى من المصاحف، فلا يبقى مترجم يقبل نزول القرآن عليه، فلا يبقى الإنسان المخلوق على الصورة. (١٠٨/٣).

في هذا النص يخوض ابن عربي في بحار من الفكر هائلة؛ فالقرآن ليس إلا ترجمة للبيان الذي علمه الرحمن للإنسان حين خلقه، ولم يقبله إلا الإنسان الكامل. من هنا نفهم كيف أن القرآن «علم تمييز»، فهو نزول على القلب ليتترجم به الإنسان ما سبق من البيان الذي علمه من الرحمن. وليس تبليغ محمد للقرآن، الذي نزل به الروح الأمين على قلبه، إلا ترجمة إلى أسماع البشر. في هذه الترجمة يتحول القرآن عن حالة «الأحدية» في القلب ويصبح حروفا وأصواتا؛ أي ينتقل من الأحدية إلى «الكثرة». وهنا تكمن الموازنة بين القرآن ومستوى الوجود الأول في «البرزخ الأعلى أو برزخ البرازخ». ولكن القرآن بالإضافة إلى ذلك يتجدد نزوله على قلوب العارفين، الذين يقومون بدورهم بإبلاغه للبشر. وهذا التجدد في النزول مرتبط بتجدد المعنى والدلالة؛ فالرسول في الواقع -حسب ابن عربي- له الأولية في التبليغ، والذي يواصله العلماء؛ أليس العلماء ورثة الأنبياء؟^(٢١) القرآن إذن في هذا التصور مواز للوجود ومواز للإنسان في نفس الوقت؛ إذ هو «برزخ جامع» بينهما وبين الحقيقة الإلهية من حيث كليته، أي

(٢١) البخاري، باب العلم، رقم ١٠.

قبل أن يتحول فى الأسماع إلى حروف وأصوات. فإذا تحول إلى حروف وأصوات، أى انتقل من حقيقته الباطنة وظهر، صار له -مثل العالم والإنسان- جانبان: «باطن» هو جمعيته من حيث النزول على قلب النبی وتجدد نزوله على قلوب العارفين، وجانب «ظاهر» من حيث تلاوته باللسان.

هذه التفرقة بين جانبي القرآن -الباطن والظاهر- تُمكن ابن عربي من حل معضلة قَدَم القرآن وحدوثه. إن كلمات الله الوجودية لها -كما أشرنا- وجه إلى القدم ووجه إلى الحدوث. هى قديمة من حيث وجودها فى العلم الإلهي، ومحدثة من حيث ظهورها فى أعيان صور العالم. والقرآن بالمثل قديم من حيث جمعيته ووجوده الكلى فى العلم الإلهي، ومحدث من حيث نزوله على قلوب العارفين وتلاوته باللسان: «له الحدوث والقَدَم؛ فله عموم الصفة، فإن له الإحاطة ولنا التقيد» (٤/٤٠٢، ٤٧٣) فالقرآن كالوجود والإنسان، جامع للقدم والحدوث، والظاهر والباطن، فاجتمعت فيه كل الحقائق الإلهية والكونية. وإذا كان الوجود ينقسم إلى مستويات أربعة كلية -عالم البرزخ وعالم العقول الكلية (الأمر) وعالم الأرواح (الخلق) ثم عالم الكون والاستحالة- فمن الطبيعي أن يقوم البناء الدلالي للقرآن على نفس المستوى الرباعي. يتكون القرآن من «ظاهر» و«باطن» و«حد» و«مطلع»، وهى مراتب ومستويات دلالية تتماثل مع مراتب الوجود ومستوياته. هذا بالإضافة إلى أن لكل موجود من الموجودات ظاهرا وباطنا وحدا ومطلعا. الظاهر هو ما ندرکه بالحواس فى خبرتنا اليومية، والباطن هو الروح التى تمسك الصورة الحسية وتحفظها. أما الحد فهو ما يميز الموجود عن غيره من الموجودات، والمطلع هو غاية الوجود ونهايته. للإنسان كذلك ظاهر هو صورته، وله باطن هو روحه المدبرة لصورته، وله حد يميزه عن الحيوان والنبات والجماد، وله مطلع هو غايته ونهايته. هذا التقسيم ينطبق أيضا على مرتبة الألوهة؛ فلها ظاهر وباطن وحد ومطلع يُعبّر عنها بالأسماء الإلهية الجامعة، وهى الأول والآخر والظاهر والباطن :

«ما من شيء إلا وله ظاهر وباطن وحد ومطلع، فالظاهر منه ما أعطتك صورته، والباطن ما أعطاك ما يمسك هذه الصورة، والحد ما يميزه عن غيره،

والمطلع منه ما يعطيك الوصول إليه إذا كنت تكشف به . وكل ما لا تكشف به فما وصلت إلى مطلعته ... لا فرق بين هذه الأمور الأربعة لكل شيء وبين الأسماء الإلهية الجامعة : الاسم الظاهر، وهو ما أعطاه الدليل، والاسم الباطن وهو ما أعطاه الشرع من العلم بالله، والأول بالوجود والآخر بالعلم. » (٤١١/٤) ومن المهم الإشارة هنا إلى أن هذه الجوانب التي تنتظم مراتب الوجود الكلية، كما تتواجد في كل موجود على حدة، ليست جوانب منفصلة عن بعضها البعض، والأحرى القول إنها متداخلة تداخل تفاعل . فالظاهر يحيل إلى الباطن، وتأمل الباطن يكشف مستوى الحد، وتفاعل الثلاثة يقضى إلى الوصول إلى المطلع. تأمل عالم الكون والاستحالة مثلا - العالم الظاهر - يحيل إلى عالم الخلق - العالم الباطن - . ومع رقى المعراج يصل العارف إلى عالم الأمر - عالم الحد - . والذي يُعَدُّ عالمُ الخلق بالنسبة له «ظاهرا» . ثم يكون الرقى النهائي إلى عالم المطلع بالوصول إلى برزخ البرازخ الذي هو باطن عالم الأمر . هذا التداخل قائم بنفس الدرجة بين مستويات «الظاهر» و«الباطن» و«الحد» و«المطلع» في البنية الدلالية للقرآن . هذه الموازنة التي يقيمها ابن عربي بين القرآن والوجود موازنة أنطولوجية وجودية بقدر ما هي أيضا معرفية؛ لأن أساس الوجود والقرآن معا هو «العماء = النفس الإلهي»، الذي ظهرت فيه أعيان صور الموجودات، كما ظهرت فيه حروف اللغة التي تشكلت منها الكلمات الإلهية .

..

الوجود // اللغة // القرآن

من هذا المنطلق لا يصبح القرآن مجرد نص لغوي تاريخي تتحدد دلالاته وفقا لقواعد وأصول موضوعية في بنية اللغة العربية؛ فاللغة العربية ذاتها مجرد مظهر ومجلى للغة الإلهية . القرآن كلام الله، والوجود كلام الله كذلك . وليس المهم عند العارف فهم كلام الله من خلال ظاهر اللغة، بل الأهم هو الاستماع إلى المتكلم من خلال مجالى كلامه على مستوى الوجود والنص معا : «اتل القرآن

من حيث هو كلام الله تعالى، لا من حيث ما تدل عليه الآيات من الأخبار والأحكام؛ فإنه الرّان (= الصدا)»^(٢٢) وهكذا يجب أن تكون تلاوة العارف للقرآن تلاوة إنصات لتلاوة المتكلم؛ فيكون استماع العارف للقرآن استماعا بالإنصات لكلمات الوجود في «الآفاق» وكلمات «النفس» من الداخل، حتى يتبين له الحق من الآيات في الوجود/الآفاق وفي النفس: «ولا تظن يا بني أن تلاوة الحق عليك وعلى أبناء جنسك من هذا القرآن العزيز خاصة. ليس هذا حظ الصوفي، بل الوجود بأسره (كتاب مسطور في رق منشور) تلاه عليك سبحانه وتعالى لتعقل عنه إن كنت عالما (وما يعقلها إلا العالمون) ولا تُحجَبَ عن ملاحظة المُختَصَر الشريف من هذا المسطور، الذي هو عبارة عنك، فإن الحق تعالى تارة يتلوه عليك من الكتاب الكبير الخارج، وتارة يتلوه عليك من نفسك. فاستمع وتأهّب لخطاب مولاك إليك في أى مقام كنت، وتَحَفَّظْ من الوقر والصمم؛ فالصمم آفة تمنعك من إدراك تلاوة الحق عليك من نفسك المُختَصَرَة، وهو الكتاب المعبّر عنه بالفرقان؛ إذ الإنسان محل الجمع لما تفرّق في العالم الكبير»^(٢٣) وهذا الربط بين كل من الوجود (لكتاب الكبير) ، والإنسان (المختصر الشريف) من جهة، وبين «القرآن» من جهة أخرى، يجعل فهم النفس وفهم الوجود شرطين لفهم القرآن.

هكذا لا يتفصل تأويل الوجود عن تأويل النص الديني والنفاد إلى مستوياته المتعددة التي لا يفهمها إلا الإنسان الكامل الذي تحقق بباطن الوجود وتجاوز ظاهره. وبالوصول إلى مستوى «الفناء» في الحق يصل العارف إلى مستوى الدلالة الكلى. في هذا المستوى المعرفى تتحل كل الرموز والإشارات، التي تجسدها اللغة الإنسانية. ويصبح القرآن بالنسبة للعارف خاليا من الإلغاز أو الرمز، اللذين يحجبان الإنسان العادى عن مستويات الدلالة المختلفة وراء مستوى الظاهر اللغوى العرفى. أليس القرآن «ذكرا»، أى تذكيرا للنبي -صلعم-

(٢٢) العبادلة، تحقيق: عبد القادر احمد عطا، مكتبة القاهرة ط١ ١٢٨٩هـ / ١٩٦٩م. ص: ١٤٦.

(٢٣) مواقع النجوم، سبق ذكره، ص ٦٧ - ٧٨.

بما سبقت له مشاهدته من الحقائق في معراجيه، وفقا لفهم ابن عربي؟ وهو كذلك أيضا بالنسبة للعارف الذي سلك على درج خطى محمد في معراجيه. وهكذا يصبح القرآن بالنسبة لكل من النبي والعارف خاليا من الإجمال والإلغاز والرموز والتورية، التي توجد في الشعر مثلا: «قال تعالى: وما علمناه الشعر وما ينبغي له» فإن الشعر محل الإجمال والرموز والإلغاز والتورية، أى ما رمزنا له شيئا ولا لغزناه، ولا خاطبناه بشيء ونحن نريد شيئا آخر، ولا أجملنا له في الخطاب. إن هو إلا ذكر لما شاهدته حين جذبهنا وغيبناه عنه وأحضرناه بنا عندنا، فكنا سمعنا وبصره. ثم رددنا إليكم لتهتدوا به في ظلمات الجهل والكون، فكنا لسانه الذى يخاطبكم به. ثم أنزلنا عليه مذكرا يُذكره بما شاهد؛ فهو ذكر له وقرآن، أى جمع أشياء كان شاهدها عندنا، مبين ظاهر له لعلمه بأصل ما شاهده وعابنه في ذلك التقريب الأنزه الأقدس، الذى ناله من صلى الله عليه وسلم. ولنا منه من الحظ على قدر صفاء المحل والتهيؤ والتقوى». (ف/١/٥١).

هل يمكن بعد هذا الشرح والتفصيل أن يعترض معترض حين يستخدم باحث مثل هنرى كوربان مصطلح «تأويل» للإشارة إلى بعد أساسى من أبعاد النظام الفكرى لابن عربي؟^(٢٤) إن عدم استخدام ابن عربي للمصطلح بأى معنى إيجابى ليس حكما صحيحا مائة بالمائة، فهو فى مجال الحديث عن الرؤى والأحلام يوظف عادة إما مصطلح «التأويل» أو مصطلح «التعبير». وأما تحاشيه لاستخدام مصطلح «تأويل» حين يتصل الأمر بالقرآن فهو أمر مفهوم بعد أن تعلقنا بالمصطلح دلالات سلبية فى سياق الصراعات الإيديولوجية بين «الشيعة» و«السنة» بصفة خاصة.

(٢٤) يمثل هذا الاعتراض أساسيا عند William C. Chittick فى دراسته الشاملة The Sufi Path of Knowledge: Ibn al-Arabi's Mytaphysics of Imagination, State University of New York Press, 1989, p. 199. والغريب أنه يعتمد على مراجعة Chodkiewicz لدراسة «فلسفة التأويل: دراسة فى تأويل القرآن عند محيى الدين ابن عربي» والتي ظهرت فى Studia Islamica 60, 1984, pp. 177-180 الذى يحكم على الدراسة -دون أن يقرأها- بأنها أثر من آثار تأثير مفهوم هنرى كوربان عن التأويل.

ومن الضروري هنا تبليان أن مصطلح «التأويل» اكتسب دلالة غير الحسنة تدريجيا، ومن خلال عمليات التطور والنمو الاجتماعيين وما يصاحبهما عادة من صراع فكري وسياسي. ويمكن هنا أن نستشهد ببعض الأقوال التي وردت متناثرة في كتب التاريخ و التفسير. من هذه الأقوال ما يروى عن علي بن أبي طالب حين رفع الأمويون المصاحف على أسنة السيوف، بنصيحة الداهية عمرو بن العاص، طالبين الاحتكام للقرآن، الأمر الذي أحدث انشقاقا في صفوف جيشه، فقال على : «بالأمس حاربناهم على تنزيله واليوم نحاربهم على تأويله»، وهي عبارة تحاول أن تلفت أنظار الذين استجابوا للتحكيم إلى أن هؤلاء القوم من بنى أمية يحاولون اليوم التلاعب بالتأويل بعد أن كانوا في سنوات سابقة يرفضون التنازل. لكن عبارة على لا تتضمن أى دلالة معيبة لكلمة «تأويل» التي لم تكن بعد قد تحولت إلى مصطلح، بل هي عبارة في واصفة لطبيعة الخلاف. والذي يؤكد ذلك أنه هو نفسه الذي قال ردا على المحكمة كذلك : «القرآن بين دفتي المصحف لا ينطق وإنما يتكلم به الرجال»^(٢٥) وهو الذي قال لابن عباس وهو بصدد الحجاج مع الخوارج: «لا تحاجهم بالقرآن فإن القرآن حمّل أوجه، بل حاجهم بالسنة».

وفيما يورده محمد بن جرير الطبري، (القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي) عن بعض التابعين في شرح الآية ٧ من سورة آل عمران، هناك من يقول عن «الذين في قلوبهم مرض» الذين يتبعون المتشابه أن المقصود هم الخوارج^(٢٦) والعبارة في دلالتها الحرفية تعنى أنهم يقصدون إلى تأويل المتشابه من القرآن واتباعه بهدف الفتنة لأن المتشابه لا يعلم تأويله الا الله بنص الآية المذكورة. ولعلنا نعلم جميعا أن هذه الآية صارت فيما بعد محور جدال عميق بين المفسرين من الاتجاهات والفرق المختلفة لا حول تأويلها وشرح معناها فقط، بل حول علامات الوقف و الاتصال فيها كذلك.

(٢٥) انظر : محمد بن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك، تحقيق :محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط ٤ ١٩٧٩ م، الجزء الخامس، ص ٤٨ - ٤٩ وكذلك ص ٦٦.
(٢٦) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١ م الجزء السادس، ص ١٩٨.

و لعلنا لا نحتاج هنا لشرح ما هو معروف تماما من تعدد التأويلات و اختلاف التفاسير بدءاً من القرن الأول الهجرى، وهو أمر اتسع ونما فى القرون التالية، حتى صار مصطلح «المؤولة» يضم إلى جانب الخوارج الشيعة والمعتزلة والمتصوفة. ولعل القرن الرابع الذى شهد نمو الفكر الشيعى على مستوى الصياغة الفلسفية و اللاهوتية، هو نفسه القرن الذى شهد قمة العداء بين الدولة السنية ممثلة فى دولة الخلافة العباسية وبين الدولة الشيعية التى امتد سلطانها حتى القاهرة. وهو كذلك القرن الذى كان قد شهد الانتصار السياسى ممثلاً فى تأييد الدولة بدءاً من عصر المتوكل للفكر الفقهى السنى المحافظ، بعد أن كانت فى عصر المأمون والمعتصم تتبنى الفكر الاعتزالى وتعادى الموقف الفقهى السنى. من الطبيعى أن يكون هذا المشهد الذى يصعب فى التمييز بين السياسى والفكرى، أو بين الدنيوى والدينى، له تأثيره فى إلصاق دلالة «التحريف» بدلالة «التأويل». الأمر الذى جعل مصطلح «التفسير» يتقدم تدريجياً ليكون هو المصطلح الدال على البراءة الموضوعية.

إن توظيف مصطلح «التأويل» فى مناقشة فكر ابن عربى يستمد مشروعيته لا من العودة بالمصطلح إلى مجال تداوله الأسمى البرىء من السلبية فقط، بل يستمدّها معرفياً من حقيقة أن «ابن عربى» يرى الوجود كله خيالات ورؤى وأحلام تشبه ما يتراءى للنائم فى نومه. هذا الوجود الصُّور يحجب الأسماء الإلهية، ولا سبيل إلى النفاذ من الصور إلى الحقائق المحتجبة وراءها إلا بالتأويل، عبر معراج الصوفى من «ظاهره» - الذى هو ظاهر الوجود - إلى باطنه، الذى هو الحقيقة. إن من شجاعة الباحث ألا يتردد فى استخدام المصطلح المعبر، ولو تردد «ابن عربى» نفسه فى استخدامه لأسباب تاريخية. هذا هو الفارق بين منهج التحليل الفيلولوجى - بالمعنى الكلاسيكى - وبين توظيف منهجية مركبة أنثروبولوجية تاريخية لغوية .

ولأن قضايا التأويل أوسع من أن يستوعبها بحث واحد أو كتاب مهما كان حجمه، فقد رأينا أن نكتفى فى الفصل التالى - السادس والأخير - بتحليل «تأويل» الشريعة، كنموذج يمكن أن يكون كاشفاً لنهج الشيخ. ولا نريد أن نكرر أن

دراستنا الأولى والتي كانت مخصصة لمناقشة قضايا التأويل لم تستوعب كل القضايا. ومن القضايا التأويلية التي لم نتناولها تلك الدراسة، بسبب تركيزها على القضايا اللاهوتية - الوجودية والمعرفية - قضية تأويل الشريعة. لذلك - إلى جانب أسباب أخرى سنذكرها هناك - رأينا تخصيص الفصل القادم لما لم يتسع له كتابنا السابق .

الفصل السادس

تأويل الشريعة : جدلية الظاهر والباطن

المقصود بمفهوم «الشريعة» فى هذا الفصل القوانين والأحكام المشتقة من المصادر الأساسية لتنظيم حياة الفرد المسلم والجماعة المسلمة سواء فى مجال الشعائر والعبادات أو فى مجال المعاملات والعلاقات الاجتماعية. وإذا كان مصطلح «الشريعة» يُستخدم أحياناً ليبدل على مجمل النظام الدينى الإسلامى الجامع بين العقيدة والقوانين فإننا هنا لا نستخدمه بهذا المعنى. والحديث عن «الشريعة» فى السياق الإسلامى بهذا المعنى المحدد يحيل إلى القوانين والتشريعات الخاصة التى تميز «الإسلام» وتفصله عن غيره من الأديان. فإذا كانت الأديان جميعاً تلتقى فى محتوى «العقيدة»، وهى الإيمان بالله وباليوم الآخر، أى بالثواب والعقاب الذين بدونهما لا يتحقق العدل، فإنها تتمايز من حيث شرائعها وأحكامها. من هنا نلمس حرص القرآن الكريم على إبراز هذين الجانبين: وحدة العقيدة فى الأديان من جهة، واختلاف الشرائع حسب خصوصية الزمان والمكان من جهة أخرى. عن وحدة الدين يمكن الاستشهاد بالنصوص القرآنية التالية:

١ - «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» (س ٤٢ / آية ١٣).

٢ - «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (س٢/ آية ٦٢).

٣ - «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (س٥/ آية ٦٩).

نلاحظ هنا أن القرآن يضع معيارا للدين يتمثل فى «الإيمان» بالله وباليوم الآخر من جهة، وفى «العمل الصالح» من جهة أخرى. وفق هذا المعيار العام يكون الخلاص بالمعنى العام الدنيوى والأخروى على السواء: انعدام الخوف وغياب الحزن، أو بعبارة أخرى تَحَقُّقُ الأمن وحضور البهجة والمسرة. وهذا المعيار يستوعب كل الأديان من يهودية ومسيحية بالإضافة إلى الصابئة. هذا الدين العام الشامل هو «الإسلام» بالمعنى اللغوى، إى التوجه الكامل لله مع «الإحسان» فى الفعل والسلوك. وردا على تعصب أهل الأديان السابقة على الإسلام ضد المسلمين الأوائل وزعمهم أن الجنة لن يدخلها إلا اليهود والنصارى يقول القرآن: «بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (س٢/ آية ١١٢).

تتسع دائرة الخلاص الدينى وفقا لهذا المفهوم العام الشامل للإسلام لتشمل أصحاب الأديان جميعا بلا تمييز أو تفرقة. لهذا لا يجب أن نستغرب أن كل الأنبياء بلا استثناء يوصفون فى القرآن بأنهم مسلمون (انظر على سبيل المثال لا الحصر السور والآيات: ١٦٣/٦، ١٤٣/٧، ١٠/٧٢، ٨٤، ٩٠، ٢٧/٣١، ٣٨، ٤٢، ٩١، ١٢/٣٩، ١٥/٤٦). ولكى يزيل الإسلام أى احتمال للتعصب يؤكد أن الفصل بين أصحاب العقائد، بما فيهم «المجوس» - عبدة النار - و«المشركون» - عبدة الأوثان - يجب أن يُترك لله سبحانه، حيث يكون الحكم له وحده يوم القيامة. «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شئ قدير» (س٢٢/ آية ١٧).

فى مقابل وحدة «الدين» تختلف الشرائع، فلكل جماعة دينية جعل الله «شرعة ومنهاجا»، وكانت المشيئة الإلهية قد اقتضت إلا يكون الناس أمة واحدة (س ٥/

آية ٤٨). الأمر الذى يقتضى أن يعمل اليهود بشريعتهم ويعمل النصارى بشريعتهم ويعمل المسلمون بشريعتهم .على هدى هذه المبادئ القرآنية ينتج ابن عربى خطابه .وقد سبق أن حللنا فى الفصل الثانى كيف يحلل ابن عربى «الشرك» ليرده إلى منطق «الإيمان»، وكيف يحلل مفهوم «الكفر» ليكشف عن بنيته الأعمق فى الشعور الإنسانى .

١ . اختلاف الشرائع ووحدة التجربة الروحية:

ويهمنا هنا قبل الدخول إلى تأويله للشريعة أن نشير إلى أنه يفصل بين التجربة الروحية وبين الإيمان بالشرائع، أو العمل بها .ينطلق ابن عربى فى هذا التمييز من فهمه لوحدة التجربة الدينية رغم اختلاف الوسائل والأدوات وأساليب الرياضة والمجاهدة الروحية .هذا بالإضافة إلى احترامه الذى ما يفتأ يعبر عنه فى كثير من السياقات للرهبنة على أساس أن الرهبان النصارى ينتمون إلى صنف العارفين الذين هم على بينة من أمرهم، رغم اعتمادهم على شرائع منسوخة:

«قد ثبت عندنا أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل الرهبان الذين اعتزلوا الخلق وانفردوا برهبهم، فقال :ذرهم وما انقطعوا إليه .فأتى بلفظ مجمل ولم يأمرنا بأن ندعوهم لعلمه صلى الله عليه وسلم أنهم على بينة من ربهم .وقد أمر صلى الله عليه وسلم بالتبليغ وأمرنا أن يبلغ الشاهد الغائب .فلولا ما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله يتولى تعليمهم مثل تولى تعليم الخضر وغيره ما كان كلامه هذا ولا أقره على شرع منسوخ عنده فى هذه الملة.» (ف:٢٥١/١).

وعلاوة على ذلك يمكن أن تقوم المجاهدات الروحية على غير شريعة منزلة، وتظل رغم ذلك مجاهدات مشروعة قادرة على إنجاز درجات من العرفان ربما تكون أقل من تلك المجاهدات المبنية على إيمان بالشرائع المنزلة والعمل بما تشرعه . «ولما كان من لا يؤمن بالشرائع المُنزَّلة يشاركنا فى الرياضة والمجاهدة وتخليص النفس من حكم الطبيعة ويظهر عليه الاتصال بالأرواح الطاهرة الزكية،

ويظهر حكم ذلك الاتصال عليه مثل ما يظهر على المؤمنين العاملين منا هذه الأعمال بحكم الشرائع المنزلة وقع التشبيه والاشتراك بيننا وبينهم في هذا القدر عند عامة الناس. ولما تعلقوا بالعلوم التي يعطيها كشف الرياضة وإمداد الأرواح العلوية انتقش في هذه النفوس الفاضلة جميع ما في العالم فنطقوا بالغيوب» (ف: ١٨٠/١).

لكن الاشتراك في بعض نتائج التجربة الروحية الناتجة عن الرياضات النفسية والجسدية لا يعنى عدم الفصل والتمييز بين التجارب المبنية على أساس شرعى وبين تلك المؤسسة على معرفة عقلية. يكاد هذا التمييز يكشف عن محاولات المتصوفة المسلمين ردع سهام الهجوم التي تتهمهم إما باتباع تقاليد غريبة على الإسلام (= الرهينة المسيحية) أو بالسير على خطى فلاسفة «الإشراق» مثل «ابن سينا» و«السهروردي» على سبيل المثال^(١) يحاول المتصوفة في دفاعهم عن «إسلامية» تجاربهم أن يؤكدوا دائما التمييز بين تجاربهم الروحية. المبنية على الكتاب (القرآن الكريم) والسنة النبوية. وبين تجارب غيرهم من العارفين سواء كانوا رهبانا مسيحيين أم فلاسفة عقليين. من اللافت للنظر أن المتصوفة لا يدينون أى تجربة روحية ولا يقللون من شأنها.

(١) يؤكد الشيخ في نص شديد الدلالة الفارق بين شهوده وشهود أهل الكمال من المتصوفة وبين شهود فلاسفة الإشراق، كما يمثلهم «شهاب الدين السهروردي»، فيقول مميزا بين التجلى الذاتى - حيث لا لذة ولا كلام ولا خطاب، وحيث لا فاصل زمنيا بين «الشهود» و«العلم»- وبين التجلى «الصورى»، أى فى صور الموجودات حيث يكون الكلام والخطاب والالتذاذ: «قال بعضهم شهود الحق فناء ما فيه لذة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة؛ فليس التفاضل ولا الفضل فى التجلى وإنما التفاضل والفضل فيما يعطى الله لهذا المتجلى له من الاستعداد. وعين حصول التجلى عين حصول العلم لا يعقل بينهما بون كوجه الدليل فى الدليل سواء، بل هذا أتم وأسرع فى الحكم. وأما التجلى الذى يكون معه البقاء والعقل والالتذاذ والخطاب والقبول فذلك التجلى الصورى. ومن لم ير غيره ربما حكم على التجلى بذلك مطلقا من غير تقييد. والذى ذاق الأمرين فرقى ولا بد. بلغنى أن الشيخ المسن شهاب الدين السهروردي ابن أخى أبى التجيب أنه يقول بالجمع بين الشهود والكلام فعلمت مقامه وذوقه عند ذلك؛ فما أدري هل ارتقى بعد ذلك أم لا. وعلمنا أنه فى مقام التخيل وهو المقام العام السارى فى العموم، وأما الخصوص فيعلمونه ويزيدون بأمر ما هو ذوق العامة». (ف: ٢١١/٤).

يستشهد ابن عربي بالجنيد شارحا مغزى ما يقول: «قال الجنيد علمنا هذا وإن وقع فيه الاشتراك بيننا وبين العقلاء فأصل رياضتنا ومجاهداتنا وجميع أعمالنا التي أعطتنا هذه العلوم والآثار الظاهرة علينا إنما كان من عملنا بالكتاب والسنة؛ فهذا معنى قوله علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة. ونتميز يوم القيامة عن أولئك بهذا القدر فإنهم ليس لهم في الإلهيات ذوق؛ فإن فيضهم روحاني وفيضنا روحاني إلهي، لكوننا سلطنا على طريقة إلهية تسمى شريعة فأوصلتنا إلى المشرع وهو الله تعالى؛ لأنه جعلها طريقا إليه فاعلم ذلك.» (السابق نفسه) هذا التمييز بين الفيض - الروحاني - فقط، والتمتع لكل البشر بصرف النظر عن العمل بالشرائع أو الارتباط بعقيدة بعينها، وبين الفيض «الروحاني الإلهي» المختص بالعاملين بالشريعة المحمدية يبدو تمييزا هاما للدفاع عن التجربة الصوفية من منظور إسلامي .

٢ - الشريعة، الظاهر والباطن:

يؤسس ابن عربي باطن الشريعة على أساس أنه انعكاس لباطن الوجود، فكما أن للوجود ظاهرا وباطنا، وكما أن للإنسان كذلك ظاهرا وباطنا، فالخطاب الإلهي يتضمن بالضرورة هذين الجانبين: الظاهر والباطن. ومن المنطقي إذن أن يكون للشريعة ظاهرا وباطن؛ فالشريعة تظل في النهاية بنية تعبيرية لغوية تاريخية متغيرة من حيث الظاهر، لكنها ثابتة من حيث الباطن. وليس من المعقول، فيما يرى الشيخ، أن يكون الله سبحانه في خطابه إلى البشر قصد مخاطبة ظاهريهم دون باطنيهم. وإذا كان عامة الناس قد شغلهم أمر معرفة الأحكام الشرعية وأمر تطبيقها على ظواهرهم، فإن «أهل الله» - والشيخ يعني المتصوفة العارفين، وهم قليل - أدركوا أن للأحكام الشرعية نسبة إلى باطنيهم كما أن لها نسبة إلى ظاهريهم. ولأنهم لا يغلبون الظاهر على الباطن ولا الباطن على الظاهر فقد بحثوا عن أحكام الشريعة الباطنة ليجمعوا بين الطرفين معا: الظاهر والباطن.

من الواضح أن الشيخ الأكبر يميز هنا بين «أهل الظاهر» من العامة والفقهاء من جهة وبين «الباطنية» من جهة أخرى. أما «أهل الظاهر» فهم أولئك الذين يعتبرون أن مجرد أداء الشعائر وتنفيذ الأحكام الشرعية هي غاية المراد دون اعتبار للمغزى الروحي العميق الكائن وراءها. و«الباطنية» يمثلون الطرف الآخر، وهم الذين يقفون عند المغزى الباطني والروحي العميق للشرعية منفصلاً عن ظاهرها. بين الطرفين يقف «عباد الله» الذين لا ينكرون الظواهر، ولكنهم لا يتوقفون عندها بقدر ما يتخذونه وسيلة للنفاذ إلى الباطن الروحي العميق.

هذا بالإضافة إلى أن «أهل الله» يتميزون عن الطرفين. أهل الظاهر والباطنية- بقدرتهم على الوصول إلى أحكام الشريعة من مصدرها الأصلي مباشرة دون وسائط «الرواة» و«الناقلين»، وهذا هو الفارق بين «طريق أهل الله» و«طريق الفقهاء والمحدثين» وهم في مصطلح ابن عربي «علماء الرسوم». يقول بصدد هذا التمييز: «أخذنا كثيراً من أحكام محمد صلى الله عليه وسلم المقررة في شرعه عند علماء الرسوم، وما كان عندنا منها شيء، فأخذناها من هذا الطريق (= الذوق) ووجدناها عند علماء الرسوم كما هي عندنا. ومن تلك الطريق نصح الأحاديث النبوية ونردّها أيضاً، إذا علمنا أنها واهية الطرق غير صحيحة. لهذا قرر الشارع حكم المجتهد وإن أخطأ. ولكن أهل الطريق لا يأخذون إلا بما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا الوصى من الأفراد وطريقه في مآخذ العلوم طريق الخضر صاحب موسى فهو على شرعنا وإن اختلف الطريق الموصل إلى العلم الصحيح». (٢٥١/١).

ومعنى هذا أن «أهل الله» لا يتميزون فقط بجمعهم بين «الظاهر» و«الباطن»، بل إنهم بالإضافة إلى ذلك - أو بالأحرى بسبب ذلك - قادرون على «تصحيح» الأحكام وتصويب طرق نقلها وتحملها، الأمر الذي يعطى للجمع بين «الظاهر» و«الباطن» بُعداً تركيبياً؛ فالباطن يُصحح الظاهر، والظاهر الصحيح بدوره يجعل النفاذ إلى الباطن أقل صعوبة. لكن «أهل الله» لا يتخذون من قدرتهم تلك على تصويب الأحكام مبرراً للحكم على أهل الظاهر بالخطأ، ولا يصلون أبداً إلى

مستوى محاكمة من يختلف معهم وإدانتهم. وهم في ذلك يستندون إلى مبدأ «لكل مجتهد نصيب»، الذي يمثل عندهم قاعدة معرفية أصيلة في الشريعة ذاتها. ولعل هذا «التسامح» المؤسس على قاعدة شرعية هو ما يميز «أهل الله» عن غيرهم من علماء الرسوم الذين يسارعون بتكفير من يخالفهم، خاصة من علماء الصوفية.

إن هذا الخلاف بين «أهل الله» وبين الفقهاء من علماء الرسوم قد يصل أحيانا إلى حد «الصراع»؛ ذلك أن علماء الرسوم ما أسرع ما يحاكمون «أهل الله» فيحكمون عليهم بالكفر والمروق عن الدين والعقيدة. وكثيرا ما يتعرض ابن عربي لهذا الاختلاف والصراع شاكيا متألما، ولكنه في عمق خطابه يسعى إلى إبراز الفروق المعرفية بين «الطرفين»، فأهل الله تغمزهم الحيرة المعرفية والعجز عن ادعاء «اليقين»؛ إذ الحقيقة نفسها تتلون وتتشكل كما يتخذ «الماء» شكل الإناء الذي يوجد فيه ويتلون بلونه، رغم حقيقة أن «الماء» لا شكل له ولا لون. لكن الفقهاء من جانب آخر يزعمون امتلاكهم للحقيقة، ويتصورون أنفسهم حراسها والمدافعين عنها؛ ذلك أنهم لا يدركون ما يدركه «أهل الله» من سرعان «التجليات الإلهية» في كل شيء ولا يدركون شيئا من تغييرها وتبدلها في كل آن. إنهم لا يدركون «سر الخلق الجديد»، الذي يدركه «أهل الله» في بواطنهم. المشكل إذن يكمن في أن الوقوف عند الظاهر - موقف الفقهاء وعلماء الرسوم - يفضي إلى التعصب، بل يفضي إلى «الإرهاب» المعنوي والمادي. التاريخ الذي شهد محاكمات «الحلاج» و«السهروردي» يشهد على صحة ذلك. يقول الشيخ مميزا بين «أهل الله» و«أهل الفكر» من جهة، وبينهم وبين خصومهم من علماء الرسوم معرفيا من جهة أخرى، كاشفا عن خطورة التعصب المبني على ادعاء امتلاك الحقيقة: «أصحاب الأفكار ما برحوا بأفكارهم في الأكوان فلهم أن يحاروا ويعجزوا، وهؤلاء (= أصحاب الحيرة من أهل الله) ارتفعوا عن الأكوان وما بقى لهم شهود إلا فيه (= في الله)؛ فهو مشهودهم. والأمر بهذه المثابة فكانت حيرتهم باختلاف التجليات أشد من حيرة النظار (= أهل النظر من الفلاسفة والمتكلمين على السواء) في معارضات الدلالات (= يعني عند تعارض

الأدلة). فقولهُ صلى الله عليه وسلم، أو قول من يقول من هذا المقام، «زدني فيك تحيُّراً» طلبٌ لتوالي التجليات عليه. فهذا هو الفرق بين حيرة أهل الله وحيرة أهل النظر، فصاحب العقل ينشد:

وفى كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وصاحب التجلى ينشد:

وفى كل شيء له آية تدل على أنه عــــينه

فبينهما ما بين كلمتيهما. فما فى الوجود إلا الله، ولا يعرف الله إلا الله. ومن هذه الحقيقة قال من قال: «أنا الله»، كأبى يزيد، و«سبحانى» كغيره من رجال المتقدمين، وهى من بعض تخريجات أقوالهم رضى الله عنهم. فمن وصل إلى الحيرة من المُقَرَّبِينَ فقد وصل. غير أن أصحابنا اليوم يجدون غاية الألم حيث لا يقدرون أن يرسلوا (من العبارات والأوصاف) ما ينبغى أن يُرسل عليه سبحانه (منها) كما أرسلت الأنبياء عليهم السلام، فما أعظم تلك التجليات. وإنما منعهم أن يطلقوا عليه ما أطلقت الكتب المنزلة والرسل عليهم السلام عدم الإنصاف من السامعين من الفقهاء وأولى الأمر لما يسارعون إليه من تكفير من يأتى بمثل ما جاءت به الأنبياء عليهم السلام فى جنب الله، ويتركون قوله تعالى: (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) لما قال له ربه عز وجل عند ذكره الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) فأغلق الفقهاء هذا الباب من أجل المُدَّعين الكاذبين فى دعواهم ونعم ما فعلوا، وما على الصادقين من هذا ضرر؛ لأن الكلام والعبارة عن مثل هذا ما هو ضريبة لازب، وفى ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك (من عبارات وأوصاف) كفاية لهم فيوردونها ويستريحون من: تَعْجُب - وضحك - وتبشيش - ونزول - ومعية - ومحبة - وشوق، وما أشبه ذلك مما لو انفرد بالعبارة عنه كُفِّرَ وربما قُتِلَ. وأكثر علماء الرسوم عدموا علم ذلك ذوقاً وشرباً؛ فأُنكروا مثل هذا من العارفين حسداً من عند أنفسهم، إذ لو استحال إطلاق مثل هذا على الله تعالى ما أطلقه على نفسه ولا أطلقته رسله عليه ... وأكثر العامة تابعوا الفقهاء

فى هذا الإنكار تقليدا لهم، لا بل بحمد الله أقل العامة، وأما الملوك فالغالب عليهم عدم الوصول إلى مشاهدة هذه الحقائق لشغلهم بما دُفعوا إليه، فساعدوا علماء الرسوم فيما ذهبوا إليه إلا القليل منهم فإنهم اتهموا علماء الرسوم فى ذلك لما رأوا من انكبابهم على حطام الدنيا وهم فى غنى عنه وحب الجاه والرياسة وتمشية أغراض الملوك فيما لا يجوز. وبقي العلماء بالله تحت ذل العجز والحصر معهم كرسول كذبه قومه وما آمن به واحد منهم. (٣٠٣/١ - ٣٠٤).

إن الخطاب الإلهى للبشر، بما يتضمنه من شرائع وأحكام، لا يخاطب الظاهر دون الباطن من الإنسان. ولا يمكن تصور أن المطلوب مجرد الأداء الشكلى للشعائر والأحكام دون أن ينعكس هذا الأداء على «الباطن» الروحى، فتكتمل الدائرة التى تصل الظاهر والباطن، وتصل الإنسان بالوجود، وتعيد الإنسان إلى أصل وجوده الروحى العميق، أى إلى أصله الإلهى. يقول الشيخ: «إن الله خاطب الإنسان بجملة وما خصَّ ظاهره من باطنه، ولا باطنه من ظاهره. فتوفرت دواعى الناس أكثرهم إلى معرفة أحكام الشرع فى ظواهرهم وغفلوا عن الأحكام المشروعة فى بواطنهم، إلا القليل وهم أهل طريق الله؛ فإنهم بحثوا فى ذلك ظاهرا وباطنا. فما من حكم قرروه شرعا فى ظواهرهم إلا ورأوا أن ذلك الحكم له نسبة إلى بواطنهم. أخذوا على ذلك جميع أحكام الشرائع فعبدوا الله بما شرع لهم ظاهرا وباطنا ففازوا حين خسر الأكثرون. ونبغت طائفة ثالثة، ضلت وأضلت فأخذت الأحكام الشرعية وصرفتھا فى بواطنهم وما تركت من حكم الشريعة فى الظاهر شيئا، تسمى «الباطنية» وهم فى ذلك على مذاهب مختلفة. وقد ذكر الإمام أبو حامد فى كتاب المستظهر له فى الرد عليهم شيئا من مذاهبهم وبيّن خطأهم فيه. والسعادة كل السعادة مع الطائفة التى جمعت بين الظاهر والباطن وهم العلماء بالله وبأحكامه». (ف/١ ٣٧٢ - ٣٧٣).

ولعل فى نقد الشيخ للباطنية - الطرف الآخر لأهل الظاهر من الفقهاء وعلماء الرسوم - وإحالة إلى كتاب «أبى حامد الغزالى» المعروف لنا باسم «الرد على الباطنية» حسب الطبعة التى حققها «عبد الرحمن بدوى» - ما ينهض دليلا حاسما للرد على الباحثين الذين يزعمون أن الشيخ يعلن تمسكه بالظاهر على

سبيل «التَّقيَّة» لا غير. إن «الظاهر» و«الباطن» ليسا مجرد وجهين لعملة واحدة، بل هما حقيقتان مستمدتان من حقائق الإلهية ومن الأسماء الإلهية الواردة في القرآن: (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) وهذا الدليل القرآني حاضر دائماً في خطاب ابن عربي، يكاد يتكرر في كل صفحة من صفحات الفتوحات. وعلى ذلك فالحرص على الكشف عن المعاني والدلالات «الباطنة» للشرائع والأحكام لا يمكن اعتباره إهداراً للظواهر، فلا باطن بلا ظاهر، ولا ظاهر إلا ووراءه باطن روحي عميق. إن التصور الدائري للوجود عند ابن عربي يجعل الظاهر والباطن تجليات لحقيقة واحدة. هذه الحقيقة يمكن أن تتمثل هندسياً في العلاقة بين محيط الدائرة ومركزها، فكل نقطة يمكن تخيلها من نقاط المحيط تواجه نقطة المركز بذاتها. وهكذا دائرة الوجود؛ فكل موجود روحي أو حسي ينظر إلى موجوده مباشرة، أي يدرك أصله ومنشأه. بعبارة أخرى كل ظاهر في الوجود يدرك باطنه.

٢ - الشريعة، ميزان اعتدال الكون:

يمثل مفهوم «الشريعة» «الميزان» الذي على أساسه يعتدل نظام الكون، وبدون وجود هذا الميزان يُخَشَى على نظام الكون أن يعتوره الاختلال. إن الأسماء الإلهية التي توجهت على إظهار أعيان الممكنات من حالة العدم تتضمن في طبيعتها وفي دلالتها عناصر الاختلاف، التي انعكست بدورها - عناصر الاختلاف - في بنية الوجود الظاهر. وهذا الاختلاف من شأنه أن يقضي للنزاع، الأمر الذي يهدد نظام الكون بالاختلال. هذا هو الذي يؤسس الحاجة إلى «تشريع» ينظم العلاقات ويضبط الأمور. يواصل ابن عربي في تصويره السردى، الذي سبق أن حللنا بعضه في الفصل السابق، قائلاً إن أعيان الممكنات توجهت مرة أخرى بالرجاء للأسماء الإلهية معبرة عن خوفها من أن يكون لهذا الاختلاف تأثير سلبي على ظهورهم؛ بمعنى أنهم قد يجدون أنفسهم مرة أخرى في حالة «الوجود العدمي» الذي أخرجتهم الأسماء الإلهية منه. ومن الطبيعي أن تحسن الأسماء الإلهية نفس الخطر وتستشعره على وجودها لفعودة الممكنات إلى

حالتها السابقة من «الوجود العدمي» يعنى ذهاب سلطان الأسماء الإلهية، أى تهديد حالة ظهورها هى الأخرى والعودة بها إلى حالة «البطون» فى الذات الإلهية، التى هى فى «عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء». هكذا نطقت الممكنات مخاطبة الأسماء الإلهية معبرة عن مخاوفها:

«أنتم أيها الأسماء لو كان حكمكم على ميزان معلوم وحد مرسوم بإمام ترجعون إليه، يحفظ علينا وجودنا، ونحفظ عليكم تأثيراتكم فينا، لكان أصلح لنا ولكم». فلجأت «الأعيان» (أعيان الأسماء الإلهية) إلى الاسم «الله»، الذى حوّلهم إلى الاسم (الإلهي) «المدبر»، فقام بأمر الحق بمخاطبة الاسم (الإلهي) «الرب» قائلاً له: افعل ما تقتضيه المصلحة فى بقاء أعيان هذه الممكنات. وهكذا قام الاسم (الإلهي) «الرب» بوصفه الاسم «الإمام» باتخاذ الاسم (الإلهي) «المدبر» وزيراً أول، والاسم (الإلهي) «المُفَصِّل» وزيراً ثانياً (يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بقاء ربكم توقنون) فحد الاسم (الإلهي) «الرب» لهم ووضع لهم المراسم لإصلاح المملكة (وليبلوهم أيهم أحسن عملاً) وجعل الله ذلك على قسامين: السياسة الحكيمية (النواميس) وهى عن إلهام من الله ولكن واضعها لا يشعرون، والسياسة الشرعية». (٣٦٠/١ - ٣٦١).

هذا هو الميزان الكونى الشامل «التشريع»، لكنه ككل مرتبة فى نسق ابن عربى الفكرى «ميزان» له جانبان: الثابت والمتغير، أو «الباطن» و«الظاهر»، فهناك الثابت الذى اتفقت عليه كل الشرائع المنزلة من عند الله، وهناك متغيرات الزمان والمكان، كما تعبر عنها الشرائع فى تناليها الزمانى الخلقى. يقول الشيخ: «تتابعت الرسل على اختلاف الأزمان واختلاف الأحوال، وكل واحد منهم يصدق صاحبه. وما اختلفوا قط فى الأصول التى استندوا إليها وعبروا عنها، وإن اختلفت الأحكام. فتنزلت الشرائع ونزلت الأحكام، وكان الحكم بحسب الزمان والحال. قال تعالى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) فاتفقت أصولهم من غير خلاف فى شئ من ذلك. وفرقوا بين هذه السياسات النبوية المشروعة

من عند الله وبين ما وضعت الحكماء من السياسات الحكمية التي اقتضاها نظريهم، وعلموا أن هذا الأمر أتم وأنه من عند الله بلا شك». (٢٦٢/١).

اختلاف الشرائع هو إذن مجرد اختلاف في التفاصيل والأحكام دون الأصول، بل يذهب ابن عربي إلى القول بأن الشرائع الوضعية - السياسات والقوانين - هي في حقيقتها إلهام من الله. وكيف يوجد في الوجود ما لا يتعلق باسم إلهي، علم ذلك من علمه وجهله من جهله؟ إن الشرائع والسياسات والقوانين التي يظن المفكرون والفلاسفة أنها نتيجة نظريهم وفكرهم هي في باطنها وحقيقتها إلهام إلهي. هل نفترض أن اختلاف الشرائع - الوضعية والنبوية - اختلاف في التفاصيل والأحكام دون الأصول؟ لا أعتقد أن ابن عربي يمكن أن يعترض على هذا الاستنتاج، خاصة إذا كنا لا ننازعه الزعم بأن الشرائع النبوية أكمل وأتم. لكن في جميع الأحوال لا بد من تفسير اختلاف الشرائع، سواء كانت نبوية أو وضعية، باختلاف بنية الوجود لاختلاف الأسماء الإلهية في دلالتها. أليس هذا الاختلاف ذاته هو الذي أسس الحاجة للتشريع المنظم؟

مرة أخرى يضعنا ابن عربي داخل دائرة الوجود، أو بالأحرى يجوب بنا على سطح محيطها، حيث لا يهم من أي نقطة تبدأ السياحة لأن النهاية ستعيدك إلى نقطة البدء، فيكون السبب علة ومعلولا في نفس الوقت، وتكون «النتيجة» مقدمة و«المقدمة» نتيجة كذلك، بلا تعارض. من الممكن أن يقال :

١ - إنما اختلفت الشرائع لاختلاف النسب الإلهية: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) ... لو كانت النسبة واحدة من كل وجه، وهي الموجبة للتشريع الخاص، لكان التشريع واحدا من كل وجه .

٢ - إنما اختلفت النسب الإلهية لاختلاف الأحوال (كل يوم هو في شأن)، (سنفرغ لكم أيها الثقلان). فظهرت هذه النسب لاختلاف أحوال الخلق (ويصح عكس القضية فيقال اختلفت أحوال الخلق لاختلاف النسب الإلهية، ولا فرق).

٣ - إنما اختلفت الأحوال لاختلاف الأزمان، واختلاف أحوال الخلق سببه اختلاف الأزمان عليها.

«تأويل الشريعة» -مرة أخرى- إلى فلسفة ابن عريى الشاملة فى الله والوجود والإنسان والمعرفة الخ. إن مفهوم «الشريعة»، كما سنرى، له ثلاثة أبعاد شأنه شأن كل مفردات فكر ابن عريى: البعد الأنطولوجى (الوجودى)، والبعد الإبستمولوجى (المعرفى) والبعد الأنثروبولوجى (الإنسانى). لكن كل بعد من هذه الأبعاد الثلاثة يتضمن فى النسق الدائرى لفكر ابن عريى البعدين الآخرين؛ ومرة أخرى يتحير الباحث بأى الأبعاد يبدأ عرضه وتحليله.

من حيث البعد الأنطولوجى لنقرأ كيف ينظر الشيخ إلى «أصول الشريعة» أو منابعها -وهى الأصول الأربعة كما صاغها علماء الأصول بدءاً من الشافعى وتحددت فى «القرآن» مصدراً أول، و«السنة النبوية» مصدراً ثانياً، يليه «الإجماع» ثم الاجتهاد وفقاً لقانون «القياس»- لنرى كيف يربط بينها وبين رباعية الوجود فى بعده العام من جهة، وبين القواعد الرباعية الفرعية على مستوى الوجود الطبيعى من جهة أخرى. وقد سبق أن بينا فى الفصل السابق كيف يصنف الشيخ مراتب الوجود بدءاً من مستوى البرزخ الأعلى -أو برزخ البرازخ- حتى عالم الكون والفساد، أو عالم ما تحت فلك القمر، على أساس رباعى. وكما يقيم ابن عريى الوجود على أساس نظرية «النكاح» والتوالد ينظر إلى «أصول الشريعة» الأربعة كذلك على أساس أنها تنبنى على أصلين فاعلين وأصلين منفعلين. يقول:

«قال الجنيد علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، وهما الأصلان الفاعلان، والإجماع والقياس إنما يثبتان وتصح دلالتهما بالكتاب والسنة، فهما أصلان فى الحكم منفعلان. فظهرت عن هذه الأربع الحقائق نشأة الأحكام المشروعة التى بالعمل بها تكون السعادة؛ فإن الموجودات ظهرت عن أربع حقائق إلهية وهى: الحياة والعلم والقدرة والإرادة؛ والأجسام ظهرت عن أربع حقائق: حرارة وبرودة ويبوسة ورطوبة (حيث الحرارة والبرودة فاعلان، واليبوسة والرطوبة منفعلان أيضاً). المولدات ظهرت عن أربعة أخلاط: صفراء وسوداء ودم وبلغم» (١٨٠/٢).

٤ - إنما اختلفت الأزمان لاختلاف الحركات، المقصود بالحركات الحركات الفلكية؛ فإنه لاختلاف حركاتها حدث زمان الليل والنهار وتعينت الشهور والسنون.

٥ - إنما اختلفت الحركات لاختلاف التوجهات، التوجهات هي توجه الحق عليها (= الأفلاك) بالإيجاد لقوله تعالى: (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) فلو كان التوجه واحدا عليها لما اختلفت الحركات، وهي مختلفة. قال تعالى: (وكل في فلك يسبحون) فلكل حركة توجه إلهي، أى تعلق خاص من كونه مريداً.

٦ - إنما اختلفت التوجهات لاختلاف المقاصد، فلو كان قصد الحركة القمرية بذلك التوجه عين قصد الحركة الشمسية بذلك التوجه لم يتميز أثر عن أثر. والآثار لا شك مختلفة، فالتوجهات مختلفة لاختلاف المقاصد

٧-إنما اختلفت المقاصد لاختلاف التجليات، لو كانت التجليات فى صورة واحدة من جميع الوجوه لم يصح أن يكون سوى قصد واحد. وقد ثبت اختلاف المقاصد ... فإن الاتساع الإلهي يقضى ألا يتكرر شيء فى الوجود. وهو الذى عوّلت عليه الطائفة، والناس (فى لبس من خلق جديد). يقول أبو طالب المكي فى «قوت القلوب»: إن الله ما تجلى قط فى صورة واحدة لشخصين، ولا فى صورة واحدة مرتين.

٨ - إنما اختلفت التجليات لاختلاف الشرائع؛ فإن كل شريعة طريق موصلة إليه، وهى مختلفة، فلا بد أن تختلف التجليات كما تختلف العطايا (ف١/ ٢٩٥ - ٢٩٦) (انظر أيضاً الفصوص: الفصل الثانى عن العطايا الذاتية والعطايا الأسماوية).

٣ - الشريعة: الأصول والمنابع:

لا ينفصل تأويل الشريعة عند ابن عربى عن نسقه الفلسفى العام، أعنى عن تصوراتهِ للوجود وللإنسان وللمعرفة. ولهذا لا يجب أن يعجب القارئ أن يحيلنا

(أ) الكتاب :

فى مناقشته للأصول الأربعة يضيف ابن عربى لإنجازات علماء الأصول بعدا عرفانيا؛ فالكتاب - مثلا - ليس مجرد كلام الله المنزل على محمد (صلعم) باللغة العربية منجما، بل هو بالإضافة إلى ذلك يتضمن سر ما يمنحه الله للعبد بلا واسطة: ما يكتبه الله فى نفس العبد وما يوحى به إليه فى قلبه، وما يتلفظ به على لسانه. فإلى جانب التشريعات النصية - أى المنصوص عليها فى القرآن - هناك التشريعات القلبية «كما قال تعالى: كتب فى قلوبهم الإيمان؛ فهى كتابة الله، وهو قول الشارع صلى الله عليه وسلم: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». وقوله: استفت قلبك وإن أفثاك المفتون». (ف: ١٨٤/٢) وكأن الشيخ يقول إن قلب المؤمن «كتاب» له قدرة على التشريع بحكم ما كتب الله فيه من «إيمان» من جهة، وبحكم توجيه النبى للمؤمن أن يستفتى قلبه، أى أنه الداخلية، قبل أن يستفتى المفتين، بل وبرغم فتوى المفتين، من جهة أخرى. هكذا يضيف ابن عربى لأصول الشريعة قلب المؤمن فى موازاة للكتاب، أليس «الإنسان» فى النهاية صورة الله؟ وأليس المؤمن هو صورة «الكمال الإلهى»؟ «فهو (= الله سبحانه وتعالى) المؤمن وقد كتب فى قلب عبده الإيمان؛ فأوجب له حكما سُمى به مؤمنا. وليس الاسم غير المسمى؛ فهو الظاهر فى عين الممكن، والممكن له مظهرًا. وكل ظاهر فى مظهر فقد انضم الظاهر إلى المظهر وانضم المظهر إلى الظاهر، ولهذا صح أن يكون مظهرًا للظاهر فيه فهذا سر الأخذ بالكتاب (= قلب المؤمن) دليلا على ثبوت الحكم». (السابق نفسه).

وابن عربى لا يمل من تأكيد بُعد «التقوى» مشيرا بطريقة ضمنية إلى «قلب المؤمن» ودوره التشريعى على النحو التالى: قال تعالى: (واتقوا الله ويعلمكم الله) وقال (إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) وقال (اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم) مثل قوله فى عبده خضر (آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) فجعل إعطاء الله العلم عبده من رحمته. والتقوى عمل مشروع لنا فلا بد أن تكون التقوى نسبة حكمها إلى دليل من هذه الأدلة أو كلها فى أى مسألة يلزمنا فيها تقوى الله

(ف: ٢/١٨٠) هذا عن الأصل الأول - الكتاب - فما هو سر الأصل الثانى من أصول الشريعة، السنة النبوية؟

(ب) السنة النبوية:

السنة فى تعريف الأصوليين هى أقوال النبى صلعم وأفعاله وتقريراته، إى إقراره لفعل من الأفعال وعدم اعتراضه على فاعله. لكن سر «السنة» فى تحليل ابن عربى تعود به إلى المعنى اللغوى الأصلى «الطريق» أو «الصراط». ولأن هناك طريقان «لأن الأمر محصور بين رب وعبد فللرب طريق وللعبد طريق» (ف: ٣/١٦٥) والرب طريقه النزول فى أوصاف الخلق، وطريق العبد الصعود للاتصاف بأوصاف الحق، فإن «السنة» هى طريق العبد للوصول للرب، فى حين أن «الكتاب» هو طريق نزول الرب إلى العبد. ولما كان محمدا هو سر «الكلمة» و«الحقيقة»، بالإضافة إلى «أنه لا ينطق عن الهوى وأن حكمه حكم الله وهو ناقل عن الله ومبلغ عنه بما أراه الله» فإن سنته هى الطريق إلى الله «والطريق لا يراد لنفسه وإنما يراد لغايته» (ف: ٢/١٨٤).

هكذا إذا كان «الكتاب» طريق الرب إلى العبد فإن «السنة» هى طريق العبد إلى الرب، فيلتقى الطريقان؛ لأنهما اثنان فى الظاهر فقط، أما من حيث الحقيقة فهما طريق واحد: «والسنة صراط الله الذى (له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) لأنها - الأمور - على صراطه، وهو غاية صراطه فلا بد للسالك عليه من الوصول إليه فالصراط الوسطة. وبواسطة استعداد المظهر بما هو عليه فى نفسه حكم على الظاهر بما سُمى به؛ فهو أعطاه ذلك الاسم وذلك الحكم صحيح فهذا صراط مستقيم ... فهذا سر استدلاله بالسنة». (السابق نفسه).

(ج) الإجماع :

أما «الإجماع» وهو الأصل الثالث من أصول الشريعة فله بالمثل جانبان: الإجماع بالمعنى الذى يناقشه الفقهاء وعلماء الأصول، أى المعنى العرفى

الظاهر، والإجماع بالمعنى الصوفى، وهو طريق «الجمع» بين العبد والرب. وكما يتأسس حجية الإجماع ومشروعيته عند الأصوليين من الفقهاء على كل من «الكتاب» و«السنة» فإن طريق «الجمع» - أو «الإجماع» بالمعنى الصوفى - هو مجمع بالسنة. ففى المعنى الأول للإجماع يقرر الشيخ تفصيلاً أن مكانة الإجماع تأتى بعد الكتاب والسنة وتستند على أدلتها فى نفس الوقت: «اعلم أن أحكام الشرع المتفق عليها ثلاثة: الكتاب والسنة المتواترة والإجماع. واختلف العلماء فى القياس، فمن قائل بأنه دليل وأنه من أصول الأحكام ومن قائل بمنعه، وبه (=المنع) أقول^(٢). ... القرآن أقوى دليل يُستند إليه، أو ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذى قام الدليل العقلى على صدقه فى أنه مخبر عن الله جميع ما شرعه فى عبيد الله. وقد يكون الخبر إما بإجماع من الصحابة وهو الإجماع، أو من بعضهم بنقل العدل عن العدل، وهو خبر الواحد، وبأى طريق وصل إلينا فنحن متعبدون بالعمل به بلا خلاف بين علماء الرسوم. ولهذا يقول أهل الأصول فى الإجماع أنه لا بد أن يستند إلى نص وإن لم يُنطق به». (السابق نفسه).

جدير بالملاحظة أن «ابن عربى» يحصر مفهوم «الإجماع» فى جيل الصحابة فقط، باعتبار أن إجماعهم على أمر من الأمور لا بد أن يكون مبنياً على نص قولى أو فعلى من سنة النبى، حتى لو لم يكن النص مروياً. وهو بهذا الحصر لا يقول بإجماع العلماء أو الفقهاء، وكيف يقول بحجية إجماعهم وهو لا يفتأ يطلق عليهم اسم «علماء الرسوم» ولا يكف عن نقد منهجهم التكفيرى خاصة حين يتصل الأمر بمعارف الذوق والكشف. ومن جهة أخرى من الصعب أن يتقبل ابن عربى حجية إجماع الفقهاء، وهو صاحب نظرية قدرة العارف على الاتصال بمصدر

(٢) القائلون بمنع «القياس» هم «الظاهرية» أتباع «ابن حزم»، الذى يرى أن القياس قد يصل إلى تحريم شيء لم يحرمه الله تعالى بل سكت الشرع عنه. ويرى أن ما سكت الشرع عنه يجب أن يظل فى دائرة «المباح». ويبدو أن ابن عربى من أتباع المذهب الظاهرى على الأقل فى منع القياس، لكنه لا يصل إلى حد تحريمه كما يذهب ابن حزم. تسامح ابن عربى مع المخالفين صفة لافتة وسنرى فى تحليله لمفهوم القياس تسامحه واضحاً.

التشريع اتصالاً مباشراً، وقدرته من ثم على تصحيح الروايات الضعيفة أو تضعيف الروايات التي تُلقيت على أنها صحيحة كما سنرى عما قليل. كان هذا النقاش عن الإجماع بمعناه الفقهي، أما سر الإجماع فهو: «ما أجمع عليه الرب والمريوب في أن الله خالق والعبد مخلوق. وهكذا كل إضافة فلا خلاف بين الله وبين عباده في مسائل الإضافة أينما وجدت وكذلك في المعلومات من حيث هي معلومات» (ف: ٢/ ١٨٤).

(د) القياس :

ثمة خلاف حول حجية القياس كأداة للاجتهاد في تحديد حكم الشريعة في أمور لم ينزل فيها نص قرآني ولم يرو فيها سنة عن النبي أو إجماع بين الصحابة؛ فقد رفضت «الظاهرية» - وتابعهم ابن عربي في هذا الرافض - أن يكون «القياس» أصلاً من أصول الشريعة. يقول: «القياس ممن ليس بنبي حكم على الله في دين الله بما لا يُعلم؛ فإنه (= القياس) طرد علة وما يدريك لعل الله لا يريد طرد تلك العلة، ولو أرادها لأبان عنها على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بطردها. هذا إذا كانت العلة مما نص الشرع عليها في قضية، فما ظنك بالعلة يستخرجها الفقيه بفقهه ونظره من غير أن يذكرها الشرع بنص معين فيها، ثم بعد استنباطه إياها يطردها، فهذا تحكم بشرع الله لم يأذن به الله.» (ف: ٣/ ٣٧٥).

لكن الفارق بين فقهاء «الظاهرية» وبين ابن عربي أنهم يحرمون القياس تحريماً تاماً، بينما يكتفى ابن عربي بعدم الأخذ به، دون أن يُخطئ الآخذين به. يقول: «وأما القياس فمُخْتَلَفٌ في اتخاذه دليلاً وأصلاً؛ فإن له وجهاً في المعقول: ففي مواضع تزهو قوة الأخذ به على تركه، وفي مواضع لا يظهر ذلك. ومع هذا فما هو دليل مقطوع به؛ فأشبه خبر الأحاد، فإن الاتفاق على الأخذ به مع كونه لا يفيد العلم، وهو أصل من أصول إثبات الأحكام. فليكن القياس مثله إذا كان جليلاً لا يُرتاب فيه. وعندنا - وإن لم نقل به في خفى - فإنى أجاز الحكم به لمن أداه اجتهاده إلى إثباته، أخطأ في ذلك أو أصاب، فإن الشارع أثبت حكم

المجتهد وإن أخطأ، وأنه مأجور. فلو أن المجتهد استند إلى دليل في إثبات القياس من كتاب أو سنة أو إجماع، أو من كل أصل منها، لما حل له أن يحكم به. بل ربما يكون في حكم النظر عند المنصف القياس الجلي أقوى في الدلالة على الحكم من خبر الواحد الصحيح». (ف: ١٨٠/٢ - ١٨١).

هكذا لا يتبنى ابن عريى مفهوما ساكنا ثابتا للقياس يحاكم على أساسه المجتهدين، بل يترك باب الاجتهاد مفتوحا بالقياس، رغم أنه لا يقول به. وبعد أن يشرح أبعاد الخلاف بين المختلفين، ويميز بين القياس الواضح الجلي وبين القياس الخفى الغامض، يؤكد أن العبرة بحق كل مجتهد أنه مكافئ ومثاب، أخطأ في اجتهاده أم أصاب، وأن هذه القاعدة تترك المجال مفتوحا للمختلفين ألا يخطئ أحدهما الآخر، فضلا عن أن يصفه بالكفر والمخالفة لدين الله. ويبلغ دفاع ابن عريى عن «القياس»، رغم أنه لا يقول به ولا يتبنى العمل به، حد إثباته إثباتا عقليا، أى من خلال النظر العقلى الذى بسقوطه تهدد الشريعة ذاتها. فى هذا السياق يبدو ابن عريى الناقد لعقلانية الفلاسفة والمتكلمين معا أشبه بأحد المعتزلة، بل أشبه بابن رشد، لكن علينا ألا ننسى أن السياق هو الذى تطلب من الشيخ أن يوجع أولئك الرافضين رفضا تاما للقياس والمخطئين لكل مجتهد يعتمد عليه. وعلينا أيضا ألا ننسى أن دفاعه المجيد عن «القياس» يتعلق بالقياس الجلي الواضح دون الخفى الغامض. يقول الشيخ:

«والقياس الجلي يشاركنا فيه النظر الصحيح العقلى، وقد كنا أثبتنا ما أثبتنا بالنظر العقلى الذى أمرنا به شرعا فى قوله تعالى: (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض) (أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة)، وفى القرآن من قبل هذا كثير؛ فقد اعتبر الشارع حكم النظر العقلى فى إثبات وجود الله أولا وهو الركن الأعظم، ثم اعتبره فى توحيده وألوهيته؛ فكلفنا النظر فى أنه (لا إله إلا هو) بعقولنا. ثم نظرنا بالدليل العقلى ما يجب لهذا الإله من الأحكام، ثم نظرنا بالنظر العقلى الذى أمرنا به فى تصديق ما جاء به الرسول من عنده إذ كان بشرا مثنا، فنظرنا بالعقول فى آياته وما نصبه دليلا على صدقه فأثبتناه. وهذه كلها أصول لو انهد ركن منها بطلت الشرائع ومستند ثبوتها النظر العقلى،

واعتبره الشارع وأمر به . والقياس نظر عقلي : أتري الحق يبيحه في هذه الأمهات والأركان العظيمة ويججره علينا في مسألة فرعية ما وجدنا لها ذكرا في كتاب ولا سنة ولا إجماع، ونحن نقطع أنه لا بد فيه من حكم إلهي مشروع، وقد انسدت الطرق، فلجأنا إلى أصل، وهو النظر العقلي، واتخذنا قواعد إثبات هذا الأصل كتابا وسنة، فنظرنا في ذلك فأثبتنا القياس أصلا من أصول أدلة الأحكام بهذا القدر من النظر العقلي، حيث كان له حكم في الأصول فقسنا مسكوتا عنه على منطوق به، لعله معقولة، لا يبعد أن تكون مقصودة للشارع تجمع بينهما في مواضع الضرورة إذ لم نجد فيه نصا معينا . فهذا مذهبنا في هذه المسألة . وكل من خطأً عندي مثبت القياس أصلا، أو خطأً مجتهدا في فرع كان أو أصل، فقد أساء الأدب على الشارع، حيث أثبت حكمه والشارع لا يثبت الباطل، فلا بد أن يكون حقا . ويكون نسبة الخطأ إلى ذلك نسبة خطأ دليل المخالف، الذي لم يصح عند هذا المجتهد أن يكون ذلك دليلا . والمخطئ في الشرع واحد لا بعينه؛ فلا بد من الأخذ بقوله ومن قوله إثبات القياس، فقد أمر الشارع بالأخذ به وإن كان خطأ في نفس الأمر؛ فقد تعبد به، فإن للشارع أن يتعبد بما شاء عباده . وهذه طريقة انفردنا بها في علمنا مع أننا لا نقول بالقياس بالنظر إلينا، ونقوله بالنظر إلى من أداه إليه اجتهاده لكون الشارع أثبته . فلو أنصف المخالف لسكت عن النزاع في هذه المسألة؛ فإنها أوضح من أن ينازع فيها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.». (ف: ١٨١/٢).

من الضروري أن نتوقف هنا قليلا لتأمل دلالة هذا الدفاع الحار عن «القياس»؛ إذ من الواضح أن ابن عربي حين يقصر القياس على «الأنبياء»، ويمنع غيرهم منه، يقصد أنبياء التشريع وأنبياء العرفان، المتصوفة أصحاب النبوة المكتسبة. (انظر ف: ٣/٢ - ٤، ٤١٧ - ٤١٨ على سبيل المثال) الدليل على ذلك أن اكتشاف «علة» الحكم الشرعي المنصوص عليه، وطرد هذه العلة بحكمها على واقعة لم يرد فيها نص، يستلزم اتصالا مباشرا بالمشرع لا مجرد الاعتماد على النظر العقلي المجرد . بهذا التفسير يمكن أن نفهم حرص ابن عربي على الدفاع عن أدوات أخرى للاجتهاد إلى جانب «القياس»، مثل «الاستحسان» و«المصالح المرسلة» . بل يصل ابن عربي في دفاعه عن «الاستحسان» إلى محاولة نفى إنكار

الإمام الشافعي للاستحسان الذي كان أستاذه «مالك بن أنس» يأخذ به. ففى رأى الشافعي أن «الاستحسان» رأى يعتمد على الذوق الشخصى، وهو بذلك نوع من التشريع بالتشهى يعنى مشاركة المشرع، وهو أمر يرقى إلى مستوى «الشرك» والعياذ بالله.

فى رأى ابن عربى أن قول الشافعي «من استحسن فقد شرع» قد فهمه الناس فهما خاطئاً على غير مراد الإمام. ما يهمنا هنا ليس ادعاء ابن عربى بأنه الوحيد الذى يحسن فهم قصد الشافعي بقدر ما يهمنا ما يكشف عنه هذا الدفاع عن «الاستحسان» من حقيقة موقف ابن عربى من «القياس» خاصة، ومن قضية «الاجتهاد» بصفة عامة. يقول:

«والسنة طرق الاقتداء، وأعلاها الاقتداء بالحق حتى أكون فى إطلاق أسمائه (= أسماء الحق) على قريباً من التحقق بها لا من التخلُّق. وأدناها (= طرق الاقتداء) فى حق الولي الاقتداء بالذين قال الله فيهم (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده). والعلماء ورثة الأنبياء، وما ورثوا إلا العلم. فالسنة النبوية عالية المقام، وهى الجمعية على الدين وإقامته، وأن لا يُتَرَقَّقَ فيه؛ فهى تعلو بمن يأتيتها ويسلك فيها فى الحضرات المحمدية إلى غايتها فى المعارف والأحوال والتجلى. وأما السنن التى هى الشرائع المستحسنة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الاستحسان عند الفقهاء العلماء، الذى قال فيه الشافعي: من استحسن فقد شرع، فأخذها الفقهاء على جهة الذم، وهو رضى الله عنه أتى بحقيقة مشروعة لم تفهم عنه؛ فإنه كان من الأربعة الأوتاد، وكان قيامه بعلم الشرع حججه عن أهل زمانه ومن بعده (٣) ... ولما صح عند الشافعي أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

(٣) هنا لا يحاول ابن عربى فقط الدفاع عن الشافعي، الذى استحق بجداره لقب «ناصر السنة»؛ لأنها منحها بعدا إلهيا بوصفها وحيا إلهيا، وإن كان على خلاف القرآن وحيا غير لفظي، بل ينزع إلى ضممه إلى قائمة «الأوتاد» فيضيف فى مكان النقط فى النص أعلاه: «روينا عن بعض الصالحين أنه لقي الخضر فقال له: ما تقول فى الشافعي؟ قال (=الخضر) هو من الأوتاد. قال (= السائل) ما تقول فى «أحمد بن حنبل» قال (= الخضر) رجل صديق. قال (= السائل) ما تقول فى بشر الحافي؟ قال (= الخضر): ما ترك بعده مثله. فهذه شهادة الخضر فى الشافعي».

من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها ومن سن سنة سيئة، الحديث، فلاشك أن الشرع قد أباح له أن يسن سنة حسنة، وهى من جملة ما ورث من الأنبياء، وهى حسنة أى استحسنتها الحق فيه، وهو سنّها، فمن استحسنت أى سن سنة حسنة فقد شرّع. ويا عجباً من عدم فهم الناس كلام الشافعى فى هذا وهم يثبتون حكم المجتهد وإن أخطأ فى نفس الأمر كأبى يوسف فإنه أجاز لهارون الرشيد الخليفة طلاق المكره، ولم يقل به أحد من الأئمة المجتهدين^(٤)، وقد أقره الشارع وهو حكم شرعى مقبول لا يحل لأحد من الحكام رده، وقواعد الشرع وأصوله تحفظه. وكالمصالح المرسلّة فى مذهب مالك، وما قرر الشرع حكمها مجملاً وأبان أن واضعها ومتبعيه فيها مأجورون ونهاية التابعين فيها إلى واضعها على قدره وعلى قدر ما سن. نبهتكم على هذا لأن تكون أوقاتكم كلها معمورة بالشرائع النبوية والسنن الأصلية؛ فإن الكيس ينبغى أن لا يكون غاية عمله إلا نبوة أصلية لا فرعية». (ف: ١٨٧/٢).

وللقياس - بعد هذا النقاش الفقهي المستفيض والدفاع العقلانى المنير لكل أدوات الاجتهاد ومتافذه - سره عند من مثبته، سر يكشفه ابن عربى الذى لا يثبت القياس كما رأينا: «وأما القياس عند مثبته فهو ظهور رب بصفة عبد، وظهور عبد بصفة رب، عن أمر رب. فإن لم يكن عن أمر رب فلا يُتخذ دليلاً على حكم. أو (= يكون الظهور) عن حميد خلق كريم؛ فإنه يُتخذ دليلاً. وأما ظهور رب بصفة مريب فلا يُشترط فيه الأمر الواجب، ولكن قد يكون عن دعاء وطلب وصيغة الأمر والمعنى مختلف. وإن كان هذا مسموعاً مُمتثلًا والآخر كذلك، ولكن بينهما فرقان. فهذا حكم سر القياس فى الاستدلال وهو قياس الشاهد على الغائب بحكم معقول جامع بين الشاهد والغائب، ويُنسب لكل واحد

(٤) قضية «طلاق المكره» من القضايا الشرعية التى كان لها مغزى سياسى عند الفقهاء الأوائل، فيقال أن الإمام «مالك بن أنس» حين أفتى بعدم جواز وقوع «الطلاق» بالإكراه، كان ذلك الحكم فى جوهره يعنى إعطاء مبرر شرعى للتوصل من بيعة خلفاء بنى أمية - وبالتالي جواز الثورة ضد سلطتهم - لأن البيعة وقعت تحت التهديد والإكراه. ومن الواضح أن «أبا يوسف» تلميذ الإمام «أبى حنيفة» هو الذى خرق الإجماع وأباح طلاق المكره فى عصر الخليفة العباسى هارون الرشيد.

من المنسوبين إليه بحسب ما يليق بجلاله. وإنما قلنا بجلاله؛ لأن الجليل من الأضداد يطلق على العظيم وعلى الحقير». (ف: ١٨٤/٢ - ١٨٥).

فى هذا الكشف عن سر القياس يخوض ابن عربى فى بحار صعبة، خاض فيها كثيرون قبله لعل من أشهرهم «الحلاج» و«البسطامى» و«الفري» وابن عربى يورد كثيرا أقوالهم شارحا وموضحا أحيانا وناقدا أحيانا أخرى. وقبل أن نحاول ملامسة شاطئ بحر ابن عربى نبين حرص الشيخ الأكبر على أن القياس المعتمد به عنده، والذي يكشف لنا عن سره، ليس هو القياس الذى يكون فى «العالم المشهود» أصلا يُقاس عليه «عالم الغيب» وهو «قياس الغائب على الشاهد» عند المتكلمين. إن قياس ابن عربى يقوم على بنية عكسية يكون فيها «عالم الغيب» أصلا يقاس عليه «عالم الشهادة» فهو «قياس الشاهد على الغائب». ولأن القياس الفقهي يعتمد على بنية شبيهة ببنية القياس عند المتكلمين، من حيث أنه يقيس أمر «مسكوتا عنه» فى الحكم على أمر «منطوق بحكمه»، فهو أيضا ليس القياس المعتمد عند شيخنا. فى الكشف عن سر هذا القياس، الذى هو ظهور الرب بصفة العبد، وظهور العبد بصفة الرب، فقد يبدو ما يرويه ابن عربى من قول «الفري» فى مواقفه - موقف السواء - ملائما لبيان صعوبة المقارنة بين العبد والرب دون إدراك المفارقة، أو ما يسميه ابن عربى الفرقان. يقول ابن عربى: «وهذا المنزل منزل شامخ صعب المرتقى، ولهذا سُميَ «عقبة» وأضيف إلى «السويق»، لعدم ثبوت الأقدام فيها لأنها مزلة الأقدام، فلا يقطعها إلا رجل كامل من رسول ونبي وارث كامل. وهذا هو المنزل الذى سماه النضرى فى مواقفه (موقف السواء) لظهور العبد فيه بصورة الحق. فإن لم يمن الله على هذا العبد بالعصمة والحفظ ويثبت قدمه فى هذه العقبة بأن يُبقى عليه شهود عبوديته بما رأى عليه نفسه من صورة الحق ورأى الحق فى صورة عبوديته، وانعكس عليه الأمر وهو مشهد صعب». (ف: ١٦٥/٣).

وحالة «الحلاج» الذى صرح بما لا يصح التصريح به شعرا وناله ما ناله بسبب تلك المنزل الصعبة والمرقى المستحيل يجد من ابن عربى مدافعا مجيدا، يقرأ فى أقواله «الفرقان» و«التميز» بين نفسه وبين محبوبه، وهى قراءة

للحلاج ينفرد بها ابن عربى وتناسب مقام تأويل الشريعة، لأنها تتحدث عن معنى «الحدود» التى أمر الله الناس ألا يتعدوها. يقول ابن عربى: «واعلم أن الحدود الموضوعه فى العالم - أعنى الحدود المشروعة التى أمرنا الحق أن لا نتعدها ثم شرع لنا حدودا تقام علينا إذا تعديناها - كل ذلك لنعرف أن الأمر حُدَّ كله فينا فينا وفيه دنيا وآخرة؛ لأن بالحدود يقع التمييز، وبالتمييز يكون العلم، فلو لا الفرقان لما تميزت عين عن عين ولا كان ثم علم بشئ أصلا. وقد تميز لنا ربنا وعنا، كما تميزنا له به وعنه، فعرفنا من نحن ومن هو؛ فإن علينا حالا يقول ذلك الحال بلسانه:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

فيكفيه من قوة أثر الحدود أن فرَّق بين «أنا» وبين «من أهوى». ولأنه يهوى نفسه فحاله يهوى كونه يهوى، وهو الفاعل ما هو عين حالة تهوى، وهو المفعول. فبيَّنت الحدود الأحوال كما بينت الأعيان. وهذا أعظم ما تصل إليه العبارة فى أحدية العين. ولم يقدر على أن يوحد الحال ولا ذلك بممكن أصلا. وفى باب العلم الله أوصل ما يكون الأمر وأعظم فى الأحدية يكون وجود العالم عين وجود الحق لا غيره. ومعلوم اختلاف بين العالم واختلاف الأسماء الإلهية، ولا معنى للاختلاف الواقع إلا العلم بأنه لولا الحدود لما كان التمييز، وإن كان الوجود عينا واحدة، وهو الوجود الحق، فالموجودات والمعقولات مختلفة». (ف: ١٦٠/٤).

هل يمكن الحديث بعد ذلك كله عن «القياس» بالمعنى الصوفى العميق؟ نعم ولا، يمكن ولا يمكن! وهذا يدخلنا منطقة المسموح التصريح به والممنوع. يقول الشيخ مميزا بين المجالين فى قالبه السردى الأثير عن الأصل والفرع، وهما مجال القياس: «ذكرنا فى كتاب المشاهد القدسية أنه (=الحق) قال لى: أنت الأصل وأنا الفرع على وجوه منها علمه بنا منا (=العلم الإلهى فرع) لا منه؛ فانظر فإن هنا سرا غامضا جدا. وهو (=العلم الإلهى) عند أكثر النظائر منه لا منا (=أصل لا فرع) أوقعهم فى ذلك حدوثا. والكشف يعطى ما ذكرناه، وهو الحق الذى لا يسعنا جهله. ولما سألنى عن هذه اللفظة مفتى الحجاز، أبو عبد الله محمد بن أبى الصيف اليمنى نزيل مكة، ذكرت له أن علمنا به فرع من علمنا

بنا إذ نحن عين الدليل، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من عرف نفسه فقد عرف ربه، كما أن وجودنا فرع عن وجوده، ووجوده أصل؛ فهو أصل في وجودنا فرع في علمنا به، وهو من مدلول هذه اللفظة. فسر بذلك رحمه الله في ذلك المجلس؛ لأنه (= هذا الشرح) ما يحتمله ولا يقدر ينكره، وما ثم ذلك الإيمان القوى عنده، ولا العلم ولا النظر السليم. فكان يحار فأبرزنا له من الوجوه ما يلائم مزاج عقله وهو صحيح؛ فإن ما ثم وجه إلا وهو صحيح في الحق، وليس الفضل إلا العثور على ذلك». (ف: ٤/١٦١ - ١٦٢).

٤ - تأويل الفروع، العبادات:

يحتل تأويل الشريعة من حيث المساحة في كتاب الفتوحات وحده حوالى الثمن تقريباً، فهو يقع في أكثر من ٤٥٠ صفحة من صفحات المجلد الأول البالغ عددها ٨٠٠ صفحة. وهو يحتل من حيث عدد الأبواب ستة أبواب من الفصل الأول (المعارف)، لكنها أبواب طويلة إذا قورنت بغيرها، ولهذا تحتل هذه المساحة الواسعة من صفحات الكتاب. هذا بالإضافة إلى تناول ابن عربى لموضوع تأويل الشريعة في كثير من الكتب الأخرى، بعض هذه الكتب أحال إليها في الفتوحات، مثل إحالته في تأويل «الطهارة» مثلاً إلى كتابي «التزلات الموصلية» و«مواقع النجوم». أما كون تأويل الشريعة في كتاب الفتوحات مبنياً على ستة فصول فلأنه، أولاً، لا يتناول من الشريعة إلا جانب «العبادات» دون «المعاملات» والعبادات خمسة يختص كل منها بباب، يتقدم الأبواب الخمسة باب تمهيدى «في معرفة سر الشريعة ظاهراً وباطناً» وهو الباب السادس والستين. أما الأبواب الخمسة فتتناول أركان الإسلام الخمسة كما وردت في الأثر: «قام الإسلام على خمس»؛ فباب للشهادة، وباب للصلاة، وباب للصيام، وباب للزكاة، وباب للحج.

ومن الطبيعى أن يرى الشيخ أن كل ما كتبه عن الشريعة وتأويلها لم يكن فيه الكفاية، فهو حين يكشف للقارئ عن حدود المدى الذى سيتناوله بالتأويل من أحكام الشريعة في «الفتوحات»، يعبر عن عزمه على كتابة أكثر تفصيلاً في الموضوع فيما يستقبل من أيامه: «وكان في نفسى إن آخر الله في عمري أن

أضع كتابا كبيرا أذكر فيه مسائل الشرع كلها كما وردت في أماكنها الظاهرة وأقررها،^(٥) فإذا استوفينا المسألة المشروعة في ظاهر الحكم جعلنا إلى جانبها حكمها في باطن الإنسان؛ فيسرى حكم الشرع في الظاهر والباطن، فإن أهل طريق الله وإن كان هذا غرضهم ومقصدهم لكن ما كل أحد يفتح الله له في الفهم حتى يعرف ميزان ذلك الحكم في باطنه. فقصدت في هذا الكتاب إلى الأمر العام من العبادات وهي الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والتلفظ بلا إله إلا الله محمد رسول الله؛ لكونها من قواعد الإسلام التي بُنِيَ عليها الإسلام». (١/٣٧٣).

والصورة التي يطرحها الشيخ للإسلام هي صورة «البيت»، البيت الذي مدخله «الإيمان»، وهذا المدخل مكون من ضفتين أو مصراعين: شهادة أن «لا إله إلا الله»، والصفة الأخرى شهادة أن «محمدًا رسول الله». أما أركان البيت الأربعة وأعمدته الأساسية فهي: الصلاة والزكاة والصوم والحج: «فالإيمان هو عين البيت ومجموعه، وباب البيت الذي يُدخَل منه إليه له مصراعان وهما التلفظ بالشهادتين، وأركان البيت أربعة: وهي الصلاة والزكاة والصيام والحج. فجردنا العناية في إقامة هذا البيت لنسكن فيه ويقينا من زمهرير نفْس جهنم وحرورها ... ويكفي في هذا الكتاب هذا القدر من العبادات. فأتتبع مسائل أمهات كل باب منها وأقررها بالحكم الكلي باسمها في الظاهر، ثم أنتقل إلى حكم تلك المسألة بعينه في الباطن إلى أن أفرغ منها والله يؤيد ويعين» (السابق نفسه).

إذا كانت الإسلام - في النص السابق - هو «بيت الإيمان»، فلاشك أن صورة «الكمبة» هي التمثيل الرمزي له؛ حيث تمثل «الشهادتان» الباب بضفتيه، صفة التوحيد (لا إله إلا الله) صفة الإسلام (محمد رسول الله)، كما تمثل الصلاة والزكاة والصيام والحج أركانه الأربعة. وفي نص آخر يقارن الشيخ بين أركان الإسلام وعباداته وبين نظام جيش الملك أو ترتيب حجاب المملكة، ولاشك أن المقصود بالملك أو المملكة هنا «مملكة الله». في هذه المملكة تمثل الشهادتان

(٥) لعله كان في ضمير الشيخ أن يكتب كتابا على غرار كتاب ابن رشد «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»، ولكن من منظور الصوفي الباحث عن الدلالات والمعاني الروحية.

«حاجبى» الباب، وتمثل الصلاة الميمنة فى حين تمثل الزكاة الميسرة. تتواصل البنية الرمزية ليحتل «الصيام» المقدمة، ويكون مقام الحج الساقية، أو الخلف. ويمكن أن يحدث تبادل للمواقع، فتحل الصلاة المقدمة، وتصبح الزكاة فى الميمنة، فى حين يحتل الحج الميسرة، ويكون للصيام مكان الساقية. هذا بالإضافة إلى أن «أهل الله» يمكن تصنيفهم أيضا على أساس نفس التقسيم الخماسى: أهل «لا إله إلا الله» وأهل الصلاة وأهل الزكاة وأهل الحج وأهل الساقية. (انظر: ١/٣٦٥).

ومعنى هذه التقسيمات والتصنيفات أن الظواهر يمكن بصفة عامة أن تندرج فى تصنيفات شتى وفقا للزاوية والمنظور المعرفى. وكل التصنيفات ممكنة لأن الوجود ليس خطا أفقيا أو خطا رأسيا ولكنه دائرة منشؤها أن نقطتى البداية والنهاية هما فى الحقيقة نقطة واحدة، منها خرج العالم من حالة «الوجود العدمى» إلى حالة «الوجود الظاهرى»، ثم إليه تعالى يكون المصير.

١. لا إله إلا الله

هناك تمييز واضح عند ابن عربى بين «العلم» بالتوحيد و«الإيمان» بالتوحيد من جهة، وبين «التلفظ» به من جهة أخرى. «العلم» بالتوحيد لا يتوقف فيما يبدو على إرسال الرسل والأنبياء، بل هو تجربة روحية تخترق طبقات الوجود الظاهر وتتواصل - أو يتواصل صاحبها - مع باطن الوجود وروحه. ربما تكون تجربة «حى بن يقظان»، التى كتبها ثلاثة من الفلاسفة المسلمين، آخرهم «ابن طفيل» الأندلسى، وأستاذ ابن رشد، نموذجا لهذا التصور. لقد «علم» حى بن يقظان من خلال تجربته الروحية الشخصية بوحداية الواحد. من هنا وفى هذا السياق يمكن أن نفهم هذا التمييز بين «العلم» و«الإيمان» عند الشيخ. لكن الشيخ حريص على أن يؤسس هذا التمييز تأسيسا قرآنيا، وهو من ثم يعتمد على تأويل الآية القرآنية: (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم):

«وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصحيح: من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة، ولم يقل هنا: يؤمن؛ فإن الإيمان موقوف على الخبر. (ف: ٣٦٣/١) ويقول أيضا: «فإذا قال العالم: لا إله إلا الله لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم قل لا إله إلا الله سُمِّيَ مؤمنا. فمن مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة بلا شك ولا ريب، وهذا من السعداء. فأما من كان فى الفترات فيبعثه الله أمة وحده كقس بن ساعدة». (ف: ٣٦٤/١).

هذا التمييز بين العلم والإيمان يقابله طرف آخر هو «توحيد التلطف»، أى النطق بالشهادة، وهو التوحيد الذى يعصم من العقاب الدنيوى، أى محاربة الرسول لغير المؤمن. لكن هذا «التوحيد» اللسانى لا مرجعية له يوم تبلى السرائر، أى يوم ينكشف المستور ويصبح ما كان باطنا ظاهرا على مستوى الوجود وعلى مستوى النفوس ولا فرق. إنه يوم الحساب حيث الفعلية إما لتوحيد «العلم» أو لتوحيد «الإيمان» ولا اعتبار لتوحيد «التلفظ». يواصل ابن عربى القول: «فإذا جاء الرسول وبين يديه العلماء بالله وغير العلماء بالله وقال للجميع قولوا: لا إله إلا الله» علمنا على القطع أنه صلى الله عليه وسلم فى ذلك القول مُعَلِّمٌ لمن لا علم له بتوحيد الله من المشركين، وعلمنا أنه فى ذلك القول أيضا مُعَلِّمٌ للعلماء بالله وتوحيده أن التلَفُظ به واجب وأنه العاصم من سفك دمائهم. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله. ولم يقل حتى يعلموا فإن فيهم العلماء. فالحكم هنا للقول لا للعلم والحكم يوم تبلى السرائر للعلم لا للقول». (ف: ٣٦٥/١).

لكن ثمة آفاقا أعمق فى مناقشة الشيخ لقضية التوحيد ومستوياته يتعرض لها فى سياقات أخرى، ويكفيها الآن الإشارة إلى تمييزه بين «التوحيد» و«الأحدية»، حيث التوحيد هو مستوى مرتبة الألوهة، أو جمعية الأسماء التى يعبر عنها الاسم «الله» كما سلفت الإشارة. والأحدية من جهة أخرى هى مرتبة «الذات» المطلقة المستغنية عن العالم، السابجة فى بحر «العلماء» فلا تتعلق بها

معرفة ولا يلامسها إدراك، ولا تتمتع إلا بصفة الوجود المطلق الذى لا بشرط شىء . وهذا مستوى أشبعناه فى الفصول السابقة

٢ - الطهارة :

الطهارة مدخل كل عبادة، وهى من الوجهة الشرعية طهارة من «النجس»، وإذا كان الشرك بالله يمثل نوعا من النجاسة . بحسب القرآن (إنما المشركون نجس) فلا شك أن شهادة التوحيد (لا إله إلا الله) تمثل طهارة الاعتقاد . ومن الطبيعى أن نتوقع من ابن عربى أن يميز بين الطهارة الحسية . الاغتسال والوضوء . وبين الدلالة المعنوية للطهارة، التى هى: «صفة تنزيه، وهى معنوية وحسية، طهارة قلب وطهارة أعضاء معينة . فالمعنوية طهارة النفس من سفاسف الأخلاق ومذمومها، وطهارة العقل من دنس الأفكار والشبه، وطهارة السر من النظر إلى الأغيار وطهارة الأعضاء متعددة إذ لكل عضو طهارة معنوية ذكرناها فى كتاب التنزلات الموصلية فى أبواب الطهارة منه». (ف / ١ / ٣٦٨).

وفى الحديث عن أعضاء الإنسان يحصرها ابن عربى فى ثمانية، ويرى أن كل عضو من أعضاء الإنسان كائن مكلف بعباداته الخاصة، ومن مجموع هذه العبادات يتشكل عمل الإنسان الفرد . إن ابن عربى من منظور قرأنى واضح . حيث تشهد الأعضاء على الإنسان يوم القيامة بالصالح أو بعدم الصلاح- ينظر للأعضاء بوصفها كائنات، كما الحروف التى هى أمم مثل كافة الأمم، يتعين عليها أداء ما عليها من التكاليف . لكن لأنها جميعا . الأعضاء . تحت تصرف الإنسان، فهو الذى يوجهها إلى الطاعة أو يوجهها إلى العصيان، فإن المسئولية النهائية تقع على عاتق الإنسان، وتظل الأعضاء شاهدة تشهد له أو تشهد عليه . وابن عربى يحيل إلى كتابين له فصل فيهما مسائل الطهارة وتكليف الأعضاء . وقد استوفينا الكلام على هذه الطهارة فى «التنزلات الموصلية» فانظرها هنالك نشرًا ونظمًا . وقد رميت بك على الطريق . ولتصرف هذه الطهارة بكمالها فى كل مكلف منك، فإن كل مكلف منك مأمور بجميع العبادات كلها من طهور وصلاة وزكاة وصيام وحج وغير ذلك من الأعمال المشروعة . وكل مكلف منك تصرفه

فى هذه العبادات بحسب ما تطلبه حقيقته، (لا يكلف الله نفس إلا ما أتاها) وقد (أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) أى بين كيف يستكملها فيها وهى ثمانية أصناف لا تزيد لكن تنقص فى بعض الأشخاص، وهى: العين والأذن واللسان واليد والبطن والفرج والرجل والقلب لا زائد فى الإنسان عليها، لكن تنقص فى بعض الأشخاص... ومن خطاب الشارع تعلم جميع ما يتعلق بكل عضو من هؤلاء الأعضاء من التكاليف. وهم كالآلة للنفس المخاطبة المكلفة بتدبير هذا البدن، وأنت المسئول عنهم فى إقامة العدل فيهم... وقد بينها بكمالها وما لها من الكرامات والأنوار والمنازل والأسرار فى كتابنا المسمى «مواقع النجوم». وما سبقت فى علمى فى هذا الطريق إلى ترتيبه أصلا. وقيدته فى أحد عشر يوما من شهر رمضان بمدينة المرية سنة خمس وتسعين وخمسمائة. وهو يغنى عن الأستاذ، بل الأستاذ محتاج إليه، فإن الأستاذ فيهم العالى والأعلى. وهذا الكتاب على أعلى مقام يكون الأستاذ عليه، ليس وراءه مقام فى هذه الشريعة التى تعبدنا بها. فمن حصل لديه فليعتمد بتوفيق الله عليه؛ فإنه عظيم المنفعة. وما حملنى على أنى أعرف بمنزلته إلا أنى رأيت الحق فى النوم مرتين وهو يقول لى: «انصح عبادى»، وهذا من أكبر نصيحة نصحتك به والله الموفق وبيده الهداية». (ف/١/٣٧٢).

٣- الصلاة :

إذا كانت الطهارة مدخل العبادة، فإن الصلاة هى مخ العبادة، سواء بمعناها اللغوى - الدعاء - أو بمعناها الاصطلاحي. والصلاة فى الإسلام - كما فى كل الأديان - هى حالة «تواصل» بين الإنسان وخالقه، تبدأ بالطهارة استعدادا لهذا اللقاء ثم تستفتح بالتكبير (الله أكبر) دخولا إلى الحرم الإلهى، يليها قراءة أم الكتاب، وهى وإن كانت سورة من سور القرآن - كلام الله - إلا أنها كلها تعبير إنسانيا يكون «الله» فيه هو المخاطب. وكما سنتابع مع ابن عربى فإن الاستجابة الإلهية لدعاء «أم الكتاب» تكون استجابة خفية. والأمر مشروح فى حديث قدسى، يقول فيه النبى إن الله يقول: قسمت الفاتحة بينى وبين عبدى، فإذا قرأ العبد «الحمد لله رب العالمين» يقول الله «حمدنى عبدى»، وإذا قال العبد

«الرحمن الرحيم» يقول الله «أثنى على عبدي»، وإذا قال العبد «مالك يوم الدين» يقول الله «مجدنى عبدي»، وإذا قال العبد «إياك نعبد وإياك نستعين»، قال الله «هذه بينى وبين عبدي». فإذا قال العبد «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين» قال الله «هذه لعبدي ولعبدى ما سأل». هذا التواصل يتعمق من خلال الركوع والسجود الذى يتكرر حسب ركعات الصلاة. فإذا حسبنا عدد الركعات فى الصلوات الخمس المفروضة لوجدنا أن عملية التواصل تلك تحدث سبع عشرة مرة فى اليوم، وتزايد كلما زاد المؤمن من نوافله، أى الصلاة غير المفروضة .

وابن عربى بالإضافة إلى المعنى العرفى الاصطلاحي للصلاة - صلاة الإنسان - يعدد أنواعا أخرى اعتمادا على الاستخدام القرآنى لكلمة «صلاة»، حين تضاف إلى الله وحين تضاف إلى الملائكة. فهى بمعنى «الرحمة» وذلك حين تضاف الصلاة إلى الحق: (هو الذى يصلى عليكم) أى يرحمكم بأن يخرجكم من الظلمات إلى النور (أى من ظلمات العدم إلى نور الوجود) يقول من الضلالة إلى الهدى ومن الشقاء إلى السعادة. «وهى تعنى طلب «الرحمة والاستغفار والدعاء للمؤمنين»، حين تضاف للملائكة: (هو الذى يصلى عليكم وملائكته) ويستغفرون للذين آمنوا يقولون: (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم وقهم السيئات) «والمعنى الثالث هو المعنى الكونى، التسبيح «حين تضاف إلى كل ما سوى الله من ملك وإنسان وحيوان ونبات وجماد: (ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات ومن فى الأرض) (ومن الطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه).

وحين يتحدث الشيخ عن الصلوات المشروعة يعتبر الصلوات الخمس وحدة قائمة بذاتها: «فالصلوات المشروعة ثمان هى الصلوات الخمس والوتر، وهو صلاة الليل، وصلاة الجمعة، والعيدى، والكسوف، والاستسقاء، والاستخارة، وصلاة الجنائز. كما أن الأعضاء المكلفة من الإنسان ثمانية: لأن الذات مع نسيها ثمانية: الذات والصفات السبع. وأما الأعضاء فالسمع والبصر واللسان واليد والبطن والفرج والرجل والقلب. انتهى». (٤٧٢/١).

رأينا أن صلاة الله التى بمعنى الرحمة، تعنى عند ابن عربى الرحمة بنقل
الممكنات من حالة العدم إلى حالة الوجود، إنها الرحمة الكونية، وبالمثل تتحدد
الصلوات بأنها ثمانية توازيا مع عدد الأعضاء المكلفة فى الإنسان من جهة،
وتوازيا مع مجموع الذات الإلهية وصفاتها السبعة .

ستر العورة :

من شروط صحة الصلاة إلى جانب الطهارة ضرورة ستر العورة، ولعلنا
نضيف هنا أن ظهور العورة للإنسان أى ظهورها لوعيه وإدراكه ارتبط فى السرد
القرآنى بمعصية آدم وحواء حين أكلا من الشجرة التى حرم الله عليهم الأكل من
ثمرها . فحين أكلا من الشجرة المحرمة (بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان
عليهما من ورق الجنة) حسب التعبير القرآنى . من هنا يستمد ستر العورة أهميته
فى الصلاة، التى يمكن أن توازى «كلمات الرب» التى تلقاها آدم فحررته من
الخطيئة بأن «تاب» الله عليه . لكن تأويل ابن عربى للعورة تعنى ستر السر
الإلهى . يقول: «اتفق العلماء على أن ستر العورة فرض بلا خلاف وعلى الإطلاق،
أعنى فى الصلاة وفى غيرها . الاعتبار : يجب على كل عاقل ستر السر الإلهى
الذى إذا كُشف أدى عند من ليس بعالم ولا عاقل إلى عدم احترام الجنب الإلهى
الأعز الأحمى ... والاعتبار (=فى ستر العورة فى الصلاة) ... ثبت أن المصلى
يناجى ربه وأن الصلاة منقسمة قسمين بين الله وبين عبده» . (٤٤٦/١) .

أى أن ثمة اعتباران - أى تأويلان - لستر العورة :الستر العام، ستر السر
الإلهى، والستر الخاص فى الصلاة، ستر المناجاة بين العبد والرب، وفى
المناجاة يلتقى الطرفان ولو بعين الخيال كما ورد فى الحديث النبوى: «اعبد الله
كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وعند الشيخ الأكبر فإن سر العارف يكمن
فى إدراكه كشفا لله فى قبلته، كما قال الرسول أيضا: «الله فى قبلة المصلى» .
لكن لستر العورة عند المرأة بعدا آخر . وإذا كان الفقهاء قد اختلفوا فى تحديد
عورة المرأة فمن قائل «إنها كلها عورة ما خلا الوجه والكفين . ومن قائل بذلك
وزاد أن قدمها ليس بعورة . ومن قائل إن كلها عورة»، فابن عربى يرى أنها العورة

فى المرأة السوءتان فقط مثلها مثل الرجل، لكنه يضيف: «وإن أمرت المرأة بالستر فهو مذهبنا، ولكن لا من كونها عورة، وإنما ذلك حكم شرعى ورد بالستر ولا يلزم أن يُستر الشيء لأنه عورة.» وحين يتجاوز الخلاف الفقهي إلى التأويل بالاعتبار يرى أن «المرأة هى النفس، والخواطر النفسية كلها عورة، فمن استشى الوجه والكفين والقدمين فلأن الوجه محل العلم، لأن المسألة إذا لم تعرف على وجهها فما علمتها. وإذا استتر عنك وجه الشيء فما علمته، وأنت مأمور بالعلم بالشيء فأنت مأمور بالكشف عن وجه ما أنت به مأمور، فلا يستر الوجه فإنه ليس بعورة. وأما اليدين وهما الكفان فهما محل الجود والعطاء، وأنت مأمور بالسؤال فلا بد للسائل أن يمد يده بالسؤال، كما لا بد للمعطى أن يمد يده بما يعطى فلا يستر كفه ... وأما القدمان فلا يجب سترهما، فإنهما ليستا بعورة لأنهما الحاملتان للبدن كله وناقلاته من مكان إلى مكان. ومن حكمه التصريف والتصرف يتعذر احتجابه، فلا بد أن يظهر ويبرز ضرورة، فبعد أن يكون عورة تستر». (٤٤٦/١ - ٤٤٧).

هكذا تتحدد معانى «الوجه» و«الكفين» و«القدمين» بأن الوجه لا يُستر؛ لأنه «محل العلم»، وكذلك اليدين؛ فهما محل الجود والعطاء. ولا تستر القدمان أيضا لأنهما الحاملتان للجسد والمحركان له. وباختصار فإن عورة المرأة - بالحقيقة أو بالاعتبار- لا تشمل الوجه والكفين ولا القدمين. فمأذا عن جواز أن تكون المرأة إماما فى الصلاة؟ من الناس من أجاز إمامة المرأة على الإطلاق بالرجال والنساء وبه أقول. ومن الناس من منع إمامتها على الإطلاق، ومنهم من أجاز إمامتها بالنساء دون الرجال. الاعتبار: شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض النساء بالكمال. كما شهد لبعض الرجال، وإن كانوا أكثر من النساء. بالكمال وهو النبوة. والنبوة إمامة فصحت إمامة المرأة. والأصل إجازة إمامتها فمن ادعى منع ذلك من غير دليل فلا يُسمع له، ولا نص للمانع فى ذلك. وحجته فى منع ذلك يُدخل معه فيشترك ويشرك فتسقط الحجة فيبقى الأصل إمامتها. واعلم أن الإنسان عالم فى نفسه كبير، ولهذا يقول العبد: إياك نعبد وإياك نستعين بنون الجمع. وجعل جوارحه وقواه الظاهرة والباطنة منقادا لما يحكم

فيها المقدمون عليها وهو: العقل والنفس والهوى. وكل واحد منهم قد يؤم الجماعة في وقت ما، فالطاعة كلها المقربة للعقل، والمباحات للنفس، والمخالفات للهوى. وقد قيل للعقل إذا سئمت النفس من اتباعك في الأمور المُقَرَّبَةِ واقتدائها بك في وقت إمامتك وتقدمت هي في المباحات وأمت بك فاتَّبِعها وصلَّ خلفها حافظا لها لئلا يخدعها الهوى، فإن الهوى يتبعها في ذلك الحال عسى أن يوقعها في محذور. ففى مثل هذا الموطن تجوز إمامة النفس، وهى إمامة المرأة. فإمامة العقل بمنزلة إمامة الرجل المسلم البالغ العالم الولد الحلال، وإمامة الهوى بمنزلة إمامة المنافق والكافر والفاسق، وإمامة النفس بمنزلة إمامة المرأة. انتهى». (٤٨١/١).

يبدو موقف ابن عربى من مسألة إمامة المرأة متقدما جدا إذا قورن بالآراء الفقهية الشائعة، فابن عربى يرى أنها يجوز أن تؤم الرجال والنساء على السواء. هذا موقفه المبدئى، وعلى أساسه يرى أن يمنعون إمامتها مطلقا، أو من يقصرون جواز إمامتها على النساء دون الرجال، لا يعتمدون على دليل شرعى فى المنع. ولكنه على مستوى الاعتبار يقيم موازنة بين «الرجل والعقل» وبين «المرأة والنفس»، وهى موازنة قد تشى بأن المرأة أدنى من الرجل. ولا يمكن أن نتوقع من ابن عربى أن يخرق كل المحرمات الاجتماعية فى عصره وتاريخه وثقافته؛ خاصة ونحن نعلم أن تحقيق المساواة الكاملة والندية المطلقة بين الرجل والمرأة ما زالت إحدى مشكلات الثقافة الإسلامية المعاصرة. هذا فضلا عن أنها مشكلة بدرجات متفاوتة من الحدة والقوة فى المجتمعات المعاصرة، المتقدمة والمتخلفة على السواء. ربما نتلمس الندية فى نظرية ابن عربى عن «النكاح الوجودى» حيث يعتمد انبثاق مراتب الوجود كما سبق التحليل فى الفصل الخامس على التقاء عنصرى الذكورة والأنوثة. يمثل العقل الأول عنصر الذكورة، وتمثل النفس الكلية عنصر الأنوثة، وعن تناكحهما انبثق الجسم الكل، أو العرش. على هذا المستوى فقط تتأكد الندية والمساواة.

يستبين هذا التفاوت بين الندية الكونية وعدم التكافؤ الاجتماعى بين الرجل والمرأة حين يتحدث ابن عربى عن مواقيت الصلاة، حيث تتحدد درجة كمال

المرأة فى حقيقة كونها تابعا للرجل وملحقا به: «اعلم أن الله ربط إقامة الصلاة بأزمان وهى الأوقات المفروض فيها إقامة الصلوات المفروضات، فقال تعالى: (وأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) وربطها بأماكن وهى المساجد، قال تعالى: (فى بيوت أذن الله أن ترفع ... ويذكر فيها اسمه ... يسبح له ... فيها بالغدو والأصال رجال) ولم يذكر النساء، لأن الرجل يتضمن المرأة فإن «حواء» من آدم اكتفى بذكر الرجال دون النساء تشريفا للرجال وتبهيها على حقوق النساء بالرجال. فسمى النساء هنا رجالا، فإن درجة الكمال لم تحجر عليهن بل يكملن كما تكمل الرجال. وقد ثبت فى الخبر كمال مريم وآسية امرأة فرعون». (٥٦٥/١).

٤ - الزكاة: العدل الاجتماعى والعدل الكوئى:

منذ اللحظات الأولى لنزول القرآن وقضية الفقر من أهم القضايا التى ما فتئت تتكرر فى سورة وآياته، إلى حد أن زجر اليتيم وحرمان الفقراء والمساكين يقترن دائما فى السرد القرآنى بالكفر، الذى يستحق عليه صاحبه عذاب جهنم. (انظر على سبيل المثال لا الحصر السور والآيات ٢٤/٦٨، ٤٧/٤٢ - ٤٤، ١٠٧ / ١ - ٣) بل إن القرآن يأمر محمدا نفسه (فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث) (س ٩٣ / ٦ - ١٠) من هنا تجاوز القرآن مسألة حض المؤمن على الصدقة والإحسان للفقراء، وهو موقف النصوص المقدسة فى كل الثقافات، وقام بفرض جزء من مال الأغنياء يعطى للفقراء بوصفه واجب عبادى كالصلاة. وكما أن الصلاة تقوم على طهارة الجسد والروح سعيا للاتصال بالله، فإن «الزكاة» تطهير للنفس من الأنانية والشح والبخل؛ أى أنها شرط فى اكتمال طهارة الروح. يقول الشيخ: «فأنزل الله الزكاة كما قلنا طهارة للأموال، وإنما اشتدت على الفاقلين الجهلاء لكونهم اعتقدوا أن الذى عين لهؤلاء الأصناف (=من المستحقين للزكاة) ملك لهم، وأن ذلك من أموالهم. وما علموا أن ذلك المَعْنى ما هو لهم وأنه فى أموالهم (حق معلوم للسائل والمحروم) لا من أموالهم، فلا يتعين لهم إلا بالإخراج. فإذا ميزوه حين ذلك

يعرفون أنه لم يكن من مالهم وإنما كان في مالهم مُدرجا. هذا هو التحقيق، وكانوا يعتقدون أن كل ما بأيديهم هو مالهم وملك لهم، فلما أخبر الله أن في أموالهم حق يؤدونه وما له سبب ظاهر تركز النفوس إليه لا من دَيْن ولا من بَيْع إلا ما ذكر الله من ادخار ذلك لهم ثوبا إلى الآخرة شق ذلك على النفوس للمشاركة في الأموال. فلما علم هذا منهم في جبلّة نفوسهم أخرج ذلك القدر من الأموال من أيديهم، فقال تعالى: (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) «(ف١/ ٥٧٣).

ربما يعبر ابن عربي في النص السابق تعبيرا دقيقا عن مفهوم ملكية المال في القرآن، فالمال مال الله، استخلف عليه الإنسان، وبالتالي يكون الاستئثار به عصيانا لإرادة المالك الأصلي. وربما يمكن القول أن الإسلام ضد أن يكون المال (دولة بين الأغنياء منكم) أي متداولا بينهم فقط، وهو بالتالي يحض على توزيع الثروة توزيعا عادلا لا يبخس المجتهد قدر اجتهاده ولا يكافئ الكسالى. ولكنه يضمن الحد الأدنى للإنساني للحياة الكريمة لكل أعضاء المجتمع وأفراده، بصرف النظر عن الدين أو العقيدة، فالمستحقون للزكاة بنص القرآن الكريم هم (الفقراء والمساكين والعاملين عليها وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل) دون تحديد لمسلم أو غير مسلم، ومن هنا يرى الفقهاء أن الزكاة للمسلم ولغير المسلم سواء بسواء. إنها المساواة في متع الحياة الدنيا، أما شأن الآخرة فهو متروك لله (يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون). ويجب أن يفهم موقف القرآن من «الربا» في هذا السياق، سياق تحقيق العدل الاقتصادي، بدلا من مناقشته خارج هذا السياق وحصره في مسألة «فوائد البنوك» على المدخرات أو على القروض.

انطلاقا من أن الزكاة هي حق للمساكين والفقراء فرضه الله في المال، يستنتج ابن عربي أنها من حقوق الله كالصلاة والصيام والحج، سواء بسواء. وبما هي حق لله على النفس، فما أسهل ما تتم النقلة من المعنى الاصطلاحي إلى «الاعتبار»: «إن الزكاة حق الله تعالى في المال والنفس ما هي حق لرب المال والنفس، فنظرنا في النفس من حيث ما هو لها فلا تكليف عليها فيه بزكاة، وما هو حق الله من تلك الزكاة فيعطيه الله من هذه النفس لتكون من المفلحين

بقوله: (قد أفلح من زكاها - ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) فإذا نظرنا للنفس من حيث عينها قلنا ممكنة لذاتها لا زكاة عليها في ذلك؛ فإن الله لا حق له في الإمكان تعالى الله علوا كبيرا فإنه تعالى واجب الوجود لذاته غير ممكن بوجه من الوجوه. ووجدنا هذه النفس قد اتصفت بالوجود فقلنا هذا الوجود الذي اتصفت به النفس ... ما هو عين ذاتها ولا اتصفت به لذاتها فنظرنا لمن هو فوجدناه لله كما وجدنا القدر المعين في مال زيد - المسمى زكاة - ليس هو مالا لزيد وإنما هو أمانة عنده. كذلك الوجود الذي اتصفت به النفس ما هو لها إنما هو لله الذي أوجدها؛ فالوجود لله لا لها ووجود الله لا وجودها، فقلنا لهذه النفس: هذا الوجود الذي أنت متصفة به ما هو لك وإنما لله خلقه عليك فأخرجيه لله وأضيفه إلى صاحبه وأبق أنت على إمكانك لا تبرح منه فإنه لا ينقصك شيئا مما هو لك. وأنت إذا فعلت هذا كان لك الثواب عند الله ثواب العلماء بالله، وثبت منزلة لا يقدر قدرها إلا الله، وهو الفلاح الذي هو البقاء فيبقى الله هذا الوجود لك لا يأخذه منك أبدا، فهذا معنى قوله: (قد أفلح من زكاها) أى أبقاها موجودة. انتهى» (ف/١ / ٥٧٤ - ٥٧٥).

هكذا يصبح زكاة النفس في الاعتبار أن لا تغتبر وجودها، بل تقفى في الوجود الحق، وتلك هي حقيقة الزكاة التي يتحقق بها الفلاح. لكن الشيخ الأكبر يحس واجبا عليه أن يحفر عميقا للكشف عن مصدر حب المال وأصله الوجودي والمعرفي. فمن الناحية الوجودية يستمد حب المال أصله من حب «الولد»، لأن انبثاق الموجودات أصله التوالد، سواء في ذلك مراتب الوجود الأساسية أم الموجودات المعينية، إنه «النكاح السارى في الذراري»، ولهذا فرض الله الزكاة في «المولدات»: «اعلم أن الله أوجب الزكاة في المولدات، وهي ثلاثة: معدن ونبات وحيوان. فالمعدن ذهب وفضة، والنبات حنطة وشعير وثمر، والحيوان إبل ويقر وغنم. فعلم جميع المولدات فأطلق عليها اسم المولدات لأنها تولدت عن أم وأب، عن فلان وحركته التي هي بمنزلة الجماع، وهو الأب والأركان الأم. فكان المال محبوبا للإنسان حب الولد. ألا ترى الله قرنه بالولد في الفتنة فقال: (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) فقدم المال على الولد في الذكر (والله عنده أجر عظيم)

إذا رزاكم في شيء منها. فالزكاة - وإن كانت طهارة للأموال وطهارة لأربابها من صفة البخل - فهي رزق في المال بلا شك، ولصاحبها أجر المصاب، وهو من أعظم الأجور».

وبسبب حب المال كانت نصيحة المسيح لقومه: «فقال عيسى عليه السلام لأصحابه: قلب كل إنسان حيث ماله، فاجعلوا أموالكم في السماء تكن قلوبكم في السماء فحث على الصدقة ... فانظر ما أعجب كلام النبوة وما أدقه وأحلاه. فمن ألحق الولد بالوالد ووصله به فله أجر من وصل الرحم؛ فينبغي على الإنسان أن يلحق ماله من حيث ما هو مؤلّد بأبيه الذي تولّد عنه لأنه قطعة منه». وعلى هذا الأساس يفسر ابن عريى مسارعة بنى إسرائيل لعبادة العجل الذي صنعه لهم السامري من حلبيهم وأموالهم: «وانظر في حكمة السامري لما علم ما قال عيسى عليه السلام من أن حب المال مُلصّق بالقلوب صاغ لهم العجل بمرأى منهم من حلبيهم لعلهم أن قلوبهم تابعة لأموالهم، فسارعوا إلى عبادته حين دعاهم إلى ذلك. فالعارف من حيث سره الريانى مُستخلف فيما بيده من المال، فهو كالولى على مال المحجور عليه». (ف: ٦١٠/١ - ٦١١).

ليس مهما أن ننقد ابن عريى على أساس أن «السامري» كان من قوم موسى، قبل زمن «عيسى» بدهور متطاولة؛ فالحكمة لا زمن لها، هذا فضلا عن أن مفهوم الزمن عند الشيخ مفهوم وضعى لا حقيقة له فى الحقيقة عند العارفين.

٥ - الصوم:

إذا كانت الصلاة تواصلا مع الله، والزكاة حق لله، فإن الصيام تشبه بالله بما هو امتناع اختياري عن الشهوات. إنه بمثابة «الضياء» الذى ينبع منه «النور». فإذا كانت الصلاة نورا فالصوم أصلها. ومن المرويات المتواترة عن النبی قوله: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به». يرى الشيخ الكبير أن الذين عبدوا المسيح من النصارى ظنوه إلها؛ لأنه «كان يصوم الدهر ولا يفطر، ويقوم الليل فلا ينام، فكان ظاهرا فى العالم باسم الدهر فى نهاره وباسم القيوم الذى (لا تأخذه سنة ولا نوم) فى ليله؛ فادّعى فيه الألوهية فقيل: (إن الله هو المسيح

بن مريم) وما قيل ذلك في نبي قبله، فإن غاية ما قيل في العُرَيْر أنه ابن الله وما قيل هو الله. فانظر ما أثرت هذه الصفة من خلف حجاب الغيب في قلوب المحجوبين من أهل الكشف حتى قالوا: (إن الله هو المسيح بن مريم).

وفي هذا السياق لا يترك ابن عربي النصارى دون أن ييرئهم من «الكفر» بالمعنى الاصطلاحي، ويفسره بالمعنى اللغوي، وهو «الستر»، «فنسبهم (=الله) إلى الكفر في ذلك إقامة عذر لهم؛ فإنهم ما أشركوا بل قالوا هو الله، والمشارك من يجعل مع الله إلهاً آخر. فهذا كافر لا مشرك، فقال تعالى: (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم) فوصفهم بالستر واتخذوا ناسوت عيسى مجلى، ونبّه عيسى على هذا المقام فيما أخبر الله تعالى تثبيته لهم فيما قالوا، فقال المسيح: (يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم) فقالوا كذلك نعمل فعبدوا الله فيه، ثم قال لهم: (إنه من يشرك بالله فقد حرم عليه الجنة) أى حرم عليه كنفه الذى يستره، والله قد وصفهم بالستر حيث وصفهم بالكفر، فهى آية يعطى ظاهرها نفس ما يعطى ما هو عليه الأمر فى ذلك. والتأويل فيها يلحق بالذم. فإن تفتنّ لما ذكرناه وقمت فى بحر عظيم لا ينجو من غرق فيه أبداً. فما أحكم كلام الله لمن نظر فيه واستبصر، وكان من الله فيه على بصيرة. انتهى». (١: ٦٨٣).

إذا كان الشيخ يبرئ النصارى من ارتكاب خطيئة «الشرك» ويفسر كفرهم بمعنى «الستر»، فإن المشركين كذلك يتمتعون فى الأفق التأويلي للشيخ بحق الانتماء إلى الخلاص العام. «ما عبد المشرك إلا الله، لأنه لو لم يعتقد الألوهية فى الشريك ما عبده: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) ولذلك غار الحق لهذا الوصف فعاقبهم فى الدنيا - إذ لم يحترموا - ورزقهم وسمع دعاءهم إذ سألوهم الأرزاق لعلمه تعالى أنهم ما لجئوا إلا هذه المرتبة وإن أخطئوا فى النسبة». (٣٦٦/١).

لكن إذا كان الصوم الدهرى - صوم عيسى - على هذه الدرجة من الالتباس، فهو لاشك غير مستحب؛ لذا كان محمد يصوم ويفطر، ويقوم الليل وينام، تأكيداً لحقيقة كونه بشراً. من هنا فإن «أفضل الصيام وأعدله صوم يوم فى حقك وصوم يوم فى حق ربك، وبينهما فطر يوم، فهو أعظم مجاهدة على النفس

وأعدل في الحكم. ويحصل له في مثل هذا الصوم حال الصلاة كحالة الضوء من نور الشمس؛ فإن الصلاة نور والصبر ضياء وهو الصوم. والصلاة عبادة مقسومة بين رب وعبد. وكذلك صوم داود عليه السلام صوم يوم وفطر يوم؛ فتجمع ما هو لك وما هو لربك. ولما رأى بعضهم أن حق الله أحق لم ير التساوى بين ما هو لله وما هو للعبد، فصام يومين وأفطر يوماً. «وهذا الصيام ينسبه الشيخ الأكبر للسيرة «مريم»، التي أرادت أن تلحق بابنها، ومن فكرة «الالتحاق» يعود الشيخ استطراداً لمكانة المرأة من الرجل من حيث الكمال، ويؤكد أن كمال المرأة مستمد من كمال الرجل. «وهذا كان صوم مريم عليها السلام، فإنها رأت أن للرجال عليها درجة فقالت عسى أجعل هذا اليوم الثاني في الصوم في مقابلة تلك الدرجة. وكذلك كان فإن النبي صلى الله عليه وسلم شهد لها بالكمال كما شهد بذلك للرجال. ولما رأت أن شهادة المرأتين تعدل شهادة الرجل الواحد قالت صوم اليومين بمنزلة اليوم الواحد من الرجل، فنالت مقام الرجال بذلك فساوت داود عليه السلام في الفضيلة والصوم. فهكذا من غلبت عليه نفسه فقد غلبت عليه أنوثيته، فينبغي أن يعاملها بمثل ما عاملت به مريم نفسها في هذه الصورة حتى تلحق بعقلها. وهذه إشارة حسنة لمن فهمها، فإنه إذا كان الكمال لها لحوقها بالرجال فالأكمل لها لحوقها بريها كعيسى بن مريم ولدها». (٦٨٣/١).

٦ - الحج :

الحج وإن كان يرتد تاريخياً إلى ما قبل الإسلام، حيث كانت «الكعبة» قبل الإسلام قبلة للحج والتجارة بحكم موقعها في «مكة» طريق التجارة من جهة، وبحكم أنها كانت مجمع الأوثان، آلهة القبائل العربية. وما زالت شعيرة الحج في القرآن تحمل مزيجا من ملامح الدينى والدنيوى، إذ الفرض منه أن يشهد الحجاج (منافع لهم ويذكرا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام). وهو في أركان الإسلام يأتي آخرها، إذ أنه مفروض مرة واحدة في العمر بشرط القدرة المالية على تكاليف السفر، والقدرة الصحية على تجشم مشاقته. وهو من الناحية الشعائرية أقرب إلى الصلاة الكبرى بحكم ما يتضمنه

من تهليل وتلبية وتضحية، تستعيد تمثيلا قصة فداء ولد «إبراهيم» الذي استجاب للرب وكاد أن يذبح ولده .

ليس ثمة خلاف ملموس بين الفقهاء والمتصوفة فى الفهم الرمزي للحج وشعائره، غير أن تأكيد المتصوفة لرمزية الحج يعتمد على مقارنة وموازة بين «الكعبة» و«قلب المؤمن» من جهة، وبينهما معا وبين «البيت المعمور» فى الجنة، الذى تطوف حوله الملائكة، من جهة أخرى . ويعلو مجال المقارنة الرمزية عند ابن عربى بصفة خاصة ليصبح «قلب العارف» موازيا لعرش الرحمن، والخواطر التى تطوف به توازي ملائكة العرش . هكذا يفهم الشيخ أن الكعبة فى التعبير القرآنى هى «بيت الله»، و«الله» هو الاسم الجامع، من هنا تستمد «الكعبة» طبيعتها الجمعية . من هنا تصح الموازة بين الكعبة وقلب المؤمن؛ إذ كما يطوف حول الكعبة الصالحون والطالحون، فقلب المؤمن عرضة لأن تطوف به بالمثل الخواطر الخيرة والخواطر الشريرة، خواطر الملك ووساوس الشيطان سواء بسواء . «العرش» من جهة أخرى ينسب إلى الاسم «الرحمن»، ولا تطوف به إلا الملائكة، من هنا يوازيه قلب «العارف» . من هنا يمكن المقارنة بين الكعبة والعرش مقارنة عامة، لكن الفارق يبقى عميقا بينهما، الأمر الذى يسمح للشيخ أن يقول إن قلب العارف - الذى يسع الرحمن - أشرف من الكعبة وأعلى مقاما . ألم ينسب إلى النبى قوله على لسان ربه فى حديث قدسى : ما وسعنى أرضى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن؟

«اعلم أيدك الله أن «الحج» فى اللسان تكرر القصد إلى المقصود، و«العمرة» الزيارة . ولما نسب الله تعالى البيت إليه بالإضافة فى قوله لخليله «إبراهيم» عليه السلام : (وطهر بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود) وأخبرنا أنه أول بيت وضع للناس معبدا فقال : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا . ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) جعله نظيرا ومثالا لعرشه، وجعل الطائفين من البشر كالملائكة الحافين (من حول العرش يسبحون بحمد ربهم) أى بالثناء على ربهم . وثأؤنا على الله فى طوافنا أعظم من ثناء الملائكة عليه سبحانه بما لا

يتقارب. ولكن ما كل طائف يتبته إلى هذا الشاء الذى نريده، وذلك أن العلماء بالله إذا قالوا: «سبحان الله» أو «الحمد لله» أو «لا إله إلا الله» إنما يقولونها بجمعيتهم للحضرتين والصورتين، فيذكرونه بكل جزء ذاك الله فى العالم ويذكر أسمائه إياه. ثم إنهم ما يقصدون من هذه الكلمات إلا ما نزل منها فى القرآن، لا الذكر الذى يذكرونه، فهم فى هذا الشاء نواب عن الحق يُثبون عليه بكلامه الذى أنزله عليهم، وهم أهل الله بنص رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنهم أهل القرآن. وأهل القرآن هم أهل الله وخاصته فهم ناثبون عنه فى الشاء عليه ... فهو شاء إلهى قدوس طاهر نزيه عن الشوب الكونى ... ولما جعل الله قلب عبده بيتا كريما وحرما عظيما وذكر أنه وسعه حين لم يسعه سماء ولا أرض علمنا قطعاً أن قلب المؤمن أشرف من هذا البيت، وجعل الخواطر التى تمر عليه كالمطافئين. وكما كان فى الطائفين من يعرف حرمة البيت فيعامله فى الطواف به بما يستحقه من التعظيم والإجلال، ومن الطائفين من لا يعرف ذلك فيطوفون به بقلوب لاهية وألسنة بغير ذكر الله ناطقة، بل ربما يطوفون بفضول من القول وزور، كان كذلك الخواطر التى تمر على قلب المؤمن منها مذموم ومنه محمود».

(ف/١/٦٩٧).

وثمة سؤال يحوم ابن عربى حوله دون أن يصرح به: هل الحج وقف على المسلمين دون غيرهم؟ وبعبارة أخرى: إذا كانت الدعوة للحج دعوة «إبراهيم» الذى أمره الله - بنص القرآن - أن يؤذن فى الناس للحج، فلماذا لا يدخل فى إطار الدعوة «الناس» جميعاً؟ من الصعب أن نتوقع أن يطرح الشيخ السؤال هكذا واضحاً صريحاً لا لبس فيه، لكن ما يقدمه من تحليل لمعنى «الإسلام العام» و«الإسلام الخاص»، بالإضافة إلى نفيه وجود «الكفر» فى العالم وتأكيده أن «المشرك» ما عبد فى الحقيقة إلا الله، ينتهى به إلى نتيجة فحواها أن «الحج» مطلوب من كل مسلم، وما فى الكون إلا مسلم: «لأنه ما ثم إلا منقاد للأمر الإلهى، لأنه ما ثم من قيل له «كن» فأبى بل يكون من غير تثبط، ولا يصح إلا ذلك. فإذا وقع الحج ممن وقع منه من الناس ما وقع إلا من مسلم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحكيم بن خزام (الذى كان يتبرر فى الجاهلية بأمر

من عتق وصدقة وصلة رحم وأمثال ذلك - فتوحات: ٦٢٤/٢) : أسلمت على ما أسلفت من خير - ولم يكن مشروعاً من جانب الله له ذلك في حال الجاهلية وقبل بعثة الرسول - فاعتبره له الله تعالى لحكم الانقياد الأصلي الذي تعطيه حقيقة الممكن، وهو «الإسلام العام». فمن اعتبر المجموع وجد، ومن اعتبر عين الصفة وجسد. ولكل واحد شرب معلوم من علم خاص، فإنه يدخل فيه هذا الإسلام الخاص المعروف في العرف الحاكم في الظاهر والباطن معا. فإن حكّم في الظاهر لا في الباطن كالمنافق الذي أسلم للتقية حتى يعصم ظاهره في الدنيا، فهذا ما فعل ما فعل من الأمور الخيرية التي دُعِيَ إليها لخيريتها، فما له أجر. والذي فعلها وهو مشرك لخيريتها نفعته بالخير المئوي، فلا بد أن ينقاد الباطن والظاهر، وبالمجموع تحصل الفائدة مكتملة، لأن الداعي دعاه باسم الجامع (ولله على الناس حج البيت) والمدعو دُعِيَ من الاسم الجامع لصفة جامعة وهو «الحج»، والحج لا يكون إلا بتكرار القصد، فهو جمع في المعنى. فما في الكون إلا مسلم، فوجب الحج على كل مسلم. فلماذا لم يُتصوّر فيه خلاف بين علماء الرسوم وعلماء الحقائق، وعالم الحقائق أتم من عالم الرسوم في هذه المسألة». (٧٠١/١).

هكذا ندرك أننا مع ابن عربي ندور في دائرة، ننتهي فيها من حيث نبدأ، لكننا لا نعود إلى نفس النقطة؛ إذ يزيدنا الطواف في فلك ابن عربي، والسباحة في محيطه، وعيا يستحيل معه أن تتشابه البداية والنهاية، رغم أنهما نقطة. إنها النقطة التي منها خرج الوجود وإليها يعود. وكما قال لنا ابن عربي في الفصل الأول أنه وصل إلى ما وصل من حالة «الجاهلية» إلى أفق «ختم الولاية» بفضل اتباع الشريعة والسير على نهج خاتم الأنبياء، فإن تحليلنا لتأويله للشريعة في هذا الفصل الأخير من كتابنا قد كشف لنا بعض جوانب التجربة وجوديا وعرفانيا. إن الشريعة هي ميزان الوجود، لها كالوجود ظاهر وباطن، وهي تشمل ظاهر الإنسان كما تشمل باطنه. بالعمل بها ظاهرا وباطنا تنكشف الحجب وتتجلى الحقيقة، وينبثق المعنى: معنى الوجود والحياة، لكنه المعنى الإنساني العام، معنى «الدين» و«الإسلام» الذي يشمل كل البشر.

محتويات الكتاب

٧	إهداء
٩	مقدمة
١٧	تمهيد
٢٩	الفصل الأول : من الجاهلية إلى ختم الولاية
٦٣	الفصل الثاني : قيود المكان وضغوط الزمان
٩٥	الفصل الثالث : اللقاء بابن رشد
	الفصل الرابع : جدلية الوضوح والغموض التجريبية الصوفية بين
١٢٧	الكشف والستر
١٦٧	الفصل الخامس : نشأة الوجود ومراتب الموجودات
٢٠٧	الفصل السادس : تأويل الشريعة : جدلية الظاهر والباطن

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٢/١٥٢٦٤

I . S . B . N 977 - 01 - 8108 - 0

تقديم : صبرى عبدالواحد

لوحة الغلاف للفنان: سامي بخيت

ماذا يمكن أن يقول لنا ابن عربى فى القرن
الواحد والعشرين من وراء ستار القرنين
السادس والسابع الهجريين (الثانى عشر
والثالث عشر الميلاديين) فى العالم الإسلامى
عموماً وفى الأندلس على وجه الخصوص؟ لنلق
أولاً نظرة على حالتنا فى بدايات القرن الحادى
والعشرين، قبل أن نبدأ رحلتنا مع الشيخ الأكبر
فى القرن الثانى عشر.

Bibliotheca Alexandrina



0433673

الثمن ٥٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب